

شهادة من مساحة الفداء بالدرار

20 مايو 2016 - 23 مايو 2017



شهادات من ساحة
الفتاء بالدرار



مركز أوال للدراسات والتوثيق
AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION



اسم الكتاب: حُماة الباب الأخير

شهادات من ساحة الفداء بالذّراز خلال الفترة

(20 يونيو 2016 / 23 مايو 2017)

الطبعة الأولى، بيروت 2020

© لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال.

www.awalcentre.com | info@awalcentre.com

ISBN 978 - 9953 - 0 - 5265 - 6

شهادات من ساحة الفداء بالدرار

20 مايو 2016 – 23 مايو 2017

البيان الختامي

إهداء

إلى أمهات الشهداء..

نكتب التاريخ الذي خطه أبناؤكن

الفهرس

9

مقدمة

- 11 الفصل الأول: مرابطون عند الباب الأخير
- 13 عباس علي: هكذا كنّا نتحدّى الحصار ونخرج أقوى
- 53 جعفر علي: يد الله تحيطني ويد الشهداء
- 65 محمد حسين: هكذا تلقى الشيخ خبر إسقاط جنسيته
- 75 الفصل الثاني: مذكرات ساحة الباب الأخير
- 77 حسن محمد: هكذا صارت الساحة مسجداً ومجالس الدراز بيوتنا والمعتصمون أهلنا
- 101 محمود عطية: يوميات الحرّ والبرد والمطر والمداهمات والوفاء والذاكرة الشرية
- 126 كريم علي: في المضائف والطبخ وإدخال المؤونة إلى الساحة
- 135 الفصل الثالث: اقتحام الباب الأخير
- 137 المصوّر أحمد الماضي: أطلق الرصاص على يدي وتلطخت الكاميرا بالدم
- 146 يوم الملحمة.. هكذا عشنا اللحظات الأخيرة قبل الهجوم حتى الاعتقال
- 171 مريم عباس: يوم الهجوم، تودعت مع زوجي وذهبنا إلى المجهول
- 181 صادق حسين: هكذا حولوا البيت الملاصق لبيت الشيخ إلى وكر تعذيب

191	الفصل الرابع: علماء عند الباب
193	الشيخ عبد الجليل جعفر: طلاب الحوزات من الظلّ إلى الواجهة
203	الشيخ جعفر سعيد: ساحة الفداء وصناعة الشخصية
229	الشيخ حبيب علي: الروح المعنوية العالية في ساحة الفداء
236	الشيخ فاضل علي: الشهداء سقطوا مقبلين لا مدبرين
241	الفصل الخامس: شهداء الباب الأخير
243	الشهيد محمد كاظم زين الدين: رائحة العطر الأخير
248	الشهيد محمد الساري.. وهل أوثق من سبب بينك وبين الله؟
267	أبو آلاء.. هكذا استشهد محمد الساري
273	الشهيد أحمد جميل العصفور: لن أغادر الباب إلا جثة هامدة
282	ملائكة الحمد: الشهيدان مصطفى ومحمد
302	الشهيد محمد العكري: أمسك الباب
309	ملحق: جدول أحداث ساحة الفداء

مقدمة

لماذا الباب الأخير؟ لأنه الرمز الأخير لهذا الوجود الذي انتُهكت أبوابه كلّها برعونة مستبدة: باب حريته وباب حقوقه وباب عقيدته وباب شعائره وباب إرادته وباب وجوده وباب أصالته في أرضه. الرمز الديني هو آخر الأبواب التي يقيم - حتى المستبد - لها وزناً ويتجنّب الاصطدام المباشر بها. ظنّ البحرينيون أن السلطات لن تتجرأ على هتك هذا الباب الأخير بما يمثله من رمزية خاصة عند الفئة الأكبر من هذا الشعب، ظنوا أنها ستحتفظ بحرمة أخيرة تداري بها سوءاتها، ولو من أجل حفظ بقايا صورتها أمام العالم، لكنها لم تكثرث، لا للأخلاق ولا للدين ولا للمبادئ ولا لحقوق الإنسان ولا حتى لصورتها القبيحة أمام العالم.

عند الطرف الآخر من الباب، اختارت ثلّة من شباب ورجال ونساء هذا الوطن، أن يرهنوا أنفسهم حماية لهذا الباب، قرروا أن يدفعوا حياتهم وأرواحهم ثمناً لوجودهم الرمزي الأخير، غادروا بيوتهم وأولادهم وعوائلهم وتمسّكوا بالاعتصام عند باب هذا الشيخ. لم ينكثوا. استبسلوا حتى النفس الأخير.

جمّعت شهادات هذا الكتاب على فترات متفاوتة. معظمها بين العامين 2017-2018، بعضها لشباب يعيشون خارج البلاد الآن. لم يكن من السهل نشرها خوفاً من تعرّض أصحابها للانتقام أو

تغليظ العقوبات، خاصة مع اعتقال السلطات قرابة الـ 300 بحريني آنذاك وإحالتهم إلى المحاكمة بتهم التجمهر والاعتداء على رجال الأمن.

لقد أُغلق ملف قضية اعتصام الدراز في 30 مايو/ أيار 2019 بعد أن خفّضت محكمة الاستئناف العليا الجنائية عقوبات 109 بحرينيين، حكمت بالسجن 7 سنوات بدلاً من عشر لـ 27 منهم، وخففت عقوبة 82 إلى الحبس 6 أشهر بدلاً من سنة واحدة، وقضت بسقوط الحق في الاستئناف لـ 27 شخصاً وتأيد عقوبات لـ 10 آخرين.

وعلى الرغم من إغلاق الملف قضائياً ومغادرة آية الله الشيخ عيسى قاسم إلى بريطانيا لتلقي العلاج في يوليو/ تموز 2018، إلا أننا قمنا، حرصاً على سلامة أصحاب هذه الشهادات بوضعها جميعها تحت أسماء مستعارة، كما تجنّبنا ذكر بعض التفاصيل لأسباب تتعلق أيضاً بسلامة الشهود، الذين حرص مركز أوال على نقل شهاداتهم كما هي. ولا بُدّ من أن يأتي يوم يُكشّف فيه عن هويات كل الذين خطّوا هذه المرحلة من تاريخ البحرين.

وجدنا أنه من الواجب علينا توثيق هذه الملحمة الإنسانية كما عاشها حُماة الباب الأخير وكما رووا تجارب الشهداء الذين سقطوا دون الباب، فالتاريخ الذي لا يُكتب، يموت.

مركز أوال للدراسات والتوثيق

23 مايو/ أيار 2020

الفصل الأول:

مرابطون عند الباب الأخير

عباس علي:

هكذا كنّا نتحدّى الحصار ونخرج أقوى

بدأ الاعتصام بشكل عفوي. تداعى الناس إليه وتوافدوا إلى الدراز منذ سماعهم قرار إسقاط جنسية الشيخ بلا تنسيق ولا دعوة من أحد، وكنتُ من أوائل الوافدين.

لم تلبث الأعداد أن راحت تتزايد، بينهم مشايخ وعمائم، لم تكن هناك صورة واضحة، الحماس والجرأة كبيران، وردود الفعل عفوية وملتهبة. بدأت الصور تنتشر عبر وسائل التواصل المجتمعي. احتشدت الجماهير عند بيت الشيخ، وارتفعت الهتافات، الناس بين غضب وتأثر وبكاء، الجميع يعلمون ماذا وراء إسقاط الجنسية: الترحيل. ولا أحد يتصور البحرين من دون هذه الشخصية الطاهرة. الجميع صُدموا بهذا القرار الجائر.

لم يكن أحد يفكر بخطورة ما يفعله أو يقوله على النفس من ناحية أمنية، ولم يتردد أحد في حمل الميكروفون وإعلان الرفض القاطع لهذا القرار، بل في تقديم نفسه فداء التراجع عن هذه الخطوة.

كان حضور المشايخ ورجال الدين حاشداً أيضاً، ربما بلغ عددهم الستين، وكان بينهم الشيخ عبد الحسين الستري، وسماحة السيد عبد الله الغريفي، والشيخ محمد صالح الربيعي.

الشيخ يأمر بالمغادرة

قراية الظهر، خرج الشيخ عيسى قاسم إلى الجماهير؛ وقف عند باب بيته، وطلب من الجماهير المحتشدة المغادرة. كان خائفاً على الناس من أي تصرف مؤذٍ من قبل السلطة، لكن الهتافات تعالت أكثر: «بالروح بالدم نفديك يا فقيه». الجماهير أصرت على البقاء والفداء.

كان الشيخ ينطلق من خلال تكليفه الشرعي الخاص، تكليف حماية هذا التجمع، وحماية الناس، وحقن الدماء، وحرصه على البلد، وتجنب الناس أي نوع من أنواع الخسائر. هكذا كان نهجه طوال مسيرته، لكن كان لدينا تكليفنا الشرعي الخاص، فهو قيادة شرعية بالنسبة لنا، ويجب علينا الدفاع عنه، حتى لو أمرنا هو بالمغادرة، هذا تكليفنا الشرعي، ونحن محاسبون عليه.

تكرر هذا النقاش مرات ومرات خاصة عند بداية الاعتصام، كان الشيخ مصراً على مغادرتنا. في مساء اليوم الثاني، اجتمع بالشيخ وفد مكون من عشرة من المشايخ وكبار الشخصيات، على رأسهم السيد مجيد المشعل. بعدها، خرج السيد مجيد المشعل من بيت الشيخ، وأمسك الميكروفون، وقال إنه بطلب من وفد العلماء وسماحة الشيخ، يجب على الجمهور التفرق والمغادرة، وأعلن أنه ستكون هناك خطوات لمواجهة هذا القرار.

كان السيد واقفاً في مكان مرتفع، وما إن نطق بقوله هذا، حتى ارتفعت الأصوات غاضبة ومدوية وحدثت ضجة عارمة. بعض الشباب سحبوا الميكروفون من يد السيد، وبعضهم أتبوه: «انت

ويش قاعد تقول سيد؟ شنو نمشي؟ شنو طلب العلماء؟ شنو طلب سماحة الشيخ؟! «كان الاستنكار شديداً.

نزل السيد، حاوطه الشباب وسأله سؤالاً واضحاً: «أنت، هل ستغادر؟» أجابهم: «أنا أعلنت الموقف الذي كُلفت بنقله خلال الاجتماع، والآن بعد أن أنهيت نقل الموقف، أخبركم أنني باقٍ هنا حتى لو لم يبقَ معي أحد، هذا هو تكليفي الشرعي». ازداد إصرار الشباب على البقاء، لكن كان هناك من غادر بالفعل.

إفطار اليوم الأول

منذ اللحظات الأولى، كانت التحركات سريعة. كان لا بدَّ من تهيئة المكان للاعتصام الذي قد يطول، حتى يستقبل الحشود ويستوعبها. كان التحدي الأول والأكبر هو وجبات الإفطار، إذ كُنَّا في شهر رمضان. ولأننا كُنَّا مأخوذين بالحدث، لم نلتفت إلى موضوع الإفطار إلا عند الساعة الثالثة بعد الظهر، أي كان يفصلنا عن الأذان حوالي ثلاث ساعات، فكان لا بدَّ من تدبر الأمر، أحد الإخوة لديه خبرة في الطبخ ولديه معدات، تولى عملية الطبخ السريع: دجاج مع أرز أبيض.

وبما يشبه الفزعة، توافدت الخيرات من كل مكان. أهالي الدراز ضاعفوا كميات الطعام الخاصة بهم وأخرجوها للناس، المحلات والبرادات المحيطة بالدراز كلُّها فرغت من الألبان والعصائر والماء والتمور.

كان يوماً متعباً، بين الصوم والطقس الحار نسبياً والتواجد منذ الظهر وحرارة الشمس والانفعال والغضب والحماس والهتافات، ما أشعرنا بالإنهاك والعطش الشديد. شعرنا أن الماء جفَّ في

أجسادنا، حملنا قناني الماء في أيدينا بانتظار أذان المغرب، لم يكن يهمنا الطعام بقدر الماء. وأم الشيخ عبد الحسين الستري أول صلاة جماعة في الساحة؛ صلاة العشاءين.

أجواء الاعتصام

منذ الليلة الأولى، شعرنا أنّ هناك ترتيباً أكبر من الأفراد، كل الأمور كانت تتيسر بشكل غريب. ولم يسبق لي أن شهدتُ تنظيمًا تلقائيًا كالذي حصل طوال فترة تواجدنا هناك.

فُتحت بعض مجالس البيوت المجاورة لبيت الشيخ للمعتصمين منذ اليوم الأول بعد الظهر، كان التعب بادياً على المتواجدين. على الرغم من ذلك، أثر البعض البقاء في الخارج تحسباً لأي طارئ، فقد تلقّى بعض النواب السابقين المتواجدين في الاعتصام تهديدات عبر الاتصال بهم وإخبارهم أن القوات ستأتي لفض الاعتصام وضربه، فتوزع الشباب بشكل عفوي عند المنافذ الرئيسة المؤدية إلى بيت الشيخ لكي يخبروا الباقين في حال هجوم القوات.

تم تدبير فرش خفيف للجلوس عليه في الخارج، لم يكن مريحاً بطبيعة الحال للجلوس والنوم، ثم راح الأهالي يخرجون قطع الزل التي لا يحتاجونها من بيوتهم، بعضها كان من النوع السميك والباهظ الثمن. كذلك وفروا لنا ما لديهم من المخدرات والبطانيات، هذا بالإضافة إلى ما اشتراه الناس وساهموا به لتغطية حاجة الأعداد الكبيرة.

حرص البعض على البقاء عند باب بيت الشيخ ليلاً ونهاراً، ولم يغادروه. رفضوا الدخول إلى المجالس القريبة والملاصقة لبيت

الشيخ خوفاً من حدوث هجوم مباغت. بعضهم، طوال 11 شهراً، وحتى الأيام الأخيرة، رفضوا النوم داخل مجلس أو غيره، تحملوا موجات البرد والحر بكل تفاصيلها. لم يكن أحدهم يغادر إلا لأمر طارئ ثم يعود على وجل، كان أحدهم قريب أحد الشهداء، إنها عائلة ذات صمود أسطوري، وكذلك عدد من العوائل مثل عائلة الشهيد محمد الساري، الذي اعتُقل إخوته الأربعة، فكانوا شهيداً وأربعة معتقلين من بيت واحد. الشهداء لا يأتون منفصلين عن عوائلهم، بل من بيئة تضخ فيهم هذه الروحانية وهذا الحماس. بعض الأهالي كانوا يخاطبون أبناءهم بالقول: «عندما تنالون الشهادة بين يدي هذا الرجل، نحن نفخر بكم ونرفع رأسنا فيكم». أحد الشباب الجامعيين قال له والده: «يا ولدي أنت عزيز، بس الشيخ أعز». كان الأب يوصل ابنه كل يوم من الجامعة إلى الاعتصام، ويشارك قدر الإمكان، لكن الابن كان يتواجد أكثر.

بدأت السلطات بإغلاق المداخل عن طريق نشر سيارات الجيب والمدرعات والحواجز منذ اليوم الثاني. تم تفعيل عمليات التفتيش، وازداد الانتشار الأمني حتى عند الساحل. بعض المعتصمين لم يذهبوا إلى أعمالهم في اليومين الأول والثاني، ثم عادوا لتنظيم أوضاعهم. وفي المقابل، بدأ شكل هذا الاعتصام الطويل الذي استمر 11 شهراً كاملاً، يتبلور في اليوم الثاني.

تزامنت بداية الاعتصام مع الإجازة الصيفية. ما جعل طلاب المدارس والجامعات يشكّلون ثقلًا بكثافة تواجدهم، وبعد انتهاء الإجازة، تأثر العدد. بشكل عام، كان المعتصمون ينتمون إلى كل المراحل العمرية. شكّل الشباب الغالبية، وهو أمر طبيعي، فهم، بحماسهم، وقود الثورات والحركات والمحرّك الرئيس لها. الفتية

على الأخص هم الأكثر ثورة، ربما لأنهم أقل تلوثًا بالدنيا وأقل تعلّقًا بملذاتها، أنفسهم طاهرة، ولهذا أغلب الشهداء من هذه الفئة، لأنهم فعلاً، بطهارة قلوبهم، وصفائهم، وإخلاصهم لرب العالمين، يستحقون هذه المرتبة.

تنظيم الاعتصام

في اليوم الثاني أو الثالث، تم تركيب السماعات بحيث تغطي المنطقة بكاملها. قبلها، كان البعض قد أحضروا سماعات صغيرة بشكل عفوي.

ناداني أحد المشايخ البارزين، وهو ممن تم اعتقالهم لاحقاً على خلفية الاعتصام. أخبرني أنه تم تشكيل لجنة تنظيمية لإدارة برنامج وفعاليات الاعتصام، وكلفني بالانضمام إليها. حضرت الاجتماع الأول في أحد البيوت القريبة بوجود عدد من المشايخ والناشطين، وتم الاتفاق على تنظيم برنامج يومي.

كانت البداية صعبة، لأنها سترسم وجه الاعتصام ومعالمة. تجاربنا السابقة كانت سياسية، لكن في هذه المرة، الموضوع مختلف. كان واضحاً منذ بداية الأمر أن هذا البرنامج ديني، لا سياسي. البرنامج يجب أن يركز على الحماس الديني، بحيث يؤدي إلى تأصيل هذا التواجد، وإثارة الهمة والعزيمة عند الشباب، والتحفيد لمواصلة هذا الاعتصام.

تم وضع تصور للبرنامج الديني بحيث لا يرهق الجمهور: أدعية ومحاضرات وجدول لإمامة الجماعة بين المشايخ، وبرنامج بسيط قبل أذان الصبح، ثم صلاة الجماعة، تعقبها خطبة قصيرة ثم استراحة في الصباح، وعند المغرب، برنامج قبل الأذان

وتهيئة للصلاة، مع جعل معظم البرامج والفعاليات في الليل بما يتوافق مع الحضور الرمضاني: رفع صور الشيخ مع هتافات، ووقفات تستمر ساعة تقريباً. كان التواجد بشكل عام يتزايد ليلاً، وكان محيط بيت الشيخ يغصّ بالأعداد. وتضمّن البرنامج كلمات علمائية، ومجالس حسينية.

تم توفير 4 مضائف لتوزيع الإفطار والسحور. كانت هناك مجموعة من الشباب مسؤولة عن المطبخ وإدارة الوجبات، الأسمطة تمتد على طول الساحة، كل واحد من الشباب يأخذ وجبته من المضيف ثم يأتي ليجلس على السفرة الطويلة، وكان توزيع الفطور يتم في أجواء مرحة وجميلة، كما أن معظم البيوت كانت تساهم في تزويد المضيف بالمأكولات والطبخ. صارت العوائل تطبخ أضعاف حاجتها لتساهم بالأطباق للمضائف، وكان هناك تنوع كبير في الأطعمة والاختيارات لمن لا يفضل نوعاً معيناً من الطعام، فضلاً عن التمر والحلويات. لم ينقصنا الطعام يوماً، كان دائماً يزيد عن حاجتنا. ثم بعد الانتهاء، يتشارك الجميع في تنظيف المكان، كان هناك إحساس كبير بالمسؤولية لدى الجميع، لا أحد يتقاعس أو يعتمد على غيره، ولم يكن هناك اعتماد على فريق معين، الجميع كانوا يبادرون ويساهمون ويتعاونون ويعطون بحبّ وحماس.

لم نكن نتعطل أمام أي حاجة أو غرض نحتاجه، فهناك دائماً من يتبرع ويحضر الأشياء على أسرع وجه، لا أحد من الشباب يأتي من الخارج بيد فارغة، وأهالي الدراز كانوا دائماً سباقين. كلما احتجنا لشيء من الخارج، تواصل الشباب مع أحد القادمين إلى الاعتصام ليحضرها معه. وإذا احتجنا للتبضع، كان يتم عادة

إرسال شباب الدراز، إذ كان بإمكانهم الدخول والخروج. وعندما يأتي الشباب من خارج الدراز، كانوا يوقفون سياراتهم في الخارج ويدخلون مشياً، ويذهب أحد شباب الدراز ويحضر سياراتهم كي لا تبقى في الخارج وتتعرض للضرر، خاصة لمن يبقى في الداخل لأيام طويلة.

كانت حرارة الطقس ترتفع يوماً بعد يوم، وقر الشباب منذ البداية عددًا من المراوح، تم توصيلها بكهرباء البيوت القريبة عبر محولات طويلة، ثم تمت زيادة عددها تدريجياً بمساهمة الأهالي والمقندين.

بدأ الشباب يتوزعون في المجالس القريبة المفتوحة، وصار في كل مجلس مجموعة معروفة، وكل مجموعة صارت محسوبة على (بيت)، صاروا يسمون المجلس (بيتنا). مع الوقت، صاروا يشعرون أن هذا المجلس بيتهم فعلاً. الجميع ينامون على الأرض.

معظم أصحاب المجالس وقرّوا للشباب حمامات للاستحمام، بعضهم هياً لهم مكاناً معزولاً بالكامل ليأخذوا راحتهم في الدخول والخروج.

أما ملابس المعتصمين، فعند اتساخها، كان البعض يأخذونها إلى أقرب مغسلة ويحضرونها مكوية ونظيفة بمبلغ لا يتجاوز 50 فلساً للقطعة، والبعض كانوا يحضرون غسالات متحركة ويقومون بغسل ثيابهم ونشرها، والبعض يذهبون إلى بيوتهم ويحضرون ثياباً نظيفة ثم يعودون.

شعائر شهر رمضان

كان الجمهور يتربّح أول مناسبة جماهيرية قادمة في شهر رمضان وهي استشهاد الإمام علي (ع). شكّلت هذه المناسبة تحدّيًا، فكيف سيتمّ التوفيق بين الاعتصام وإحياء الشعيرة في المآتم. كانت التصور واضحًا عند الشيخ محمد صنفور، وقال للشباب حين سألوه: «المآتم هو المكان الذي يذكر فيه أهل البيت، ونحن بإمكاننا أن نحول أي مكان إلى مآتم». كان هذا الجواب كافيًا بالنسبة للشباب، تمّ إعداد منبر خطابة في الساحة، وأغلقت مآتم الدراز جميعها بشكل عفوي في تلك الليلة، وانتقل الإحياء إلى ساحة الاعتصام.

أضف إلى ذلك أن أغلب المآتم تقرأ في النصف الثاني من شهر رمضان، وكان لديها عقود واتفاقيات مع الخطباء. تمّ إلغاء جميع الاتفاقيات، وللأمانة، فإن بعض الخطباء ممن تمّ التعاقد معهم رفضوا استلام أي مبلغ من المآتم التي ألغت العقود معهم.

كان التحدي بالنسبة لنا توفير خطباء لهذه الجماهير الغفيرة، وترتيب جدول الخطباء والرواديد، وتنفيذ هذا الجدول، هناك ظروف تحكمت بالتنفيذ الفعلي للجدول، خاصة مع بدء حملة الاستدعاءات والاعتقالات.

وصول الخطباء

مرت الليلة الأولى من العزاء بسلام مع وجود مندسين يقومون بالرصد والتصوير بين الجمهور. في الليلة الثانية، تأخر الخطيب، فبعد صلاة المغرب تمّ تشديد الحصار بشكل لم يكن مألوفًا حتى ذلك الحين. لم يتمكن الخطيب من الدخول، وكان علينا أن نفكر

في بديل آخر لكنه أصرَّ على الدخول والقراءة بأي شكل، بقينا نتواصل معه عبر الهاتف، فكنا ننتظره في سيارة داخل الدراز وهو في سيارته على مسافة تبعد عنا أقل من 100 متر في قرية بني جمرة. نزل من سيارته وخلع بشته وغترته، وتأبطهما وقفز عبر الحاجز الأمني. رآه عناصر الأمن وبدأت سيارتهم تتحرك نحوه، لكنّه تمكن من القفز في سيارة الشباب التي طارت به إلى منطقة الاعتصام.

الأمر ذاته تكرر مع خطباء آخرين، وتم إدخالهم بطرق مختلفة. بشكل عام، مثل وصول الخطيب من خارج الدراز تحديًا لنا. بعض المشايخ كانوا يصلون إلى الساحة وقد تلطخت ثيابهم ببقع دم، لأنهم اضطروا لتسلق سور أو حاجز أمني، أو جرحتهم الأسلاك الشائكة. وعدد من الاعتقالات حدث في هذه الأماكن، بعد مطاردة سيارات المخابرات لهم.

في ليلة الوفاة، كان الحصار على أشدّه. كنّا شبه يائسين من إمكانية وصول الخطيب. وبما أننا من الدراز أوكلوا إلينا التكفل بالأمر، قلنا لهم: «صعب جدًّا هذه الليلة»، قالوا: «تصرفوا، الجماهير محتشدة». تصرفنا بطريقتنا الخاصة، وأدخلناه من خلال أحد المحلات التجارية (مطعم). طلبنا منه خلع البشت والغتره والدخول إلى المحل كزبون عادي. قلت له: «ضع الغتره في جييك واترك البشت في السيارة». قال: «وكيف أخطب بدون بشت؟» قلت له: «سنعطيك بشت أحد المشايخ هناك».

وقف الشيخ عند باب المحل وكانت سيارات الشرطة تراقب. خرجنا من المحل، وصعدت في السيارة، أما صاحبي، فقد فتح

الصندوق متظاهراً بتحميل أغراض من المحل. وبالفعل، قمنا بتحميل قدور و (خياش) بصل، وتصرفنا بثقة مطلقة على أننا أصحاب المحل. الموقف الطريف أن صاحبي طلب من الشيخ نزع (القحفية) ووضعها في جيبه أيضاً، ثم أعطاه (خيشة) بصل لكي يحملها في السيارة وقال له: «ضعها واركب»، وهكذا تحررنا بالسيارة أمام القوات. كانت مخاطرة كبيرة.

انطلقت السيارة إلى الداخل، وكنتُ من داخل المحل أراقب الوضع خوفاً من لحاق أحد بهم. وعندما اطمأنتُ على وصولهم إلى ساحة الاعتصام، ركبْتُ سيارة الشيخ وتوجهت إلى الداخل، ولأنني من الدراز، لم يتم توقيفي.

الدعاء لآية الله قاسم

في ليلة الوفاة، كان عدد الحاضرين كبيراً جداً بحيث احترنا بكيفية تنظيم مسار العزاء. طلبنا من أصحاب السيارات المتوقفة في مسار العزاء تحريكها، وأحاط العزاء بكامل محيط بيت الشيخ بما يشبه طوق حماية. اكتظ المكان بالناس في مشهد حماسي وروحي كبير. وانتشرت فيديوهات داخل البحرين وخارجها تظهر أعداد الحشود المشاركة في العزاء في محيط بيت الشيخ. كانت ليلة استثنائية.

بعد ذلك، أتت ليلة القدر، وشهدت تفاعلاً استثنائياً. وبشكل عام، لم تتوقف الأدعية طوال فترة الاعتصام خاصة في شهر رمضان. ثمة دعاء لسلامة الشيخ تركّز بشكل كبير: «اللهم اجعل شيخنا في درعك الحصين التي تجعل فيها من تريد». وكان بعض المشايخ يرددونه حتى في القنوت وفي السجدة الأخيرة.

نساء وأطفال بيننا

كان لدينا تحدٍّ آخر في ليلة القدر بخصوص تواجد النساء، إذ لم يكن المكان مناسباً لهن ولأطفالهن في هذا الطقس الحار، وبعد أخذٍ ورد، تم التنسيق مع مآتم الدراز لاستضافة النساء؛ فكان لا بد من تحرك سريع لتنسيق السماعات وكل التفاصيل اللوجستية. فُتِحَت 3 مآتم للنساء، وعلى الرغم من ارتفاع حرارة الجو، كان التفاعل كبيراً، وقد تم توثيق هذا الحضور بالفيديو ونُشر في اليوتيوب وغيره من وسائل التواصل. كانت مشاهد الأطفال والنساء معبرة. استمر إحياء الليالي العشر الأواخر وليلة 27 رمضان وليلة العيد.

في يوم العيد، أقيمت صلاة العيد بإمامة أحد المشايخ. وبعد خطبتي العيد، كان الشباب قد جهزوا مائدة تحوي الحلويات، تبادل الجميع التبريكات، واكتسى المكان بزهوة العيد وارتدى الشباب الثياب الجديدة. معظم الشباب لم يغادروا الاعتصام، وباركوا العيد لعوائلهم عن طريق الهاتف، في حين خرج بعضهم لتهنئة أهاليهم وعادوا بسرعة.

الاستدعاءات والاعتقالات

بعد شهر رمضان، كان لا بدّ من إعداد برنامج جديد. صار هناك 3 وجبات بدلاً من وجبتين. كان الفطور بعد صلاة الصبح يشهد أجواءً حيوية وجميلة. بدأت البرامج تتوزع، جزء منها في النهار مع التركيز على الفترات الليلية. وبدأت فكرة الوقفة المسائية قرابة الساعة الثامنة تتبلور. هذه الوقفة كانت عبارة عن برنامج ثقافي، وديني، ومجلس حسيني، وبعدها، يتناول الناس

وجبة العشاء، ثم تعقد جلسات وحلقات عفوية بين المجموعات تمتد حتى منتصف الليل.

لم يلبث الاعتصام أن واجه منعطفاً شديداً هو استدعاء المشايخ واعتقالهم. في البداية، كانت هناك وفرة في عدد المشايخ، وكانوا موجودين في معظم التفاصيل، فضلاً عن إمامة الصلاة. كان هناك إمام مختلف في كل صلاة، كل يوم.

تواجد المشايخ يمثل ثقلًا في الاعتصام، فهم يتولون إمامة صلاة الجماعة والبرامج الثقافية، كانوا يتمتعون بروحية عالية وحماس وشجاعة منقطعة النظير ومستعدين لكل الخيارات، وكان أبرزهم السيد مجيد المشعل.

بعض العلماء كانت لديهم فعاليات خاصة، منها حلقات درس وجلسات نقاش مع الشباب، ومن بينهم الشيخ عبد الحسين الستري. هدفت هذه الجلسات إلى احتكاك العلماء بالشباب وتأسيس هذا التواجد والحضور، وأيضاً التأسيس للاعتصام وتركيز استمراره. بعضهم كان يوعي الشباب حتى على احتمالات يوم الهجوم من قبل القوات على الاعتصام، وحاولوا منذ البداية تهيئة الشباب لأقصى ما يمكن أن يحدث، ولأطول مدى للاعتصام.

بدأ ورود الاستدعاءات، وأغلبها من مركز شرطة دوار 17 حيث الجلاد المعروف تركي الماجد. تضمنت أوامر بالاعتقال، كان واضحاً أن السلطة قررت التعاطي مع الاعتصام بشكل مختلف، فبدلاً من مهاجمة كل تلك الحشود، وما يمكن أن ينتج عنها من دماء، قررت مصادرة قوة الاعتصام (المشايخ)، ظناً منها أنه، باعتقالهم، سيخو وهج الاعتصام، وستضعف همّة

الشباب وحماسهم. وبالتالي، سيتمكنون من تفريقهم عن طريق زرع الفتن والإشاعات. سأذكر تفاصيل ذلك لاحقاً وسأبين كيف تعاطى الشباب مع الفتن والإشاعات، وكيف تحكّموا في كل ما ينشر ويخرج من أخبار عن الاعتصام. تطلب ذلك ضبطاً شديداً، للاعتصام وللأنفس وللأعصاب على حدّ سواء. كان الشباب على درجة عالية من المسؤولية، وعندما أقول الشباب، فأنا أتكلّم عن أعمار متفاوتة، ومن الطبيعي أن يتسبّب ذلك بالاختلاف في وجهات النظر، لكن ما حدث هو العكس تماماً، التفاعل الإيجابي بين الجميع كان يسير خارج المعادلات الحسابية المنطقية، لهذا أكرر دائماً أن ترتيب الاعتصام تجاوز الأفراد، وأن فيه توفيقاً إلهياً.

عندما بدأ استدعاء المشايخ، تفاوتت الآراء بشأن وجوب ذهابهم، وجرت استشارات قانونية بهذا الشأن. هناك من رأى أنه يجب التعاطي مع الاستدعاء بشكل مختلف لإيصال رسالة إلى السلطات، مهما كلف الأمر. السيد مجيد المشعل قرر عدم الذهاب، لكن باقي المشايخ ذهبوا.

تمت مواجهة غالبية المشايخ بالصور والفيديوهات كدليل على مشاركتهم في تجمع غير مرخص وتم سجنهم. في بداية الاعتصام، كان التصوير متاحاً، وكنا نعلم بوجود عناصر مخبرات يصورون بيننا، لكن التعاطي العفوي وردة الفعل الشعبية أدّى إلى التغاضي عن هذا الأمر. بعد حملة الاستدعاءات والاعتقالات، صار هناك تنظيم آخر، ومنع التصوير إلا من خلال فريق عمل خاص مكلف بالتغطية.

تم اعتقال حوالي تسعة مشايخ، وتوقيفهم لمدة شهر.

وَجَّهَتْ إِلَيْهِمْ تُهْم التجمهر وغيرها، وكان بينهم السيد ياسين الدرازي، والشيخ محمد جواد الشهابي الدرازي، والشيخ عماد الشعلة، والشيخ علي ناجي، وآخرون. شكّل اعتقالهم ضربة قوية للاعتصام، وكانت هذه الضربة كفيلة بإخلائه. بعضهم تم استدعاؤهم لاحقاً مثل الشيخ حمزة الديري، والشيخ محمود العالي، وآخرين.

أظن أن السيد مجيد المشعل كان الوحيد الذي رفض حضور الاستدعاء، فصار مطلوباً، ولم يكن يغادر الاعتصام. في أحد الأيام، اضطر للذهاب إلى بيته لإحضار بعض الملابس والعودة سريعاً، لكن بيته كان مراقباً، وما إن دخل، حتى تمت المداهمة خلال دقائق، واعتقلوه.

باعتقال المشايخ دفعة واحدة، اختل العمود الفقري للاعتصام، أعني صلاة الجماعة تحديداً. صلاة الجماعة لها زخمها، فهي تمثّل استقطاباً، والجماهير تحضر إليها من خارج الاعتصام. فجأة، وجدنا أنفسنا من دون مشايخ نعود إليهم ونستشيرهم، ومن دون صلاة جماعة، وأُلقيت المسؤولية كاملة على عاتقنا. كان ذلك بالفعل تحدياً صعباً.

اعتصام بلا مشايخ

في اليوم الأول لنا بلا المشايخ، شعرنا بالضياع. لم نكن نعرف كيف نتصرّف بشأن صلاة الجماعة. الأصل بالنسبة لنا كان تأمين استمرارها بأي شكل من الأشكال، وإلا ستكون السلطة نجحت في تحقيق هدفها بكسر الاعتصام، لكن كيف، ولم يبقَ أحد من المشايخ معنا؟

طُرح اقتراح بأن يؤم أحد الموجودين، ممن تنطبق عليه شروط إمامة صلاة الجماعة، المصلين. تواصلنا مع مشايخ من خارج البحرين وتشاورنا معهم، ولم تحظَ الفكرة بالقبول.

كان وقت صلاة المغرب سيحل، ونحن في حيرة طاغية، حتى لمعت فكرة الاستفادة من طلبة العلوم الدينية غير المعممين، من المنتظمين في الدراسة في الحوزات داخل أو خارج البحرين، بما أنها فترة إجازة. نتحدث عن طلاب أنهوا 4 إلى 5 سنوات من دراستهم الحوزوية، لكنهم لم يرتدوا العمامة بعد، ولم يبرزوا كمشايخ، ولم يكونوا معروفين حتى، كان ذلك المخرج الوحيد أمامنا.

اتصلنا بعدد منهم ولم نلقَ ردًّا. بعد جهد، أجبنا أحدهم، وكان حينها في مجلس عزاء جدته في منطقة بعيدة عن الدراز، قال: «أنا أرثدي ثوبًا فقط، وأحتاج بشتًا وقحفية وغترة (من متطلبات إمامة الصلاة بالنسبة للشيخ)». لم يكن لديه وقت يمكنه فيه الذهاب إلى البيت وتبديل ملابسه، كان قد تبقى لحلول صلاة المغرب نصف ساعة فقط، طلبنا منه التوجه إلى الدراز بأقصى سرعة، وأن يظل على تواصل معنا.

تصرف الشباب وجهّزوا البشت والغترة والقحفية، وتم تجهيز ماء للوضوء بانتظار وصوله فقط. توجهنا إلى حدود الدراز لنتمكن من استقباله وإدخاله بأي طريقة. كان الحصار شديدًا، ونقاط التفيتش منتشرة بكثرة بسبب ترقبهم حدوث ردات فعل على توقيف المشايخ. كان الوقت يفلت من بين أيدينا ونحن لا نعلم كيف ستمكن من إدخاله، أعصابنا متوترة، والتحدي وصل

إلى حده الأقصى، فنحن نواجه مسؤولية كبيرة، إما أن نحكم إدارة الاعتصام، أو نسمح له بالتداعي.

وصل الشيخ إلى مداخل الدراز، هناك تواجد أمني مشدد عند جميع المداخل، المعروفة وغير المعروفة منها. في الوقت نفسه كان هناك عدد من الشباب، في طريقهم من خارج الدراز إلى الاعتصام، وتواصلوا معي للدخول. أخبرتهم عن الشيخ وطلبت منهم الذهاب إليه ومحاولة إدخاله أولاً بأي طريقة وأي ثمن.

خلف مبنى جمعية التوعية الإسلامية، يوجد مدخل بسيط محاصر بأسلاك شائكة وحواجز إسمنتية، وقبله بأمطار، وُضعت نقطة أمنية، وبعده بأمطار، تمركزت سيارة أمن، فكان الدخول من خلاله مجازفة، على مستوى السلامة الشخصية لأنه قد يتعرض لجروح أو غيرها، وكذلك على مستوى الوضع الأمني، لأنه قد يتعرض للاعتقال.

كان الشيخ قد وصل إلى هذا المدخل. صار الشباب بمحاذاته وراحوا يتفحصون المكان، بعدها قفزوا نحو الحاجز وأبعدوا الأسلاك الشائكة بأيديهم كي يدخل الشيخ، نزل على الأرض ودخل زحفاً ثم توجه جرياً نحو الداخل، وبمجرد ما رأتهم الدورية بدأت تحركها باتجاههم، لكن الشباب تمكنوا من الدخول خلفه، وكنا بانتظارهم، فركبوا السيارة وانطلقنا بأقصى سرعة. لقد خاطر الشباب بسلامتهم من أجل إدخال الشيخ، وجرحت أيديهم ونزفت دماؤهم.

كان الأذان قد بدأ، الشباب الآخرون كانوا في استقبال الشيخ بإبريق الماء للوضوء والبشت والغترة. وبفضل الله، وُقِّعنا لأداء

صلاة الجماعة بعد يوم طويل وشاق وتوتر منهك، لكن كان علينا بعد الفراغ من صلاة المغرب، التفكير بإمامة صلاة الصبح أيضًا.

أئمة الصلاة

منذ تلك الليلة، دخلنا في مرحلة احترازية جديدة، تم منع التصوير في الساحة بالكامل، وتكفّلت مجموعة معروفة ومحددة بالتصوير من الخلف فقط مع التأكد من إخفاء الوجوه. صار اسم الشيخ الذي يؤم صلاة الجماعة غير معروف إلا لشباب معدودين، مع ترك الغترة تغطي وجهه من الجانبين. لم يكن مسموحًا بالتضحية بأحد آخر. بعد أن انقضت الصلاة، أعدنا الشيخ إلى منطقته ليكمل عزاء جدته.

أرشدنا الشيخ بدوره إلى آخرين من طلبة العلوم الدينية، تواصلنا معهم، وتم تخصيص مجلس أحد البيوت لطلاب العلوم الدينية فقط. كان مطلوبًا تواجد كل واحد منهم ليوم كامل بحيث يؤم الصلوات كلها، ثم يغادر بعد استلام آخر مكانه. كانت لديهم التزامات تحول دون بقائهم الدائم في الاعتصام، فكان أحدهم يأتي عصرًا ويؤم صلاة المغرب والصبح والظهر ثم يذهب، ليأتي طالب دين آخر في عصر اليوم التالي. وهكذا، تم ترتيب جدول لسبعة طلاب، مع ثامن من باب الاحتياط. فكل منهم يحضر يومًا واحدًا في الأسبوع، وكان لدينا كل يوم مغامرة مختلفة لإدخالهم إلى الدراز. كانوا يحضرون طبعًا بشباب عادية، كبقية الشباب، من دون أن تلفت هيئتهم الأنظار، بخلاف المشايخ المعروفين. أما دخولهم وخروجهم، فكان هناك أشخاص مكلفون بتنظيم هذا الأمر.

المندسّون

كانت حملة الاستدعاءات قد شملت الجميع، واستهدفت أعدادًا كبيرة ممن تواجدوا في الاعتصام، البعض تم التحقيق معهم وتهديدهم ثم إخلاء سبيلهم، والبعض الآخر دخلوا مراكز الشرطة ولم يخرجوا. من بين الذين تم استدعاؤهم أقارب الشيخ؛ منهم أولاد أخيه، وأولاد بنت أخيه، وبعض الشخصيات من الدراز. في معظم الأحيان، كانوا يعرضون عليهم صورًا تثبت تواجدهم في الاعتصام، وكنا نعلم أنه يتم التقاطها عبر عناصر المخابرات المندسين بيننا. استطاع البعض إنكار كونه الشخص الظاهر في الصورة المعروضة عليه، خصوصًا مع كون بعض اللقطات بعيدة.

تم استدعائي عدّة مرات خلال الاعتصام، حيث تم التحقيق معي عن نشاطي في الاعتصام في غرفة سوداء. هددوني بالتعذيب وإسقاط الجنسية، وسألوني عن كل تحركاتي.

في المرة الثانية، تم استدعائي إلى مركز شرطة مدينة حمد دوار 17، للتحقيق معي حول تنظيم الاعتصام، وبطبيعة الحال أنكرت. المرة الثالثة كانت بعد أشهر أيضًا في مركز مدينة حمد، وتضمنت في المجمل تهديدات مثل: «نعرف نشاطك»، «نعرف الدور اللي قاعد تسويه في الاعتصام»، «توقع أول قائمة إسقاط جنسية تكون على رأسها»، «نعرف كل نشاطك السابق». هددوني وشتمونني لكن لم يتم ضربي.

بعدها، ومع الاحترازاات المشددة من قبل الشباب، تمت تلقائيًا محاصرة العناصر المندسين، وصار من الصعب عليهم الظفر بأي معلومة. الشباب جميعهم في حذر وتيقّظ، وكان أي

وجه جديد يحضر ويتصرف بشكل ملفت أو غير طبيعي، كأن يفوت صلاة الجماعة مثلاً، أو يجلس منعزلاً ولا يختلط بأحد، أو يستخدم الهاتف بشكل ملفت، وغيرها من التصرفات المشبوهة، يصبح محطاً للأنظار ويتم التعامل معه بحذر شديد، إلا في حال كان هناك من يعرفه أو يزيكه من الشباب. وصل الحذر في بعض الأحيان إلى سؤال البعض: «من أنت؟ من أين؟ ولماذا أنت هنا؟ ولماذا تفعل كذا أو كذا؟» ذلك لأن الموجودين في الاعتصام شباب ناشطون في مناطقهم، قائمون على مآتم واحتفالات وأنشطة دينية ومشاريع تعليم، وغيرها، ومن الغريب أن يأتي أحد من مناطقهم من دون أن يتعرف إليه أحد منهم. لكن هذا لم يمنع حصول بعض التصرفات المتسرفة التي تم احتواؤها سريعاً.

أضاحي الأضحى

في يوم عيد الأضحى، أقيمت صلاة العيد الرئيسة في الساحة، جميع الشباب ارتدوا الثياب البيضاء والغترة والعقال، أحدث ذلك حضوراً مختلفاً وحيوية جميلة في الساحة التي اكتظت بالجماهير الغفيرة، دُبحت الأضاحي قرب بيت الشيخ، وكانت مساهمات من المعتصمين أنفسهم، ومن المترددين على الاعتصام.

في ليالي الاحتفال بولادات الأئمة (ع)، يسود فرح رائع، ويتم إحياؤها في أجواء من الألفة الجميلة، فيتم إنشاد الأهازيج والقصائد والاحتفالات وسط حضور كبير، وأبدع الشباب في عمل الحلويات وغيرها. في هذه الليالي، تُمد الطاولات وتوضع عليها أنواع الفواكه، وتُفتتح مائدة العشاء على شرف الإمام أو صاحب المناسبة. وعلى الرغم من أننا كنا في وضع غير طبيعي وغير مأمون، إلا أننا شعرنا بطمأنينة كبيرة تحيط بنا وبالمكان.

ومضى الاعتصام

كلما واجه الشباب تحديًا صعبًا، أداروا الأمر بطريقتهم، وخرجوا منه أقوى، وأكثر يقينًا أن العناية الإلهية تُيسر لهم ما تعسر.

بعد اعتقال المشايخ، واجه الشباب تحدي تنفيذ البرامج وتنويعها، كان المشايخ يمسكون أغلب البرامج الثقافية، والمجالس الحسينية، والبرامج الدينية، والتأصيل، والمحاضرات، وورش العمل. بعد اعتقالهم، خلت الساحة من البرامج الرئيسية.

تحوّل الشباب مباشرةً إلى استحداث شاشات العرض (projector) والبث المباشر للمجالس والمحاضرات في المناطق المختلفة. في عاشوراء، تم بث محاضرات الشيخ علي الجفيري في السهلة وفي المالكية، ومحاضرات الشيخ حسن العالي في السنابس، ومحاضرات الملا إلياس المرزوق في بوري. كان هناك حرص على التنوع، وللمفارقة، فإن أعداد الجماهير التي تحضر لسماع المحاضرات من خلال البث في الدراز فاقت أعداد الموجودين في المآتم نفسها، التي تستضيف المجلس.

أيضًا، نُظِّمَت مجالس للأدعية والمحاضرات، يلقيها طلبة العلوم الدينية من دون أن يراهم أحد أو يعرفهم أحد. وتم ترتيب مكان منعزل للصوتيات، مع تدبير دخول الشيخ وخروجه منه من دون أن يراه الجمهور.

أثار هذا التدبير جنون السلطة، وشعروا أنه صار يقود الاعتصام بشكل ما. فتم توجيه عشرات الاستدعاءات لمعرفة من الذي يقوم بتشغيله، وكأن الأمر سحر. كانت سذاجة شديدة منهم أن يحاولوا

معرفة من الذي يضغط زر تشغيل جهاز البث واعتقاله، فهو أمر يمكن لأي طفل القيام به.

في موضوع البث، واجهنا مشكلة الإنترنت، فالسلطات قطعتة منذ الأيام الأولى، واستمر ذلك حتى نهاية الاعتصام. كانوا يقطعونه من الساعة مساءً إلى الساعة صباحاً تقريباً، وكان الأهالي في المنطقة يدفعون ثمن اشتراكاتهم ولا يحصلون على الخدمة، ويتصلون بالشركات التي تتذرع بوجود خلل تعمل عليه، وكان الجميع يعرفون السبب. بعد الضربة الأمنية، عادت الشبكات تعمل بلا خلل مزعوم. حاولنا التغلب على هذه المشكلة بقدر الإمكان، خاصة في شهر محرم، فلدينا كفاءات شبابية وتسديد إلهي.

في شهر محرم، كانت إدارات مآتم الدراز قد تعاقدت مع الخطباء، بعضهم من خارج الدراز، وصار دخولهم صعباً بسبب الحصار. أبلغتهم الداخلية بأن عليهم الحصول على تصريح منها للدخول، بعض المآتم رفضوا الذهاب لطلب تصريح لأنهم يرون أن الشأن الديني لا يخضع لتصريح، ومن غير المقبول التأسيس لمثل ذلك الأمر، فكل ما تقبل به اليوم، سيتحول غداً إلى شرط إلزامي. واجه بعض المآتم مشكلة في دخول الخطباء، وفي أحدها، لم يتمكن الخطيب من الدخول إلا يوماً واحداً فقط طوال عاشوراء، واضطروا في الليالي الباقية إلى بث مجالس العام السابق.

في الساحة، كنا نبث المجالس كما ذكرنا سابقاً من مناطق مختلفة، وهذا تسبب بإزعاج شديد للسلطة، وجنّ جنونها لمعرفة

المسؤول عن البث. طائرة الهليكوبتر لم تهدأ طوال هذه الأيام وهي تحوم حول الاعتصام على علو منخفض فوق رؤوسنا، بحيث اضطررنا لرفع الصوت، كي لا يغطي صوت الطائرة على صوت المجالس. مواكب العزاء خرجت من الليلة الأولى، وكان عدد الحضور كبيراً، على جميع المستويات، بين الشباب والكبار، وحتى النساء اللاتي كانت مشاركتهن لافتة. وازدادت الحشود مع اشتداد ليالي عاشوراء. الشباب تكفلوا بتقديم تغطيات احترافية لهذه الليالي.

تجسدت كربلاء بكل معانيها في الأجواء التي عشناها في الساحة: الفداء، والإيثار، والتضحية، كلمة علي الأكبر للإمام الحسين (ع): «أولسنا على الحق، إذاً لا نبالي إن وقعنا على الموت أو وقع الموت علينا»، هذا الخطاب تأصل في نفوس الشباب، فكانوا يعيشونه بأعمق المستويات، ولم تفارق الدموع أعينهم خلال المجالس الحسينية ومواكب اللطم. قضية الإمام الحسين (ع) ألهمت الشباب وحفزتهم أكثر.

الاعتداءات

تكررت الاعتداءات على الساحة من قبل قوات الأمن بطرق متعددة وفي أوقات مختلفة. في الاعتداء الرابع، دخلت أعداد كبيرة من القوات والمدنيين من كل الجهات عند الساعة العاشرة صباحاً. كانت سيارات الجيب تتحرك على بعد أمتار من منطقة الاعتصام، استغلوا الوقت الذي يكون فيه عدد المعتصمين أقل، بسبب الدوامات والمدارس والالتزامات. لكن استنفار الأهالي واحتشادهم كان سريعاً، والشباب توافدوا من كل صوب على الرغم من تشديد القوات للطوق الأمني على الدراز، حصلت

مواجهات شديدة واعتقلوا اثنين وربما ثلاثة من المعتصمين. استغرقت المواجهات قرابة الساعة.

أما الاعتداء الخامس الذي قُتل فيه الشهيد مصطفى أمام عيني، فقد حصلت المباغنة عبر دخول القوات بسيارات مدنية، أكثر من 15 سيارة مدنية من مختلف الموديلات: مرسيدس، وهيونداي، وتويوتا، وباص، وبيك آب. أتت من المداخل المختلفة، كانت حركتهم متقنة أكثر من قوات الشغب، لم يتمكن أحد من رصدهم.

عند حوالي الساعة الثالثة فجراً، تحركت هذه السيارات باتجاه الساحة الخلفية، وهي منطقة تقع في ظهر بيت الشيخ على امتداد 100 متر تقريباً، وفيها بيوت الآن، لكنها كانت ساحة قبل سنوات، وكانت جمعية الوفاق قد نظمت فيها اعتصاماً في الفترات الأولى لأحداث 2011.

كان الشباب يجلسون هناك في خيمة بين نائم ومتسامر، حين لمحووا تقدّم السيارات وحركتها غير الطبيعية. تحرّك أحدهم بشكل سريع وتوجه إلى ساحة الاعتصام ليخبر المعتصمين النائمين. تراكض الجميع، وأمسكت القوات اثنين من الشباب من داخل الخيمة، لكن أحدهما كان رياضياً وقوي البنية، فتمكّن من الفرار قبل أن يتم تقييده، وركض إلى ساحة الاعتصام. وخلال ثوانٍ، انتشر الخبر وتوجه الجميع إلى الساحة.

في تلك الأثناء، اقتحمت القوات بيتاً خلف بيت الشيخ، هو بيت عم محمد المتغوي⁽¹⁾، هناك تركيز شديد على هذا البيت.

(1) كانت السلطات البحرينية قد حكمت عليه بالإعدام، وتم تخفيف الحكم لاحقاً إلى السجن المؤبد.

وبحسب ما أذكره، اعتقلوا أحد أبناء صاحب المنزل، وطفلاً نائماً هناك. كانوا يتحركون بسرعة، ويطلقون الشوزن والرصاص الحي بكثافة.

كان الشهيد مصطفى حمدان (18 عاماً) ينام في أحد المجالس القريبة من بيت الشيخ، ومعه أخوه الشهيد محمد (22 عاماً). وما إن سمع خبر الهجوم، حتى قفز إلى الخارج مباشرة مرتدياً القناع الواقى من مسيلات الدموع، لم يكن يعرف طبيعة الهجوم وفي الغالب توقع مواجهة مع قوات الشغب، لا مع هذا النوع من القوات.

كانت سيارات القوات ممتدة على طول الشارع المحاذي لظهر بيت الشيخ، كما قلت على مسافة 100 متر تقريباً، هناك أزقة بين البيوت تؤدي إلى الساحة، كان مصطفى في أقربها إلى بيت الشيخ، وكنت في الزقاق نفسه.

إطلاق كثيف للرصاص، وطلقات رشاش، ورصاص حي، وطلق أوتوماتيك، ومسدس، وشوزن. كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها بأم عيني الرصاص الحي ينطلق من فوهة السلاح، أراه بلونه الوردى وهو يتطاير أمامي. شهدت قبل ذلك إطلاق رصاص حي، لكنها المرة الأولى التي أراه فيها بهذا القرب، وبزخات كثيفة وعشوائية مباشرة.

سقوط مصطفى

كان مصطفى واقفاً أمامي، لم أكن أعرفه شخصياً، ولم أر وجهه لأنه يرتدي قناعاً. هناك حوالي ستة شباب في مقدمة هذا الشارع الداخلي المطل على القوات وسياراتهم، بيننا وبينهم

مسافة لا تزيد عن 40 متراً، كنا نقف على مرمى من أنظارهم، وفي مرمى نيرانهم. هطلت زحّة قوية من الرصاص، وفي ردة فعل طبيعية، استدرنا وتراجعنا إلى الخلف لنحتمي بزاوية أحد المنازل ونتفادى الرصاص. إنها ردة فعل طبيعية تصدر عن الإنسان في أوقات الخطر، ومن دون تفكير، لكن مصطفى لم يكن مثل أيّ منا، لم يتراجع قيد أنملة، ولم يلتفت إلى الخلف حتى، ظل صامداً، وهم كانوا بكل أسلحتهم في حالة من الرعب والخوف تفوق حالة أيّ منا. كانت أي حركة أمامهم كافية ليطلقوا النار، استعانوا بالطلقات النارية لحماية أنفسهم من الشباب العزل، فكانوا يطلقون النار بشكل هستيري أثناء تراجعهم نحو الخلف، ثبت مصطفى كالجبل في وجه الرصاص، وتراجعوا وهم يلوذون بالفرار كالجرذان. احتيمت من رصاصهم بالحائط، وفجأة رأيته يسقط أمامي، سقط بمقدمة وجهه على الأرض، تكوّر جسمه، واستقبل الأرض في هيئة السجود. مهيب ذلك السقوط، بيني وبينه مسافة متر واحد، ولولا أنني تحركتُ ولذتُ بالجدار، لكانت أصابتنني الرصاصه دونه، لكن الله أراد له الشهادة، والسعادة، ولم يردّها لي.

واصلت القوات المذعورة إطلاق النار بشكل عشوائي أثناء مغادرتها، لم أعرف حينها سبب سقوط ذلك الشاب أمامي، هل كان الاختناق بمسيلات الدموع أم الإصابة بشيء آخر. ظننتُ في بادئ الأمر أنه اختنق بالغاز المسيل للدموع، ركضتُ نحوه، رفعته من إبطيه، تلفتُ حولي فرأيتُ أحد الشباب وصرخت: «خلنا نشيله، شوفوا أحد يشيله». لم أنزع القناع عن وجهه لكي لا يختنق أكثر، كنت مشوشاً أمام رهبة الموقف، حملته مع الشاب الآخر،

وركضنا به باتجاه البيوت، لاحظتُ أنَّ دَمًا كثيفًا ينزف من رأسه، سال دمه على امتداد الطريق، غرق مصطفى في دمه وأغرق ثيابه وحذائي.

وصلنا إلى باب أحد البيوت، وهنا توافد الناس للمساعدة. أدخلناه إلى المنزل، وفتحوا القناع، وكانت الصدمة أن الرصاصة قد اخترقت جمجمته، لم يكن حينها قد غاب عن الوعي بعد، وذكر أحد الشباب أنه تجاوب معه، قبل أن يدخل في غيبوبة الموت.

حملة الشباب فورًا إلى السيارة لنقله إلى المستشفى، كان أخوه الأكبر محمد من تكفل بنقله، وقال: «أنا أخوه وأنسب شخص لأخذه إلى المستشفى، سأخبرهم أنه جاءني اتصال يخبرني بإصابته وذهبت لإحضاره».

أخذه أخوه إلى أقرب مستشفى هناك (المستشفى الدولي)، لكن بمجرد أن عاينوا حالته في السيارة، قالوا: «نحن لا نستقبل هذه الحالات، خذوه إلى السلمانية»، فجميع المستشفيات الخاصة لديها توجيهات مشددة من الداخلية بعدم علاج أي شخص مصاب على خلفية حدث سياسي، وفي حال معالجته، تتعرض المستشفى بكاملها للمساءلة. طلب منهم محمد إسعاف أخيه بشكل أولي فقط، وبعدها ينقله إلى السلمانية، فرفضوا. هذه الحالات لا تدخل ضمن النطاق الإنساني لدى وزارة الداخلية.

لم يُطل محمد الحديث معهم خوفًا على حياة أخيه. توجه مباشرة إلى السلمانية، وهناك، كان لديهم خبر بالإصابة، أدخلوه فورًا إلى غرفة الإنعاش، وتم توجيه الأسئلة إلى محمد، ولما تأكد

محمد من مباشرتهم بعلاج أخيه، غافل الجميع وانسحب هارباً نحو الخارج. ظلت المخابرات بعد ذلك تحاول معرفة من الذي أحضر الشهيد إلى المستشفى، وظلوا يعيدون طرح هذا السؤال على والدته الشهيدين، وهي تملّص من الإجابة.

نعوش رمزية

كلما سقط شهيد، فار الدم في عروق الشباب، شهداء الحرية⁽¹⁾ ثم شهداء الإعدام⁽²⁾ ثم الشهيد مصطفى. صار الشباب يخرجون في مسيرات غاضبة ضخمة تصل قرب الشارع العام، وفي هذه الحالة، لم تتجرأ القوات المحدودة الموجودة عند المداخل على مواجهتها. عند وصول القوات الإضافية، تكون المسيرة قد عادت إلى الداخل. أحياناً، كانت تحصل مواجهات، لكن عند أطراف الدراز وليس في منطقة الاعتصام، ويحدث أن تكون مواجهات محتدمة بسبب الغضب والغليان، خاصة أيام عزاء الشهداء. كان هناك اتفاق بين الشباب بضرورة عدم جرّ المواجهات إلى منطقة الاعتصام.

في الساحة، تبثّ مجالس عزاء الشهداء، وتقام لهم نعوش رمزية ويتم تشييعهم، خاصة الشهيد مصطفى؛ شهيد هذه الساحة. تم صنع نعش رمزي له، ووُضع في مكان سقوطه وبقي هناك حتى يوم الهجوم الأخير، ووُضع إلى جانبه دفتر للتعازي، سجّل فيه المعتصمون والمتواجدون تعازيهم، ومن بين الذين سجّلوا

(1) قامت السلطات البحرينية بتصفية ثلاثة محكومين بحرينيين على خلفية قضايا سياسية بالرصاص، وذلك أثناء محاولتهم الفرار عبر البحر في 10 فبراير/ شباط 2017. والشهداء الثلاثة هم: رضا الغسرة (29 عاماً) محمود يحيى (22 عاماً) ومصطفى يوسف (35 عاماً).

(2) تنفيذ حكم الإعدام في 15 يناير/ كانون الثاني 2017 بحق المحكوم عليهم: سامي مشيع، وعباس السميع، وعلي السنكيس بعد إدانتهم في القضية الخاصة باستهداف قوات الشرطة بمنطقة الديه في 3 مارس/ آذار 2014 بعبوة متفجرة نجم عنها مقتل ثلاثة رجال شرطة، والملازم أول الإماراتي طارق محمد الشحي.

تعازيهم في هذا الدفتر بعض الشهداء الذين لحقوا به في يوم الضربة الأخيرة مثل الشهيد محمد العكري والشهيد محمد حمدان وربما آخرين. كان هذا الدفتر بحوزتي خلال الاعتصام، ثم أعطيته لأحد الشباب ليوصله إلى عائلة الحمدانين.

محمد على عهده لأخيه

خلال فترة غيبوبة الشهيد مصطفى، نشأت بيني وبين أخيه محمد علاقة خاصة. ظللتُ أتابع معه حالة مصطفى أولاً بأول، وبقيت على تواصل مستمر معه للسؤال عنه. كان محمد موقناً أنه سيلحق بأخيه.

أخبرني أن مجيئه إلى الاعتصام كان عبر مصطفى، وأنه في بادئ الأمر لم يعرف كيف ينضم إلى الاعتصام. تواجد مصطفى في الاعتصام منذ بدايته، أما محمد فقد أتى لاحقاً. وعند دخوله للمرة الأولى إلى الدراز، اتصل بمصطفى الذي أرشده إلى المداخل المعروفة بين الشباب، وأتى إليه مع عدد من أصدقائه الذين نقلوه إلى منطقة الاعتصام. كان مصطفى الأصغر، لكنه هو الذي كان يحث إخوته على الفداء، وكان لديه استعداد كبير للتضحية.

أخبرني محمد أن الشهيد مصطفى سأل أحد الشباب الملتزمين: «هل صلاة الليل تجعلني أنال الشهادة؟» قال له: «الدعاء في صلاة الليل يكون مستجاباً». ثم حدثه عن بعض ما ورد من الروايات عن صلاة الليل، فطلب مصطفى منه أن يعلمه إياها، والتزم بها منذ ذلك الحين. ينقل أحد أصدقاء مصطفى أنه في إحدى الليالي ذهب معه إلى منزلهم، وعندما همَّ بإدخاله إلى

المجلس قال له: «الآن وقت صلاة الليل، أريد أن أكون وحدي وأنا أؤديها، ثم سأتركك تؤديها وحدك، كي لا يداخلنا الرياء».

الشهيد محمد كان يذهب إلى الجامعة، ويعود منها إلى الاعتصام مباشرة، لم يتمكن من رؤية أخيه منذ اليوم الذي نقله فيه إلى المستشفى. استطاع مرة واحدة فقط الدخول إليه مع والدته في غفلة من الشرطي المراقب، وأخبرتني والدته الشهيدين عن هذا اللقاء بين الأخوين: مصطفى نائم على فراش الموت، ومحمد واقف عند باب الغرفة، رافعاً يده لأخيه: «نم قرير العين يا أخي، أنا على العهد». بين الأخوين، هناك تعاهد شفوي على الشهادة.

أخبرني الشباب أنه عندما عرف محمد باستشهاد مصطفى، دخل إلى المجلس الذي كنت أتواجد فيه عادة وسأل عني، كان مستعجلاً. لم أكن في الساحة حينها، ثم قال لهم: «أخبروه أن مصطفى استشهد»، وذهب من فوره لمواساة والدته. تواجد محمد في عزاء أخيه وهناك، تلا وصيته. في الفترة الأخيرة انقطع محمد عن الجامعة، وتفرغ بشكل كامل للاعتصام، وكان يذهب لزيارة والدته ومواساتها مرة أو مرتين في الأسبوع.

محمد شاب نشيط وفاعل، قليل الكلام، يعمل بهدوء ويده ممدودة للمساعدة، ويتعاطى بروحية عالية وحسن نية مع الجميع. في أحد الأيام، أحضر لنا هدايا باسم الشهيد مصطفى؛ تربة حسينية ومسابح.

بعد الهجوم الغادر الذي راح ضحيته الشهيد مصطفى، صار لا بدّ من تنظيم آخر لكي نحمي أنفسنا. تم وضع نقاط (مراقبة)

يتواجد فيها الشباب عند المداخل الرئيسة المؤدية إلى منطقة الاعتصام، وذلك لإخبار الشباب في الداخل فوراً في حال حدوث أي هجوم أو تحرك مشبوه.

الهجوم الأخير

قبل الهجوم الأخير بفترة قصيرة، بدأت تصلنا رسائل تهديد عبر أكثر من طريق. ازدادت وتيرة الاستدعاءات، وشملت الشباب والكبار من داخل الدراز وخارجها، وبينهم نساء. أكثرها صدر عن مركز شرطة مدينة حمد دوار 17، وتحديدًا الضابط تركي الماجد ومعه آخرين. الاستدعاءات الأخرى كانت إلى مركز شرطة المحرق المعروف بكونه تحت قبضة جهاز الأمن الوطني وغطاء الداخلية. كل الذين تم استدعاؤهم تعرّضوا للضرب والشتم والتهديد بالاعتقال وهتك الأعراض. كثيرون تكتموا على ما حدث ولم يعلنوا الأمر. كان الهدف من هذه الاستدعاءات محاولة معرفة القائمين على الاعتصام، وإرهاب المشاركين.

أخبروا بعض الذين استدعواهم أنه سيتم فضّ الاعتصام بالقوّة، وأنهم بانتظار صدور الأوامر فقط. وقبل أيام من الهجوم الأخير استُدعي رؤساء المآتم وبعض الشخصيات للتأثير على المعتصمين وفضّ الاعتصام، فكان رد الشخصيات: «نحن لا سلطة لنا ولا تأثير في هذا الموضوع». فقالوا لهم: «أوصلوا رسالة إلى المعتصمين بأنهم إن لم يفضّوا الاعتصام من أنفسهم، فسنقوم نحن بفضّه بالقوة».

عمد النظام أكثر من مرة إلى الترويج بأن ساعة الصفر قد دقت للهجوم، وكانت المدرعات والآليات العسكرية تتحرك من جهة

الطريق السريع والشوارع الرئيسة. وكان لهذه الإشاعات مفعول عكسي عند الشباب، إذ زادت من عزيمتهم واستعدادهم وهمتهم، لنكتشف لاحقاً أنها محض إشاعة. لكن ليلة 22 مايو/ أيار 2017 كانت مختلفة.

نحن الآن في شهر شعبان، يفصلنا عن شهر رمضان أقل من أسبوع، معظم المعتصمين صائمون منذ شهر رجب. في تلك الليلة، كان كل شيء يشير إلى هجوم مؤكد. اكتظّ مركز شرطة منطقة مقابة بالمصفحات. وتواجدت سيارات أمن مركز الخيالة المقابل لمركز شرطة البديع، كما بدأت المصفحات تتوافد إليه، أما مركز خفر السواحل بين منطقة باربار والدراز، فقد دخلت إليه باصات مدنية صغيرة وزُكَّابها من الجيش، بعضهم يرتدون اللباس المدني والبعض الآخر في لباس عسكري. دخلت السيارات بشكل سريع من دون إضاءة المصابيح. كنّا حينها في اجتماع لترتيب برنامج شهر رمضان، لكن المؤشرات صارت تتوارد بسرعة بدءاً من الساعة الثامنة مساءً. الأخبار كفيلة بالتحرك، فتم فضّ الاجتماع بشكل فوري، وتم اقتراح المناداة عبر السماعات والمكبرات في الساحة. ولأن الإنترنت مقطوع في المنطقة، تكفّل بعض الشباب بالذهاب إلى أطراف الدراز لالتقاط الشبكة وبث خبر هذه التحركات عبر وسائل التواصل المجتمعي.

صار الاستعداد على مستوى الداخل في ساحة الاعتصام، كثفنا تواجدنا في محيط المنطقة وتوزّعنا بحيث يتم رصد الطرق في حال اقتربت أي مدرعة أو سيارات جيب للشرطة، لم نكن نعرف ما ينتظرنا، لكن بتنا متأكدين أن هناك ما هو قادم.

عند الساعة العاشرة، بدأ إطلاق النداءات عبر المكبرات، ارتفعت الأصوات أيضاً من المساجد والمآتم وساحة الاعتصام: «أيها الغيارى هبوا لنصرة الدين.. هبوا لوطنكم.. هبوا لدينكم.. لا يبقى أحدٌ في بيته.. لن نسلم شيخنا.. لن نتركه وحيداً».

اطمئنان الشهداء

لا أظن أن أحداً من الشباب أغمض عينيه في تلك الليلة، فقط مجموعة صغيرة من أهل الاطمئنان مثل الشهيد «محمد كاظم زين الدين»، الرجل الهادئ والرزين والمؤثر اجتماعياً من دون بروز أو ظهور، والشهيد «أحمد جميل العصفور» الذي كان ضمن ثلة المرابطين حول منزل الشيخ قبل الاعتصام، ولديه تاريخ في ارتباطه بالعلماء والتصاقه بهم، ومعروف عنه حمايته للشيخ علي سلمان والسيد عبد الله الغريفي وسماحة الشيخ عيسى قاسم، نام في المنزل المجاور لبيت الشيخ. في ذلك المنزل، كانت هناك صيانة للسور الجانبي، وبجانبه، هناك أحجار «كنكري» الخاصة بالبناء، الشهيد العصفور نام على هذه الأحجار متأهباً مترقباً. يا الله، كيف تغفوا عين هؤلاء؟ أي طمأنينة يعيشونها؟ كان الشهيد العصفور يقول لأحد الشباب: «لن أسمح لهم باعتقالي وأخذ الشيخ، ليقتلوني قبلها»، وقد فعلها.

أما الشهيد «محمد الساري» فقد كان متواجداً في إحدى نقاط المراقبة عند الأطراف، وينقل الشباب المتواجدون معه السكينة التي كان يتحلّى بها. الشهيدان «محمد العكري» و«محمد حمدان» كانا في مرمى نظري تلك الليلة، شعلة من النشاط، يتجولان بين منزل الشيخ والأطراف، يرصدان ثم يعودان، كان القرآن في يد الشهيد حمدان طوال الوقت.

الشباب قضوا الليلة في الدعاء والمناجاة والصلاة، تلك أجواء طبيعية في الاعتصام، لكن تلك الليلة كانت مختلفة في كل شيء، شعرنا بأننا في ليلة العاشر من محرم، الليل قد غشيناً، والأنصار يأبون أن يتخذوه جملاً.

تناول المعتصمون السحور ولم يثقلوا، استلقى بعضهم في الساحة المفروشة للحصول على بعض الراحة، لم ينم أحد، الأعين أغمضت لكن القلوب مستيقظة. البعض شغلوا أنفسهم بحلقات نقاش، انضمت لواحدة منها، كانت أجواؤها طبيعية ومرحة وكأن لا شيء يعكّر صفو الترقّب. مسح الله على قلوب الشباب فاطمأنوا، أخذ كل واحد موقعه ودوره وقام بواجبه قدر الطاقة، لم ينتظر أحد منهم شيئاً غير الإخلاص لما يؤمن به من الواجب. حلّ وقت صلاة الصبح، وأقيمت الصلاة جماعة. كان الحضور حاشداً، بعدها قرئ دعاء الصباح ودعاء العهد.

مع شروق الشمس، بدأت تصلنا صور تحرك القوات، أرتال عسكرية تتحرّك نحو الدراز، صار الهجوم شبه مؤكد، لم يذهب أحد إلى عمله أو مدرسته أو جامعته. عند الساعة الثامنة صباحاً، بثّت وزارة الداخلية على حسابها في تويتر تغريدة أعلنت فيها أنها «بدأت صباح اليوم تنفيذ عملية أمنية بقرية الدراز بهدف حفظ الأمن والنظام العام وإزالة المخالفات القانونية». صار الأمر أكيداً.

تراكمت القوات في محيط الدراز بشكل مكثف جداً؛ مدرعات وآليات عسكرية، وقوات خاصة كوماندوز، وجيش، وكل الأجهزة الأمنية متواجدة بدون استثناء، المخابرات ومراكز الشرطة والأمن

الوطني والقوات الخاصة. بدأ الاقتحام بالمدرعات من طريقين في أطراف الدراز، شرقي وغربي، استنفر الشباب وتوجهوا مباشرة إلى هذه الطرق. بدأت المدرعات تقترب من الساحة مع إطلاق كثيف لمسيلات الدموع ورصاص الشوزن.

زحفت القوات نحو المنطقة من جميع الجهات. شكّل الشباب درعاً بشرياً عريضاً أحاط بكامل المنطقة، صفوف غير منتظمة لشباب عزّل، وجهاً لوجه مع أرتال القوات المدججة بكل أنواع السلاح، استبسل الشباب في مواجهة ملحمة مستميتة، وهدفهم الحيلولة دون بلوغ هذه القوات منطقة بيت الشيخ مهما كلفهم الأمر. لكن لأي مدى يمكن لهذا الدرع البشري أن يصمد أمام أدوات القتل ومعدات الحرب والقمع والرصاص والغازات الخانقة؟

مئات الشباب سقطوا مُضْرَجِينَ بإصاباتهم. ومع تقدّم القوات زادت الإصابات بالشوزن والاختناقات، واكتظت المنازل المحيطة والمجاورة بالمصابين، كانت قناعة الشباب أن يكون عبور القوات فوق جثثهم، ولم يكن هذا مجازاً، وقد عبرت القوات بالفعل على دمائهم.

كنت في بادئ الأمر عند إحدى الطرق التي دخلت منها القوات. كنا نعمل على تصوير ما يحدث وتوثيقه، فكان هناك بعض الشباب يقومون بالتصوير، وآخرون يقومون بالتغطية ورفع الصور.

حواجز إسمنتية رفيعة كانت قد وضعت حول منزل الشيخ من كل الجهات، وهي مصدات لا يمكن تسلقها، هناك فتحة واحدة

للدخول والخروج بمحاذاة منزل أحد جيران الشيخ. عند وصولنا إلى محيط ساحة بيت الشيخ، كان الخيار إما الدخول إلى أحد المنازل بسبب كثافة الغاز المسيل أو أن نعاود الخروج بين كر وفر، أو الدخول خلف هذه الصبيات، وهي الدرع الأخير لبيت الشيخ. في هذه المنطقة، استشهد الشهيد محمد كاظم زين الدين.

ارتفاع الشهداء

لم أشهد سقوط الشهيد زين الدين، كان في منزل مجاور، وحسبما نُقل، كان قد أصيب بطلقات الشوزن والاختناق بفعل مسيلات الدموع، أدخله الشباب إلى أحد المنازل لإسعافه. في البداية، تمكنوا من إسعافه وعاد يتنفس بعد أن أجروا له تنفساً صناعياً، لكن حالته كانت حرجة. المنطقة في الخارج مليئة بالغازات ومسيلات الدموع، وكانوا بحاجة قصوى لنقله إلى المستشفى، فأخرجوه الشباب وقالوا للقوات: «الرجل يموت خذوه للإسعاف»، لكنهم لم يكثرثوا، بل كثفوا إطلاق الغاز المسيل للدموع، وظل الشهيد ملقى على الأرض وزاد اختناقه، فلما رأى الشباب ذلك خرجوا إليه مرة أخرى، وأعادوا إدخاله إلى البيت محاولين إنعاشه، لكن الوقت كان قد فات.

الشهيد محمد الساري أصيب منذ بداية الهجوم عند أحد المداخل. لم تكن إصابته الأولى قاتلة. كان يمكن أن يقف عند هذا الحد ويدخل إلى أحد البيوت لتلقي العلاج، لكنه لم يفعل. ظلّ مستبسلاً حتى آخر رمق، وسقط شهيداً على مسافة 10 أمتار من بيت الشيخ بعد الحواجز الإسمتية. حاول الشباب إسعافه بالتنفس الاصطناعي، لكن جسده لم يستجب لأي محاولة،

فالرصاص كان قد اخترق رئته، اتصل الشباب بالإسعاف، وكان بالفعل قد وصل إلى الدراز قبل ذلك، لكن لم يُسمح له بالدخول.

عيونهم على الشهادة

هذا الشاب الذي لم يكمل الثلاثين عامًا، كانت عينه على الشهادة، لم يطلب غيرها. كان يتحسّر لأنها لم تُكتب له في 2011 بعد أن اخترقت صدره رصاصة الجيش، وخرجت من ظهره، قضى أيامًا بين الحياة والموت، كان يومها يقف قبال دوار اللؤلؤة مع الشهيد عبد الرضا بوحميد أمام قوات الجيش، عراة الصدر، كلاهما اخترقه رصاص القوات، لكن الأول ارتفع شهيدًا، وتأجلت شهادة الثاني إلى أجل معلوم.

نجاة الساري من الموت حينذاك كانت أشبه بالمعجزة، ولم يمهل النظام البحريني لاستكمال علاجه، فاخطفه من سرير المرض إلى السجن الذي بقي فيه على مدى عامين كاملين يصارع أوجاعه، وسمي بـ «الشهيد الحي». لا ينسى البحرينيون نحيبه الموجه على صدر آية الله قاسم حين زاره بعد الإفراج عنه في العام 2013. أجم الفيديو مشاعر الناس، وربما تساءلوا عن عمق علاقة هذا الشاب بالشيخ وتعلقه الروحي به. كتم الساري سرّه في قلبه، وأفصح عنه في يوم شهادته. في هذا اليوم، كشف للجميع أن الشهادة لم تكن لتخطئه في 2011، لكنها أجلت لموعد آخر، ولهدف آخر في 2017.

وصلت القوات إلى محيط بيت الشيخ، وأحاطت بالجهات كلّها من دون استثناء. صار الحصار محكمًا، وبلغت القبضة الأمنية مداها، اكتظت المنازل القريبة بالمصابين، والشباب في

استبسال فريد من نوعه، كانوا يدخلون إلى منطقة الدرع الأخير خلف الحواجز الإسمنتية. كانت هناك مجموعة كبيرة أمام منزل الشيخ مباشرة، وأخرى في المنزل المقابل. كان الشهداء محمد حمدان ومحمد العكري وأحمد جميل أمام منزل الشيخ مباشرة، تقدّم البلدوزر المرافق للقوات نحو الحاجز الاسمّنتي لإسقاطه، وكانت الطائرات العسكرية تحلّق فوق رؤوس الشباب. احتاجت القوات لساعتين لتتمكن من الوصول إلى هذه المنطقة، هذا يكشف حجم بسالة الشباب في مواجهة القوات والتصدي لكل هذه الجيوش والأرتال المدججة بالسلاح.

كان معظم الشباب صائمين، والحرارة مرتفعة. كثافة الغاز المسيل للدموع أبطلت صيامهم بطبيعة الحال، وتمكن بعضهم من شرب الماء. كنت أحدهم. وكان الشهيد أحمد العصفور هو الذي سكب لي الماء وسقاني بيده.

الشهيد العصفور رجل هادئ قليل الكلام، لكنه صلب وبشوش، من النوع الذي لا يرف له جفن من الخوف. كنّا ندرس معًا في الهند وتربطني به صداقة قديمة، ولأنه من الدراز، كنا نلتقي دائمًا في المحافل والمناسبات. حمل الشهيد همّ القضية والناس وهمّ علماء الدين بالدرجة الأولى، لم يكن يقبل أن يتحدث أحد عنهم بطريقة غير لائقة. لديه شهادة جامعية، لكنه لم يحظ بوظيفة مناسبة طوال السنوات السابقة، وظلّ يعمل بعقود مؤقتة. وعندما بدأ الاعتصام، كان قد تم تشييته للتوفي وظيفه يتمناها كل أحد من الشباب، وهو متزوج ولديه مولودة جديدة، لكنه ترك كل ذلك وراء ظهره وذهب إلى ما آمن بأنه واجبه الأهم ومسؤوليته الأعظم.

عند وصول القوات إلى محيط بيت الشيخ، كان أذان الظهر قد رُفع. تمكن بعض الشباب من أداء الصلاة، ثياب البعض الآخر كانت ملطخة بالدماء. في هذه الأثناء، أسقطت القوات أحد الحواجز الإسمنتية مستعينة بالبلدوزر، وحصل الاقتحام من خلاله. بهذا، أحكمت القوات السيطرة على منزل الشيخ بالكامل، قوات من كل الفصائل العسكرية، كوماندوز، قوات شغب، قوات خاصة، لباس جيش، لباس مدني، اقتحموا المكان بشكل هستيري وارتباك شديد وكأنهم يتوقعون رؤية جيوش مدججة تواجههم. راحوا يطلقون الرصاص بشكل كثيف حتى أغرقوا المكان بشظايا الشوزن، وبعضهم اعتلوا سطوح المنازل المجاورة المطلّة على الساحة، وبدؤوا إطلاق النار علينا من فوقها، أحدهم أطلق الرصاص عليّ. في الوقت نفسه، كانت القوات على الأرض تطلق بشكل هستيري وعشوائي على كل شيء، وفي كل الاتجاهات.

شهيد تلو شهيد

لم يعد بإمكان الشباب المواجهة، فوابل الرصاص كالمطر. انسحب الشباب نحو الباب الرئيس لبيت الشيخ، وهناك شكّلوا درعاً بشرياً. كان عناصر الشغب في تلك الأثناء يتقدمون من الجهة الشرقية للبيت، والباب الرئيس عند الجهة الغربية، تفصل زاوية المنزل بيننا وبينهم. لم أكن بينهم، انحشرت مع مجموعة صغيرة في الجهة الغربية والطلقات تحاصرنا، حتى تمكّنّا من القفز من خلال الفتحة في السور. حاولنا الذهاب إلى الجانب المقابل أمام منزل الشيخ لكن لم نتمكن من ذلك، فدخلنا إلى البيت.

ما سأذكره بعد هذا الحد لم أشهده بنفسي، لكن رواه لي

الشباب. عند ناحية الباب الرئيس لبيت الشيخ، كان الشهيد أحمد جميل العصفور أول الذين تقدّموا في وجه القوات، ومن دون تردد، ومن مسافة قصيرة، أطلقوا الرصاص عليه في صدره وبطنه، وسقط فوراً على الأرض.

ثم وقف شاب آخر اسمه فاضل، هاجموه أيضاً بالطلقات والضربات والركل، وأصيب برصاصة في ركبته، وقد ظن الجميع أنه استشهد. كانت حالته خطيرة لكنه تعافى بعدها.

أمرت القوات الشباب بالجلوس على الأرض وبعدم التحرك، لكن الشهيد محمد العكري رفض الجلوس، وقف أمامهم، فلم يترددوا في إطلاق النار عليه، وأردوه بإصابات مباشرة في الصدر والبطن، فسقط على الفور، هكذا، ارتفع الشهداء واحداً تلو الآخر في ذلك اليوم. لن أقول سقطوا، فهم في عليين.

جعفر علي:

يد الله تحيطني ويد الشهداء

لم أهنأ بحياة طبيعية منذ العام 2011. أُلصِقَتْ بي تهمة مختلفة وأحكام متباينة على خلفية نشاطاتي السياسي، وسُجِنْتُ حتى العام 2014، ثم لم تلبث السلطة أن عادت إلى ملاحقتي من جديد، وقررت أن لا أسلمها نفسي مرة أخرى، فاخْتَبَأْتُ وصِرْتُ مطارِدًا منذ ذلك الحين. تَمَّ تكديس عدد آخر من التهم الجديدة والقضايا الجنائية ضدي، واعتباري من المطلوبين الأمنيين الخطيرين. بقيتُ متخفيًا حتى صدور القرار المفاجئ والظالم بإسقاط جنسية الشيخ عيسى قاسم، فغادرتُ مخبئي إلى ساحة الفداء، وبقيتُ هناك طوال 11 شهرًا.

في 23 مايو/ أيار 2017، وهو يوم الهجوم الأخير، تمكّنتُ من الفرار من أيدي القوات، بقيتُ بعد ذلك مخبئًا، أتنقل من مكان إلى آخر، و تعرضتُ لملاحقات خطيرة ومدهامات أوشكت أن توقعني في أيديهم، لكن يد الله كانت دائماً تحيط بي، وتمكّنتُ من الفرار إلى خارج البحرين في العام 2017.

أنا محكوم مرتين بالسجن المؤبد، بالإضافة إلى مجموعة أحكام أخرى تصل إلى 31 سنة، وما زال هناك بحقي (حتى ساعة كتابة هذه الشهادة) 33 قضية منظورة أمام محاكم النظام، كما نسبوا

إليّ، بعد اعتصام الدراز، قضية جديدة عُرِفَتْ باسم خلية «اغتيال المشير»، وحُكِمَ عليّ فيها بالسجن 7 سنوات مع إسقاط الجنسية.

حُرّاس الأرض

هكذا كان حراس الباب الأخير، كتومين؛ قليلي الكلام وكثيري الفعل، والجميع شهد فعلهم. الشهيد محمد الساري، كان لديه زوجة وعائلة وعمل منتظم، لكن ذلك لم يؤثر على نشاطه أو تواجده في الاعتصام، كان يدير وقته بما يتناسب مع وجوده في الاعتصام. ينهي دوامه ظهرًا، ويذهب إلى بيته حتى المغرب، ثم يأتي إلى الساحة ويمضي الليلة فيها، ثم يغادرها صباحًا إلى عمله. الشهيد الساري نشط وفاعل وله حراك معروف منذ العام 2011 في الدوار، وجميعنا نعرف أنه أصيب برصاصة كادت تودي بحياته آنذاك. قبل ليلة من الهجوم على الميدان، وقف عند المضيف مع شقيق أحد الشهداء، قال له: «هل تريدني أن أوصل شيئًا لأخيك؟» فأجابه أخو الشهيد: «وما أدراك أنني لن أستشهد قبلك؟» فقال له: «لا، لن تستشهد قبلي». ثم كرر سؤاله: «هل تريدني أن أوصل له شيئًا؟!»

الشهيد أحمد جميل العصفور من حراس بيت الشيخ، طوال يومه تجده مرابطًا عند بيت الشيخ. كان شخصًا عطوفًا وحنونًا وقلبه على الشباب. أذكر أنني ذهبت في إحدى المرات مع مجموعة من الشباب المطلوبين إلى مطعم في الدراز، لكنه كان بعيدًا قليلًا عن الاعتصام، وصادف أن رأنا هناك، فقال متوجسًا: «ماذا تفعلون هنا؟ أنتم مطلوبون، غادروا هذا المكان بسرعة، اذهبوا إلى الاعتصام». أخرجنا ثم اشترى العشاء وأحضره لنا ولم يقبل أن ندفع له ثمنه.

عندما أعلنت الداخلية الكشف عن خلية بحسب زعمها، ووضعت اسمي مع أعضائها، أذكر أن الشهيد أحمد أتى إليّ بعد أن أنهينا صلاة الظهر، وقال لي: «هذا موضوع يشغل بالي كثيرًا. حاطين اسمك، لو تطلع بيان أنك متمسك بحراكك السلمي، والمطالبة بمطالبك المشروعة...». كان قلبه على الشباب، وكان يقول دائماً: «نحن نضل متعلقين بالشيخ، لا يصيب الشيخ مكروه ونحن موجودون، على جثتنا ياخذون الشيخ»، وقد صدق وعده.

الشهيد مصطفى حمدان أيضاً كان من المداومين في الاعتصام، كان صاحب حمية ومبادرة، يراقب ويقترح: «أنا راقبتهم (يقصد القوات)، هنا وقف جيب شرطة، فلنفعل شيئاً، دعونا نهجم عليه كي يفكوا الحصار عن الدراز.. كي يدخل المزيد من الناس إلى بيت الشيخ»، وبحكم كوني أكبر سنّاً منه، كان يحترمني ويسمع كلامي.

الشهيد محمد حمدان كان يوقن أنه سوف يستشهد قريباً. من الكلمات الشهيرة التي ظلّ يرددها بعد استشهاد أخيه مصطفى، الأقرب إلى قلبه: «سيطيب اللقاء»، كان دائم التكرار لهذه العبارة وقد جعلها كنيته في «تويتري»، وكان يقول: «ما يصبرّ لوعتي أن اللقاء عند الحسين».

الشهيد محمد العكري كان الأصغر سنّاً بين الشباب. كان بسيطاً، وكان ينام مع الشهيدين «الحمدانين» في البيت نفسه خلال الاعتصام. كان يجلس معنا، لكنه لم يكن يتكلم كثيراً.

درس المداهمة الأولى

تمت مداهمة البيت الذي ننام فيه أنا وصديقي خلال الاعتصام،

وهو خلف بيت الشيخ، كان واضحًا أنهم تلقوا إخبارًا بتواجدنا فيه، ولذلك تمت مدامته. كان ذلك الهجوم الأول على الساحة عند حوالي الساعة العاشرة صباحًا بتاريخ 21 ديسمبر/ كانون الأول 2016، أي بعد قرابة مرور ستة أشهر على بدء الاعتصام. برّرت الداخلية هجومها في تغريدة على حسابها على «تويتر» بالقول إنها كانت بصدد «تنفيذ أوامر قضائية بالقبض على مطلوبين ببعض القرى وتفتيش مساكنهم»، ولمّا لم يجدونا، أخذوا شخصًا آخر، وأفرجوا عنه لاحقًا.

في وقت الهجوم، كنتُ أعمل مع بعض الشباب على بناء مظلة في الساحة لحماية الشباب من الشمس في وقت الصلاة. كان ذلك من حسن حظنا، وإلا لثم اعتقالنا داخل البيت. ففي الحقيقة كنّا قد أنهينا عملنا للتو، ونتحضر للعودة إلى المنزل وأخذ قيلولة قصيرة قبل صلاة الظهر. كنّا في الطريق، وقبل وصولنا بقليل، نفذوا المداهمة، ولو أنّهم تأخروا قليلًا لثم اعتقالنا داخله، شعرنا أن نجاتنا تمّت بلطف إلهي.

هناك أكثر من هدف من هذا الهجوم، القبض على مطلوبين وفقًا لما ذكرته الداخلية، لكنه كان يهدف أيضًا لجسّ نبضنا من ناحية أخرى.

شكّل هذا الهجوم مفاجأة صاعقة للناس، إذ كان الأول منذ بدء الاعتصام الذي استمر هادئًا طوال 6 أشهر. توقيته كان مفاجئًا أيضًا، كنّا نتوقع أن يحصل الهجوم عند الفجر، كما هي عادة النظام الغادر. في النهار يقل عدد المعتصمين بسبب التزامهم بالوظائف والمدارس والجامعات وغيرها، لقد درسوا التوقيت

جيدًا. لم يكن العدد الموجود في الساحة حينذاك يتجاوز العشرين شخصًا. وما كانوا ليتمكنوا من فعل أي شيء في حال قرر النظام أخذ الشيخ بالفعل أو التعرّض له. كان ذلك هو الدرس الصادم الذي تلقاه الشباب من تلك المداهمة.

في ذلك اليوم، كان الطريق سالكًا أمام القوات. دخلوا المنطقة بسرعة جنونية من المدخل الأقرب من الشارع العام، ووقفوا عند بيت الشيخ بمدرعاتهم. تقافز الشباب المتواجدون في الساحة فورًا، وحصلت مواجهة، ويوجد فيديو يوثق ذلك، وعلى الرغم من العدد القليل، ظلّ الشباب ثابتين ومستنفزين بكل طاقتهم. كان وضعًا مستحيلًا مع قلة عددهم. إنه اليوم الوحيد الذي رأيت فيه الشباب يصرخون من أجل الشيخ لا من أجل أنفسهم، الشيخ في الداخل ولا أحد في الخارج، كان الشباب يكبرون ويكون مع شعور عميق بالخذلان.

شعرنا أن كلّ شيء انتهى، ونحن لا نستطيع فعل شيء. كانت المرة الأولى التي يحصل فيها ذلك من دون أن نكون مستعدين له، لكن لم تمضِ دقائق حتى بدأ الناس يتوافدون، وازدادت حدة المواجهة. خرجت النساء والرجال والشيخ من بيوتهم، واندفع الناس نحوهم بغضب وهياج، اعتقلوا أخي وشخصًا آخر من ذلك البيت ثم رحلوا، الأمر لم يستغرق أكثر من نصف ساعة، لكن تأثيره على الشباب المعتصمين كان كبيرًا، وما حدث علّمنا درسًا خطيرًا.

بمجرد انتشار خبر الهجوم، توافد الشباب من كل مكان، تركوا

التزاماتهم وأعمالهم وعادوا إلى الساحة. في اليوم نفسه، امتلأ المكان بالناس، وضج محيط بيت الشيخ بالمسيرات والتكبيرات. توقفنا طويلاً عند ما حدث، وصار مفروضاً أن تتبدل الاستراتيجية والروتين الذي كنا نعيشه. بعد ذلك، صار الناس يكتفون وجودهم في الفترة الصباحية. قرر الشباب إغلاق محيط بيت الشيخ والبيوت المجاورة له بشكل كامل، وعملوا على هذا الأمر. أغلقوا الشوارع بحيث يصعب اقتحام المكان بالسيارات، لم يكن ذلك ليوقف الاقتحام بالتأكيد، لكنه لن يكون أمراً سهلاً، فإغلاق الشوارع كان سيؤخرهم لبعض الوقت، حتى يستنفر الناس ويجمعوا للحماية والدفاع.

الدرس الثاني للمداهمات

كانت كل مداهمة تحدث تجعل الشباب يعيدون ترتيب وضعهم، أو يطورون استراتيجيتهم بما يتوافق مع الحدث. تكررت الاعتداءات بأشكال مختلفة، لكن الاعتداء الثاني الأشد على الشباب، كان ذلك الذي قُتل فيه الشهيد مصطفى حمدان في 25 يناير/كانون الثاني 2017. اقتحم ملثمون يرتدون ثياباً سوداء الساحة عند الساعة 3:30 فجراً بالشوزن والرصاص الحي. كانت جميع القوات ملثمة، ولا ترتدي الزي العسكري، سيارات مدنية يتجاوز عددها 20 يحمل من فيها رشاشات ومسدسات فرد وسلاح الشوزن. سقط الشهيد مصطفى حمدان بطلقة نارية أصابت رأسه عند ساحة خمدن.

تقع ساحة خمدن وراء بيت الشيخ، وفيها خيمة وبساط يسهر فيهما الشباب. كان باقي المعتصمين نائمين في البيوت المجاورة

وفي الساحة، وكنتُ مع اثنين أو ثلاثة من المطلوبين ننام في بيت ملاصق لبيت الشيخ.

وقفت القوات خلف المنطقة المغلقة، ثم نزل عناصرها من سياراتهم، وعبروا الساحة والملعب ركضًا حتى وصلوا إلى الساحة. في الملعب، تم اعتقال بعض الشباب. استخدموا الرصاص بكثرة ثم الشوزن، ولم يستخدموا مسيلات الدموع.

كانت حجتهم في الهجومين الأول والثاني هي «القبض على مطلوبين أميين»، لكن كان لديهم رسائل أخرى أكثر خطورة أرادوا إيصالها، وهي أن الشيخ ليس خطأ أحمر، وأن المرابطين حول بيت الشيخ ليسوا قادرين على منعنا في حال أردنا الوصول إليه.

دخلوا إلى أحد البيوت خلف بيت الشيخ، تجمعوا كلهم عند بابه. وكنا نحن أربعة مطلوبين في البيت الملاصق له، أردنا الهرب، لكن الباب الذي أردنا الخروج منه لم يفتح، بقينا حوالي دقيقتين أو ثلاث على هذه الحالة، حتى فُتح في اللحظة الأخيرة، تمامًا كما في الأفلام، ولو تأخرنا أكثر، لكانوا وصلوا إلينا. خرجنا نحن الأربعة واحدًا تلو الآخر، وعند خروجي، التفتوا إلى الباب وأدركوا أن هناك مجموعة تتسلل، فركضنا بسرعة، وأخذوا يركضون وراءنا ويطلقون الرصاص في الهواء. وعندما اقتربوا منا، حدثت مواجهات، واعتقالات، وإطلاق رصاص بشكل غزير، لكن غالبية الطلقات كانت في الهواء، إلا الشهيد مصطفى والذين كانوا معه، فقد وجَّهوا الرصاص إليهم، ولو أطلقوا النار مباشرة على الجميع، لسقط عدد من الشهداء.

أصيب عدد من الجرحى، ومنهم الشهيد مصطفى الذي سقط أرضاً. وحصلت اعتقالات، اعتقلوا تقريباً ستة أو سبعة أشخاص. بعد هذه الليلة، ازداد الوعي ليتناسب مع خطورة المرحلة، وتبدل الروتين، واتفق المرابطون على ألا يقتصر وجودهم عند باب بيت الشيخ، بل أن يتوزعوا في نقاط مراقبة بعيدة تكشف شوارع أبعد من بيت الشيخ، بحيث يكون هناك رصد على مدار 24 ساعة لأي سيارة قادمة وأي شخص يدخل المنطقة. وتم تحديد خمس نقاط للمراقبة في مدار بيت الشيخ وعلى مسافة منه، وتم تنظيم جدول مناوبات.

ثم اشترى الشباب (برقيات)، وصاروا يتواصلون عن طريقها بين النقاط الخمس، وفي كل مناوبة، كان هناك مسؤول يتردد عليهم ويرى احتياجاتهم. كان المسؤول يتجول بين بيت الشيخ إلى هذه النقطة، واستمر ذلك حتى اليوم الأخير من دون ملل أو تعب، بل بقي الحماس مرتفعاً. كان عدد الشباب المناوبين في النقطة يتفاوت شخصين إلى عشرة أشخاص حسب أهمية موقعها، وتزداد الأعداد خلال الإجازات. كان الهدف من نقاط المراقبة تجنب المفاجأة، فعبر البرقيات يصل الخبر إلى الجميع، ما يُتم التنسيق بينهم. وهكذا، صارت الأمور تتطور مع كل صفقة نتلقاها.

ثم بدأت مرحلة أخرى أيضاً، وهي السواتر، وُضعت تقريباً في جميع النقاط في الساحة للاحتماء من الطلق، فقبل ذلك، لم يكن هناك ما يمكن للشباب الاحتماء به. في الفترة الأولى قبل وضعها، كانت الدوريات تتجول خلف بيت الشيخ وعند ساحة خمدن، وكان أمراً مضرراً بالشباب، وقد تم في أكثر من مرة اعتقال

بعضهم. بعد وضع السواتر، صار من الممكن التحرك بحرية أكثر في المنطقة.

رصد المخبرين

تمكنا لاحقاً من رصد عدد من المخبرين والعملاء الذين بثتهم الداخلية بيننا، سواء من الدراز أو القرى المختلفة. كانت الأوامر تصلهم أن يذهبوا إلى الاعتصام ويرصدوا كل شيء، وكان رصدهم دقيقاً جداً في البداية، ثم بدأنا نلاحظ حركتهم من جوانب مختلفة مثل تسجيل كلام بعض الشيوخ أو التقاط بعض الصور، وكان قد تم منع التصوير في الساحة منعاً باتاً إلا لمجموعة محددة أو كُلت إليها هذه المهمة. استطعنا تمييز عدد من المخبرين بعد مراقبتنا لهم. عرفنا بعد استجوابهم أنهم يقومون برصد كل ما يجري داخل الساحة، وأن هناك تركيزاً على أشياء كنا غافلين عنها، من بينها على سبيل المثال، رصد النوافذ التي تطل على بيت الشيخ، وعدد النعال عند باب الشيخ، والبيوت التي كان الشباب ينامون فيها حول بيت الشيخ، والعلماء الذين كانوا يحضرون، والروايد. كانوا يلتقطون الصور لهم كلهم. كان هناك تركيز على أعداد المعتصمين في كل فترة من فترات اليوم، وكانوا يسألونهم باستمرار: «هل خرج الشيخ؟ هل تكلم مع أحد؟» هذه الأمور كانوا يركزون عليها كثيراً.

لا أذكر كم كان عدد المخبرين الذين تم كشفهم بشكل دقيق، كانوا عشرة وربما خمسة عشر مخبراً، لكن الإثباتات، والهواتف التي وقعت في أيدينا قبل أن يمسخوا كل شيء كانت مهولة. كان بعضهم يعمل ضمن شبكة، وما إن يتم كشف أحدهم واصطياده

من قبل الشباب، حتى يصل الخبر إلى الباقيين ويهربون، لكن أسماءهم بقيت لدينا، وهناك محادثات تثبت عمالتهم.

أحد العملاء كان يرصد عددًا من الشباب، وكان أمره مشكوكًا به، فابتعدوا عن مكان الاعتصام ورأوه خلفهم في السيارة، ثم أوقف سيارته ونزل منها، فذهب اثنان من الشباب يمشون باتجاهه. خاف وهرب إلى داخل أحد بيوت الدراز التي يعرفها. ذهب الشباب إلى سيارته، ففتشوها وحصلوا على هاتفه، لكن اتضح أنه كان يمسح كل شيء أولاً بأول، لم يبقَ إلا الرسائل الأخيرة، وكانت بينه وبين ضابط من مركز الدير، اسمه خلفان أو خليفة، يقول له الضابط: «تعال واستلم المال». كانت الرسالة قبل ربع ساعة من ملاحقة الشباب له، ثم قال له المخبر: «هناك شباب في هذا المكان، قريب لبيت الشيخ تقريبًا خمسة عشر شخصًا، تعالوا إليهم». لكنه عاد وقال له: «في وقت ثانٍ، الآن الأمور غير مرتبة بشكل صحيح»، وكان هذا آخر رصد له. ثم استطاع الشباب أن يستخرجوا أشياء سابقة من هاتفه، فوجدنا لديه معلومات من التحقيقات عن بعض المطلوبين الذين يقوم بالبحث عنهم في الاعتصام.

بعد ذلك، ذهب الشباب إلى البيت الذي دخل إليه وطرقوا الباب. أصحاب البيت كانوا أشخاصًا فقراء وبسطاء، وكانوا يعرفونه. خرج صاحب البيت وزوجته الكبيران في السن، وأولادهما، ودافعوا عنه، وعندما أراهم الشباب هاتفه، قال الرجل ذو اللحية البيضاء: «وأنا كيف أطمئن أن هذا هاتفه؟» ورفض أن يخرجهم لهم.

الاعتحام الأخير

تواردت أنباء عن نية قوات الأمن الاعتحام منذ الساعة 11 ليلاً. بدأ الناس يتجمعون ويحتشدون، وكانت الحكومة تحشد قواتها. أجواء الميدان كانت صلاة ليل وأدعية حتى صباح 23 مايو/ أيار 2017. استنفر الناس وانتشروا، وأصبح هناك مجموعات كبيرة من الشباب، في حالة تأهب عند نقاط الاستطلاع والمراقبة. لم يكن لدى الشباب أي أدوات، فقط أرواحهم وأجسادهم. كان هناك تأكيد على عدم حمل أي نوع من السلاح، لأن ذلك سيضر بالشيخ وبقيضيته، لذلك، التزم الشباب بالواجهة بأجسادهم فقط، فيما حمل البعض المولوتوف أو الحديد، وكانت تلك حالات فردية.

احتشد الناس بشكل كبير جداً، وقفتُ ناحية ساحة خمدن عند نقطة مراقبة رقم 2، كانت الجهة التي رأينا فيها السيارات في المرة الأخيرة هي النقطة رقم 1. توزع الشباب عند بيت الشيخ، وانقسموا عند كل النقاط. كانت النقاط تكشف الشوارع التي تؤدي إلى بيت الشيخ.

في البداية، دخلت المدرعات من كل الجهات. وفي الوقت ذاته، نشرت الداخلية بيانها عن اعتزامها القيام بعملية في الدراز للقبض على مطلوبين أمنيين، وأن هناك أشياء غير قانونية وغير مرخصة تحصل. تقدّمت القوات نحو الساحة، وكانوا يزحفون شيئاً فشيئاً، بحكم العدد الكبير الموجود، لكنهم استخدموا الشوزن بشكل هستيري، وحدثت إصابات بليغة وسريعة. حاولوا تقليص عدد الشباب بالتخويف وإطلاق الرصاص والغازات، وتمت محاصرة الساحة من جميع الجهات. كان الهدف التضيق على الموجودين في الدائرة المحيطة ببيت الشيخ.

بقينا داخل الساحة، لكن خارج دائرة محيط بيت الشيخ، واصلنا التصدي لهم من الخارج، وكانت المجموعة الموجودة في محيط بيت الشيخ تتصدى لهم من الداخل، إلى أن زحفت القوات وتمكنت من إحكام الحصار على الموجودين في الداخل، ومن ثم السيطرة عليهم بشكل كامل، واعتقالهم من محيط بيت الشيخ، وهنا انتهى الأمر. شعر الشباب بالانكسار والانهيار، ولم يعد بإمكانهم الدخول بعد أن صارت القوات كلّها في الداخل. ولأنني لم أكن هناك، لا أستطيع الحديث عما حصل هناك.

عندما خرجت من الساحة، كانت طائرة المراقبة تقوم بالرصد. كنتُ بثيابي، ولم يكن وجهي مغطى، فكانت الطائرة ترصدني. وكنا نعرف خطورة الطائرة، فكثير من الكمائن والاعتقالات للشباب حصل بسبب رصدها. وصلتُ إلى مكان لا يمكنهم رصدي فيه، والتفتُ إلى أحد الشباب من غير المطلوبين، والذين لا علاقة لهم بهذه الأمور، وأشرتُ له ليدخل إلى موقف للسيارات. دخلنا إليه من دون أن نثير انتباه أحد، كانت الطائرات تجول في الميدان، بدّلت ثيابي معه وارتديتُ قناعاً، وخرجتُ بين الشباب من دون أن يعرفني أحد. كان هناك شابان مطلوبان، أحدهما من الدراز والآخر من السنابس، أشرتُ لهما ليتبعاني حيث أذهب، توجهنا إلى منطقة بعيدة، قرب المنطقة المعروفة بـ (فلسطين)، ودخلنا بيتاً نعرف صاحبه وزوجته، ساعدونا لاحقاً في مغادرة الدراز على الرغم من نقاط التفتيش. فأخرجونا إلى قرية قريبة، ومنها تفرقنا نحو الخارج.

محمد حسيلين:

هكذا تلقى الشيخ خبر إسقاط جنسيته

في اليوم الذي أسقطت فيه جنسية الشيخ عيسى قاسم، صودف أنني كنت برفقة عدد من الشخصيات في زيارته. كان الشيخ مريضاً حينها. كان يومذاك الرابع عشر من شهر رمضان، الموافق لـ 20 يونيو/ حزيران 2016، بعد الظهر. وأثناء تواجدنا مع سماحة الشيخ، طُرق الباب الخارجي، فقمْتُ لفتحه، إذ من غير اللائق أن يقوم الشيخ بذلك. أبلغني أحد الإخوة الذي كان مرافقاً للشيخ بالخبر، وللأسف كنت أنا من قام بإخبار الشيخ: «[...] لقد تم إسقاط جنسيتك».

كان الشيخ حينها يتحدث في موضوع ما، وعندما تلقى الخبر، لم تظهر على وجهه أي علامات تعجب أو تأثر. سأل: «كيف تم سحب الجنسية؟» فقلتُ له: «مرسوم ملكي نشرته الصحافة»، قرأته له عبر هاتفني. ابتسم الشيخ بشموخ، وتلا آية قرآنية عن الصبر (لا أذكر نصّها الآن)، ثم استكمل حديثه بذات القوة والتوازن والضبط التي كان عليها قبل تلقيه الخبر. أما نحن، فقد غادرنا بعد بعض الوقت، وقد أصابنا من التأثير ما أصابنا. عندما رأى الشيخ ذلك، راح يطمئننا أثناء وداعه لنا، وقال إن كل شيء بيد الله وبعينه، وإنه لا بد أن تسير الأمور إلى الخير. فكان هو من يخفف عنا.

غادرنا بيت الشيخ، وذهبنا إلى بيت أحد الإخوة في الحي نفسه. كنا نقاش ما ينبغي علينا فعله حينها. أثناء تواجدنا، كانت هناك اتصالات وحركة، وبدأت الحشود تزحف إلى بيت الشيخ، نساء ورجال. كان الانكسار كبيراً، والحرقة بادية على الوجوه التي علتها الغصة: كيف لهذا الرجل أن يُمس؟ سواء اتفق الناس مع الشيخ أو اختلفوا، آمنوا بالمطالب السياسية التي يتبنّاها خطابه أم لم يفعلوا، رأى الجميع في استهداف الشيخ استهدافاً للوجود الكامل الذي يمثله سماحته، والمساس به هو مساس بكل الشيعة والأحرار في البحرين. لم يمضِ وقت حتى بدأ الناس يزحفون نحو الدراز. بعد ساعات، أغلقت قوات الأمن المنطقة، لكن الناس ظلّوا يتوافدون بشكل عفوي ومن دون تنظيم من أي جهة أو أحد.

موقف الشيخ من الاعتصام

بعد أن علم الشيخ بتجمّع الناس خارج بيته، خرج ووقف يدعو المتجمهرين لفضّ التجمع والعودة إلى بيوتهم. قال إنه ليس هناك حاجة لذلك، وإنّ الأمر كله بيد الله. لكن الجماهير تحمّست أكثر عندما رأت الشيخ وبدأت الهتافات تعلو. عاد الشيخ إلى الداخل، وبدأ رجال الدين يتوافدون: السيد مجيد المشعل، والشيخ فاضل الزاكي، والسيد ياسين الموسوي، والشيخ عماد، والشيخ عزيز والشيخ محمود العالي والشيخ حميدان والشيخ حمزة الديري والسيد محسن الغريفي والسيد محمد الغريفي والشيخ منير المعتوق وعدد كبير من علماء الدين. ازدادت الأعداد وراح رجال الدين يشحذون همّة المتجمهرين للذود عن الشيخ. كانت الخطابات مرتجلة، لكنها كانت تعبر عن جوّ حقيقي وواقعي،

حتى أن بعض الذين ألقوا هذه الخطابات أكدوا لاحقاً أنهم لم يكونوا يمتلكون القدرة على الخطاب ولا الجرأة التي ظهروا بها. السيد مجيد المشعل، عندما خلع العباءة وقال أحضروا الكفن، لم يكن قد قرّر ذلك قبل خطابه. كذلك الأمر بالنسبة لخطابات الشيخ عزيز والشيخ ياسين. الناس كلهم لم يكونوا في هذا الجو الخطابي السياسي والتعبوي قبل الحدث، كل شيء كان وليدًا للصدمة.

أصبح مجلس الشيخ مفتوحاً، وتوافد كبار علماء الدين: العلامة السيد عبد الله الغريفي والعلامة الشيخ محمد صالح الربيعي، والعلامة الشيخ عبد الحسين الستري، والشيخ محمد صنفور، وكذلك السيد سعيد الوداعي. حضر المشايخ هناك بالمئات. الملفت تأثر الجميع إلا الشيخ، كانوا يتحدثون بقلق، وكان الشيخ يتحدث بطمأنينة. رأيت الشيخ يقابل تأثر بعضهم بالممازحة، يسألهم: «وشحواكم بعد؟» ثم يهدئهم: «لا تتشنجوا.. لا تقولوا كلمات غير محسوبة.. لا تدعوا الناس إلى شيء فيه مضرة لهم.. لا تفعلوا كذا». ولم يكن المزاح الذي عُرف به يغادره.

سمعتُ لاحقاً أن الشيخ تحدّث مع العلماء الذين دعوا للاعتصام وزاروه في بيته. كان قلقاً بشأن الناس، قال لهم إن الموضوع وراءه تبعات كبيرة عليكم (العلماء) وعلى الناس، وليحدث ما سوف يحدث في نهاية المطاف، ولا يصيبكم ضرر، ولا يتضرر العلماء، ولا تتضرر الساحة. لكن وجد العلماء حاجة الدين والوطن الى ذلك، ورأوا أن تسليم الشيخ يعني تسليم الجميع. فأتخذ القرار بالاعتصام، أعلن ذلك السيد مجيد المشعل، واستمر الاعتصام بدعوة العلماء. لكن لاحقاً، اعتُقل

العلماء المعتصمون وغُيبوا في السجون؛ وبينهم السيد مجيد، والشيخ فاضل، والشيخ محمد جواد، والشيخ عيسى المؤمن والشيخ منير، والسيد ياسين، والشيخ علي الهمللي، والشيخ عزيز الخضران، والشيخ عماد الشعلة... كلهم. وعلى الرغم من ذلك، استمر الاعتصام بإصرار الشباب، وظل هناك علماء يؤدون صلاة الجماعة حتى يوم ضرب الاعتصام، لكنهم كانوا غير مُعرّفين؛ كانوا يؤمون الصلاة ويرحلون.

شهر رمضان في ساحة الدراز

هكذا تحول الاعتصام إلى أمر واقع منذ اليوم الأول. وصل بعض الرواديد، ومنهم مهدي سهوان، وبدأ الشباب يُحضرون الميكروفونات، وتطورت الأمور بشكل عفوي. أذكر أن بعض الأهالي أحضروا سجادةً من البيوت، والسجاد الذي وُضع في الشوارع، لا أدري كيف؟ ولكن التحديات تخلق الفرص كما يقولون. كلّ ذلك تم خلال وقت قصير. وعند حلول وقت أذان المغرب، أدّى الناس الصلاة في الشارع وتمّ توفير الإفطار، وبقوا حتى السحور؛ وصارت الأمور تسير بهذه الطريقة.

حتى نهاية شهر رمضان، ظلّت الساحات المحيطة ببيت الشيخ ممتلئة. تحوّل المكان لساحة اعتصام مفتوحة وسط أجواء تشبه أجواء الاعتصام في دوار اللؤلؤة مع اختلاف الظرف والمكان، حيث يوجد أحياء سكنية في الدراز بالإضافة إلى الأجواء الخاصة في شهر رمضان. بدأ الناس يجتمعون وينظمون أنفسهم؛ الرجال في مكان والنساء في مكان، البعض يحضّر الإفطار والبعض يحضّر السحور، أصبح هناك مضائف، حوالي 7 مضائف في المكان.

لم ألحظ وجود قيادة مركزية، لكن الحشود نفسها قامت بتنظيم نفسها، الرجال يرتبون موضعهم، والنساء يرتبن موضعهن. البعض يرتب لصلوات الجماعة، والبعض الآخر يعدّ برنامج عبادة وبرنامجاً حسيّياً وقراءات، فشهد رمضان حيوي. هناك من عمل على إعداد البرامج الثقافية والمسابقات للشباب، وآخرون عملوا على برنامج رياضي في الساحة الخلفية لبيت الشيخ للشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الـ 15 و 25 و 30 سنة، وصار هناك ملاعب كرة قدم، وكرة طائرة.

بشكل عام، تحولت برامج الناس في رمضان في النصف الثاني إلى الدراز، تم إحياء ليلة القدر وسط زخم كبير من الحشود، وشهدت صلاة العيد حضوراً كبيراً. لباس العيد وتهاني العيد وألعاب العيد كلها صارت عند بيت الشيخ. استمر الحال كذلك إلى أن أطبقت قوات الأمن حصارها على الدراز، ورافق ذلك اعتقالات وقمع واعتداء على كل من يدخل، ومع ذلك، ظلّ الناس يأتون في الخفاء. استمر الحصار حتى 23 مايو/ أيار 2017. وتخلل تلك الفترة كثير من الأحداث، أحداث دينية وسياسية واجتماعية، وفعاليات وبرامج. كان الناس يحضرون بشغف. فكان جزء من هذا الاعتصام بديلاً عن التظاهر، وجزء منه تعبيراً عن مطالب الناس، وجزء منه حالة من التنفيس السياسي، فاعتبروا ساحة الفداء جزءاً من الساحات السابقة، أي دوار اللؤلؤة وساحة الحرية بل صارت شيئاً أكثر من ذلك.

بكاء الشيخ

صباح يوم 22 ديسمبر/ كانون الأول 2016، كان الطلاب في المدارس، إذ كان يوم دوام عادي والناس في المدارس والأعمال

والوضع كان هادئاً، دخلت قوات الأمن بشكل شرس، وكان الهجوم الأول لها بهذه الطريقة. استنفر الشباب واضطربوا خوفاً على الشيخ، وكانت هناك ملحمة من الصمود والوقوف أمام تلك الآليات العسكرية والجيش المدججة بالسلاح وبعد انكفاء العساكر، دخلنا أنا وأحد المشايخ إليه، وكان القلق ظاهراً علينا. جلس ينتظرنا لتحدث، في حين كنا ننظر إلى بعضنا البعض من شدة الإرباك بسبب ما حدث وكيف سننقل المشهد لسماحته... ضحك سماحة الشيخ وقال: «ما بكم؟ ولِمَ القلق؟» أجابه: «ما حدث اليوم». قال: «كل شيء بيد الله وبعين الله». ثم أردف: «أعطوني صورة عما حدث»، فروينا له كيف هجمت قوات الأمن من أربعة محاور، واستخدمت المدرعات الطويلة. ثم نقلت له مشهداً رأيته بنفسي، حين وقفت فتاة من الدراز أمام المدرعة وقالت لهم: «لن تمرؤا.. لن تدخلوا»، فنزل إليها الضابط وبدأ يهدد ويصرخ ويده السلاح وهو يوماً به نحوها وقال لها: «ابتعدي عن طريقنا وقومي»، فأجابته: «اقتلني أو ادهسني لكن لن تصلوا إلى الشيخ». هنا بكى الشيخ. كانت المرة الأولى التي أراه فيها يبكي، على الرغم من أنه سبق لي أن أخبرته عن مواقف حصل فيها قتل، وكان يتأثر في كل مرة، لكنه هذه المرة بكى.

الشيخ يحتوي دائماً حالة الضعف أو التعب أو الاهتزاز عند الناس، لكنه في نهاية المطاف إنسان. لقد تأثر كثيراً بإصابة الشهيد مصطفى حمدان، وكانت الإصابة الأولى في اعتصام الدراز. كان يتابع وضعه الصحي لحظة بلحظة، وكان دائم السؤال عن أحواله وأحوال عائلته والشباب.

قنوات الشيخ ومتابعته للأخبار

تصل إلى الشيخ متابعات يومية لكل الصحف العالمية من دون مبالغة، حتى الصحف العبرية. كانت تصله الصحف كلها؛ صحف الموالاة والمعارضة وصحف المحاور المختلفة، وكان يتابعها أولاً بأول. وكان يقرأ التقارير السياسية، ويتابع الشأن الديني في كل شيء، كما يتابع أمور الناس وشؤونها وظروفها وظروف طلاب العلوم الدينية كلها. لم ينقطع عن ذلك أبداً. وعندما كان الأمر يتطلب التواصل المباشر، يتم ذلك، أنا أو آخرون.

فضلاً عن ذلك، كان هناك ملف عام للمتابعات، وتقرير يومي، يتم إعداده له. يتضمن هذا التقرير أخبار الصحف والمتابعات المحلية والدولية.

السيد عبد الله الغريفي كان يلتقي بالشيخ على الأقل في الشهور الأولى إلى أن توقف الموضوع. أصبح من الصعب الدخول إلى الدراز. أما الاتصالات الدولية التي تلقاها الشيخ، فكانت تتم عبر بعض الأطراف الذين كانوا يتواصلون معنا مباشرة، ويطلبون التواصل مع الشيخ، وترتبت الكثير من الاتصالات خصوصاً في الأيام الأولى للاعتصام، بينهم فقهاء ومراجع وشخصيات إسلامية ومؤسسات وقوى مختلفة من دول مختلفة. والاتصال الأبرز كان من آية الله العظمى السيد السيستاني، وأيضاً من آية الله العظمى السيد الحائري. وغيرهم من المراجع والفقهاء بعدها، تم الترتيب لما حصل في الاعتصام، وهو نقل تحية السيد السيستاني للشباب، والقول لهم إن السيد السيستاني يبلغكم السلام ويحييكم في الدفاع عن الشيخ.

من بيته، تابع الشيخ ملفات الأحوال الشخصية، والتبرعات، وقضية الشيخ علي سلمان وموضوعات أخرى سياسية أو دينية. طبعاً، لم يكن للشيخ علاقة بالاعتصام، كانت كل مواقفه تتعلق بملفات أخرى، الشيخ لم يكن يعطي رأيه بموضوع يتعلق به، ولم يكن يطالب بأي شيء يتعلق بالاعتصام، بحكم كون الاعتصام مرتبطاً بقضيته.

مسيرات الأكفان وفكرة الفداء

كلما استجد حدث، تبعه ردّ فعل جديد من الناس. بعد أن بدأت جلسات محاكمة الشيخ في يناير/ كانون الثاني 2017، خرج الناس في مسيرات الأكفان. شهدت البحرين مسيرات ضخمة شارك فيها عشرات الآلاف في المناطق كلها، ومسيرة الدراز كانت أكبر مسيرة تشهدها الدراز في تاريخها. كان الناس يتدفقون من كل مكان بالأكفان، مسيرة السنابس كانت كذلك أيضاً، ومسيرة السترة كانت عملاقة جداً، وجميعها حصلت في الوقت نفسه.

مسيرات الأكفان حملت رسالتنا بأننا نفدي الشيخ بأرواحنا. الدعوة إليها كانت علمائية، كانت مسيرات الأكفان أوسع من (شارع) الوفاق. كان هناك شعور عام لدى الشيعة بأن وجودهم في خطر. أعتقد أنه كان عملاً سلمياً وحضارياً جداً. لم يرفع أحد سيفاً أو سلاحاً أو أي أداة حادة. إنه موقف يعبر به الإنسان عن استعداده للتضحية من أجل وجوده، والشيخ هو رمز هذا الوجود المستهدف. كيف يمكن اعتبار استعدادك لتقديم نفسك في سبيل قناعتك، بطريقة سلمية ومن دون عنف، تصعيداً؟ رأينا كيف خرج

الناس بصدور عارية، وأيدٍ خالية من أي شيء، ولم يتعرّض أحد للأذى.

انتشر برودكاست في فترة محاكمة الشيخ عيسى. كانت رسالة تقول إنه إذا تم استهداف الشيخ عيسى من دون وجود أي كوابح، فسيأتي الدور على كل من يسبب القلق للنظام مثل جريدة الوسط ونشرة وعد. وبعد ضربة الدراز، أغلقت السلطات بالفعل جريدة الوسط ونشرة وعد. قد لا يكون هناك تلازم أو ترابط بين الأمرين، لكن من طبيعة النظام البحريني، عند شعوره بالقوة في ضرب أحد، أن يتنقل لضرب الشخص التالي.

كانت الأيام الأخيرة قبل اقتحام الدراز أيضاً صاخبة، إذ كان يُشاع دائماً أنه سوف يحصل استهداف للمعتصمين واعتداء عليهم، ما أدى إلى خلق حالة من الحماس عند الناس، فكانوا يتوافدون على الدراز، وتُفتَح المجالس ويبيتون فيها بانتظار الحكم.

الهجوم الذي أصيب فيه الشهيد مصطفى حمدان غير الكثير في حسابات الشباب. لقد كان هجوماً دموياً قائماً على الخداع والمباغطة. لم يكن بين المسلحين الذين هجموا أي شخص عسكري، والسيارات التي دخلت كانت مدنية، كما أن الأسلحة التي استخدمت لم تكن أسلحة عادية.

هنا بدأت تتغير الأمور، وبدأت تخلق توجهاً عند الشباب بضرورة وجود فدائيين، وكانوا مستعدين لذلك فعلياً. كثيرون منهم كانوا يغتسلون غسل الشهادة، وخرج كل شيء عن إطار الجو الطبيعي في الاعتصام، ففي الاعتصام، كان الناس يجلسون ويتحدثون، ويجرون

لقاءات ونقاشات وحوارات ودورات وبرامج ثقافية، ولكن أصبحت حالة الفداء موجودة. هذا الجو ظهر بعد استشهاد مصطفى حمدان.

التعاطف

بشكل عام، لمسنا تعاطفًا كبيرًا مع قضية الشيخ من قبل الشخصيات التي تمثل أطيافًا سياسية مختلفة. شهدت بأم عيني تعاطف شخصيات مخملية من التجار والاقتصاديين مع ما حدث للشيخ، وقد تواصل معي أكثر من طرف، بل إن شخصيات حكومية رأت في ما حدث حماقة وخطأ فادحًا من قبل السلطة، فكان التعاطف مع الشيخ والشعور بخطأ الدولة كبيرًا عند هذه الأطراف. ربما كان هناك تحفظ عند البعض من أصحاب المصالح الاقتصادية في إظهار مواقفهم، وبعضهم جزء من الذين يعيشون حالة من اليأس السياسي، فكانوا يرددون أنه ليس هناك داعٍ للاعتصام، ولما يحدث من ردود فعل.

الفصل الثاني:

مذكرات ساحة الباب الأخير

حسن محمد:

هكذا صارت الساحة مسجدنا ومجالس الدراز بيوتنا والمعتصمون أهلنا

كنا نتهياً لليلة النصف من رمضان عندما انتشر خبر إسقاط جنسية الشيخ. كنا في يوم 14 رمضان الموافق لـ 20 يونيو/ حزيران 2016. لم تكن هناك مقدمات لهذا القرار غير ما سبقه من ردح إعلامي رسمي ضد الشيخ. دخلتُ في حالة من الذهول وعدم التصديق: ماذا يعني إسقاط جنسية أكبر رمز ديني في البحرين؟! ثم تأكد الخبر. لا مجال للتشكيك. فاردمي ولم أعرف ماذا أفعل، كنت أبحث عن شيء أنفّس به غضبي.

لا وطن بلا آية الله قاسم

في مجموعة مناطقية في الواتس أب، كتب أحد الشباب: «ماذا تفعلون في بيوتكم؟ يللا إلى الدراز». مباشرة بدلت ثيابي، كتبت للشباب: «أنا رايح.. اللي بيحي حياه». خرج معي اثنان من الشباب. في الطريق، عرفنا أن الناس يزحفون إلى الدراز. وصلنا عند الساعة 3:30 ظهراً، وكان التجمع قد بدأ للتو. علمتُ أن الشيخ كان قد خرج إلى الشباب، وطلب منهم المغادرة.

كان الوضع في بادئ الأمر هيجاناً غاضباً وهتافات، لا شيء منظم، الطقس حار جداً والناس صيام، لكنهم كانوا غير مباليين بالحر والعطش، ومأخوذين بحرقه الحدث.

تم توزيع بعض الأكفان، أحضر الشباب ميكروفونًا صغيرًا، ووقف العلماء والمشايخ يخطبون، بينهم السيد مجيد مشعل. كلمة سيد مجيد كانت الأكثر حماسًا، ارتدى الكفن، وارتدى الشباب الأكفان، وقال مقولته الشهيرة: «لا نريد وطنًا بلا آية الله قاسم».

بعد وقت قصير، تم إحضار بعض السجاد وتم فرشهُ على الأرض. كان سجادًا خفيفًا، أقرب إلى (طربال)، جلسنا فوقه وكُنّا نحس بحرارة الأرض تحتنا. وضعت قوات الأمن نقاط التفتيش منذ عصر اليوم الأول، ومنعت الناس من الدخول إلى الدراز، وصاروا يدخلون من خلال منافذ هنا وهناك.

القرقاعون الغاضب

تدفق رجال الدين والمشايخ وشخصيات سياسية، الكبار دخلوا إلى بيت الشيخ وبقيت مجموعة في الفناء.

أُذن لصلاة المغرب، وكانت صلاة ضخمة، وما يزال الوضع غير مرتّب. بعد الصلاة، تم إحضار الإفطار. لا نعلم من أين أتى كل هذا الطعام، البيوت كلها فتحت أبوابها والكل يدعونا لتناول الإفطار عندهم. دخلنا إلى بيت كان صاحبه واقفًا عند الباب، ويُدخل كل من يمرّ به، هناك شعرنا أنّهم قدّموا لنا إفطارهم كاملاً، بحيث لم يبقَ لهم شيء.

في وقت السحور، حصل الأمر ذاته. جميع المآتم ألغت احتفالاتها المقررة والخاصة بليلة النصف من رمضان (القرقاعون)، وحوّلت طلبيات الطعام التي حجزتها كلّها إلى الساحة.

اتفق الشباب على أننا لن نتحرك من مكاننا هذا. فالجميع يتوقع أن الخطوة التالية لإسقاط جنسية الشيخ هي محاولة تسفيره وتهجيريه، كما حدث مع الآخرين الذين سبقوه. الناس توقعوا حدوث هجوم سريع وأخذ الشيخ، وتوقعوا أن يحصل الهجوم في أي لحظة.

لم نتصور آنذاك أن تطول مدة الاعتصام، ولم أتوقع أن خروجي من البيت سيستل 11 شهراً، وأني لن أرى عائلتي إلا بعد 10 أيام من خروجي الأول، بعد أن طلبت منهم إحضار ثياب لي.

بالعودة إلى اليوم الأول، إنها ليلة (القرقاعون) لكن لا مظاهر للفرح، لم يكن هناك إلا الغضب. الجميع وقوف وجلوس في الخارج على الرغم من الجو الحار والرطب. لم يكن موضوع المجالس قد ترتب بعد، كل البيوت مفتوحة. استمرت الكلمات الحماسية وظل الوضع متوتراً حتى وقت السحور. بعدها هدأت الساحة قليلاً، وانتشر الناس هنا وهناك داخل المنطقة نفسها. البعض ذهبوا للراحة داخل البيوت. ثم سمعنا صوت أحدهم يتكلم في الميكروفون، فتوافد الجميع، وكان السيد مجيد المشعل.

لوم السيد مجيد

إنها الساعة الواحدة فجراً. شكر السيد موقف الشباب، ثم قال: «الآن حان الوقت لتفرق، وقد وصلت رسالتنا إلى السلطة برفض هذا القرار، وقد عملتم ما عليكم، وسيبقى الاعتصام بحالة رمزية ممثلة بمجموعة قليلة من العلماء».

ضج المكان بالهتافات، رفض الشباب التحرك وراحوا يهتفون: «لن نترك الشيخ وحده». فهمنا أن هذا خطاب العلماء برفض

الاعتصام. هناك من غادر الساحة فعلاً التزاماً بكلام العلماء، لكن الغالبية رفضوا. ثم أمسك آخرون الميكروفون، وبينهم مشايخ، وكانوا يؤكدون رفضهم مع الشباب: «لن نتحرك».

كانت لحظة عاطفية مؤثرة جداً، ذكرنا فيها مقولة الإمام الحسين (ع) لأصحابه: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً».

في الداخل، جلس الشباب إلى السيد مجيد وراحوا يلومونه، فقد كان طلبه هذا مناقضاً للخطاب الحماسي الذي ألقاه ظهرًا، أخبرهم السيد أن تلك هي رغبة الشيخ وقراره، وأن الشيخ قال له: «إذا أنت لم تخرج إلى الناس وتخبرهم، فسأخرج بنفسي»، وأوضح لهم السيد: «لقد كنت أميناً في نقل رسالة الشيخ، أما عن نفسي، فأنا لن أغادر، وهذا كفني».

لم يكفِ هذا التوضيح الشباب، ظلوا يلومون السيد، خاصة أن هناك عددًا غير قليل من الجماهير المحتشدة غادر التزامًا بقرار العلماء. لمدة شهرين كاملين، ظل هذا الموضوع يُثار في مجالس الشباب: «هل أخطأ السيد؟ هل كان علينا المغادرة؟» وكان على السيد في كل مرة، أن يجيب على الأسئلة نفسها في الجلسات الخاصة.

إغلاق مكتب البيان

اتخذنا قرارنا بالبقاء، وفي الحقيقة كنّا نظن أن المسألة لن تطول سوى لأيام، ويحصل الهجوم. قضينا الليل سهارى أمام باب الشيخ. صباح اليوم التالي، في الخامس عشر من شهر رمضان، ورد إلينا خبر اقتحام مكتب البيان. تفاجأ الجميع وراحوا

يتساءلون: «لماذا مكتب البيان؟» حصلت نقاشات ومحاولات فهم وتحليل.

بعد الساعة السابعة صباحًا، بدأ الشباب ينامون في الساحة في الحرّ، البيوت كانت ممتلئة. البعض غادر لارتباطه بالعمل أو الدراسة أو العائلة، والبعض اعتذر عن الذهاب إلى عمله. أقيمت صلاة الظهر في الساحة أيضًا وسط حرارة الشمس. استمر الوضع على هذه الحال لمدة أسبوع كامل، قبل أن نتقل للصلاة في مسجد الحيدرية القريب، فالوضع لم يعد يحتمل لشدة الحرّ والشمس، لا سيّما مع الصيام.

في عصر اليوم الثاني، بدأت الفعاليات من كلمات وهتافات. رُفِعَت صور الشيخ، وتم تعليقها على الجدران. الناس ما زالوا مرتبكين، ولا يعرفون ماذا يفعلون. بعد أيام، كانت لنا جلسات مع المشايخ، وكان السؤال: «ما هو تكليفنا؟» لم يكن هناك أي شيء واضح حول ما تنوي السلطة فعله، الاحتمالات كثيرة: هل سيتراجعون عن هذا القرار؟ هل سيحدث تفاهم؟ هل سيتركونا هنا؟ هل سيهجمون علينا؟

لو قال سنة لضحكنا

النقاشات المستمرة كانت تهدف لتعبئة الشباب ليحافظوا على موقفهم، ويمكن القول إنها ساهمت في إبقاء مجموعة كبيرة من الشباب طوال تلك الفترة، ربما لو قال أحدهم منذ البداية إننا سنبقى هنا سنة كاملة، لكنّا ضحكنا عليه.

الطريف أنه كانت هناك كلمة للشيخ علي سلمان قالها قبل الحادثة بسنة تقريبًا، في اعتصام أقامته المعارضة في الشارع

نفسه، قال فيها: «مستعدون أن نعتصم هنا يوم وشهر وسنة». قالها بعد هجوم السلطات على بيت الشيخ وتفتيشه. نشر الشباب هذه الكلمة كخطاب تحفيزي، لم نكن نعلم أن الأمر سيطول لسنة فعلاً. وعندما أكمل الشباب قرابة العام هناك، كان لديهم استعداد للبقاء أكثر.

مشقة الحرّ اللاهب

كان عدد المعتصمين كبيراً جداً في البداية، يمكن تقديره بالآلاف، ولم تستوعب البيوت المجاورة كل تلك الأعداد، ما اضطر الناس للجوء إلى البيوت الأبعد بسبب الحر، خاصة عند الظهيرة.

كنا نشعر بالعطش الشديد بسبب الصيام والحر الشديد. بعد عدة أيام، تم جلب عدد من المراوح، ووُضِعَتْ في الساحة. لم يكن هناك مظلات، وكان الشباب يستعينون بمظلات السيارات لتقيهم حرّ الشمس اللاهبة. كنت أجلس مع البعض تحت (طبيلة) عند بيت الشيخ، ثم تم جلب مساند لاحقاً، وبعد أيام، أحضروا مكيفاً (ماء)، وفي الحقيقة، كان هذا المكيف يزيد الرطوبة لكن لا يخفف الحرّ.

السيد السيستاني: لا يضرّكم

في اليوم الثالث، بدأت المرجعيات الدينية الشيعية تصدر بيانات تعلن فيها تضامنها مع الشيخ. أحد المشايخ أعلن عبر الميكروفون أنه ورد اتصال من السيد السيستاني للشيخ قاسم قال له فيه: «أنتم مكانكم في القلوب وما حصل لا يضرّكم». شعر

الشباب بنوع من الاطمئنان أن ما حدث لن يضرّ الشيخ، على اعتبار أن السيد لا يتكلّم جزافاً.

مركزية الساحة

خلال أيام، بدأ الشباب يرتبون أنفسهم، البعض استلم موضوع الصوتيات، والبعض الآخر موضوع المضيف والأكل. كثرت المضائف خلال شهر رمضان. كان هناك حوالي 3 إلى 4 مضائف، تحولت بعد العيد إلى مضيف واحد رئيسي واحد، ومضيف آخر لأنواع الشاي والحلويات. الأول يكون مفتوحاً وقت الوجبات فقط والثاني طوال اليوم.

في البداية، كان الجميع يشارك ويحضر للمضيف؛ الأهالي والمطابخ والمطاعم المختلفة يتبرعون بوجبات متنوعة. الناس يتبرعون بالأموال للمسؤولين عن الطعام. استلمتُ بنفسني تبرعات من الناس أعطوني إياها لإيصالها إليهم.

منذ اليوم الثالث، صار برنامج الاعتصام يتبلور: تلاوة القرآن عصرًا، ثم وقفات بسيطة وكلمة قبل الصلاة، ثم الصلاة والفطور، ثم استراحة لأكثر من ساعة، ثم برنامج قرآني، ثم كلمات ووقفة هتافات وغيره.

تم تحويل جميع برامج شهر رمضان في الدراز إلى الساحة، والناس يتوافدون من كل مكان، كان الحضور حاشداً. بعد أربعة أيام، بدأت ليالي استشهاد الإمام علي (ع)، فتحولت المآتم كلّها إلى الساحة، صارت القراءة مركزية وكذلك العزاء. كذلك تم إحياء ليلة القدر بشكل مركزي في الساحة، وكان الحضور كبيراً جداً على الرغم من الحر. لم يكن هناك غير بعض المراوح

والرطوبة تبلل الثياب والأجساد. وأيضًا تم تحويل مجالس القرآن خلال شهر رمضان جميعها إلى مجلس الساحة.

بدء المحاكمة

في 17 يوليو/ تموز 2016، أعلن المدعي العام أن رجل الدين الشيعي «عيسى قاسم»، سيمثل أمام المحاكمة الشهر المقبل بتهمتي جمع أموال بشكل غير قانوني وغسل أموال.

في غياب المشايخ

بقي تواجد المشايخ ملفتًا إلى أن بدأت مرحلة الاستدعاء والتحقيق والاعتقال. خلال الأسبوعين الأولين، كان المشايخ يتواجدون داخل فناء بيت الشيخ، أي بين بيت الشيخ ومنطقة الصبّيات المحيطة به. بعد عيد الفطر، خرجوا إلى الساحة ليكونوا قريبين من الناس، تم تخصيص منطقة مربعة يجلسون فيها بين بيت زين الدين والصبّيات. كانوا قرابة الأربعة عشر شيخًا.

تصدّر المشايخ المسيرات أول الأمر، وكانت صور المسيرات تُؤخذ للمسيرات من الأمام، فتظهر وجوه المشاركين. في شهر يوليو/ تموز، بدأت مرحلة استدعاء المشايخ واعتقالهم، وكانوا في التحقيقات يظهرون لهم صورًا تثبت تواجدهم في الاعتصام، وتم إدانتهم بموجبها وتوقيفهم وحبسهم. بعض المشايخ أُخلي سبيلهم بعد تهديدتهم أنه في حال عودتهم، سيتم اعتقالهم. السيد مجيد المشعل عاد إلى الساحة مرة أخرى. تم استدعاؤه مرة ثانية ولم يذهب، ولم يغادر الساحة، لكن في أول زيارة له إلى بيته في 30 يوليو/ تموز تم اعتقاله من هناك. في أغسطس/ آب، خلت الساحة من المشايخ بعد أن تم اعتقال 12 منهم.

أثر ذلك علينا بشكل كبير. وجود المشايخ يمثل حصناً لنا ويمنحنا غطاءً شرعياً وإحساساً بالأمان. نستشيرهم في كل التفاصيل والخطوات كي لا تكون انفعالية أو غير مدروسة، كما أن قضية الشيخ عيسى قاسم دينية بالدرجة الأولى، لذلك فإن عدم وجود المشايخ في المقدّمة له أثر على نفسية الشباب، ومع اعتقال المشايخ، أضيفت صورهم إلى صورة الشيخ المرفوعة، صاروا أيقونة.

الساحة أيضاً تأثرت كثيراً بغياب المشايخ. لم يعد هناك مجالس قراءة حسينية، كان كلّ من الملا حبيب مفتاح وسيد علي الموسوي يقومان بإحيائها قبل اعتقالهما. لم يعد ممكناً أن يقرأ أحد، فأني مشاركة فيها ظهور تؤدي إلى الاعتقال. قبل ذلك، كان المشايخ يجلسون بعد العشاء في حلقات، كل واحد منهم يجلس في حلقة مع مجموعة من الشباب، أحد المشايخ خصص جلساته للأطفال. هو أيضاً لم يعد موجوداً، كذلك كان السيد مجيد قبل اعتقاله يُعطي درساً يومياً بعد صلاة الظهر، بعده، أتى الشيخ فاضل الزاكي، الذي اعتُقل هو الآخر.

تسبب ذلك بجفاف البرامج، صارت كلها صوتية كي لا يظهر وجه الشيخ أو طلاب العلوم الدينية الذين التحقوا بالساحة فيما بعد. وكان إمام الصلاة يدخل ملثماً، ويؤم الصلاة من وراء حاجز ثم يخرج ملثماً من دون أن يتعرف إليه أحد.

في ليالي (الوفيات)، صرنا نعرض بثاً مباشراً لمجلس أحد الخطباء من منطقة أخرى، مراعين أمر اعتقاله في القضية وتفاعله معها.

تم أيضًا استدعاء الرواديد الذين شاركوا في العزاء في الساحة، لهذا صار الرادود يسير في العزاء ملثَّمًا، وهو أمر صعب ومتعب، ثم بعد ذلك صاروا يحيطونه بما يشبه الصندوق الذي يواريه عن الأنظار، فكأنه يسير وسط صندوق من الحواجز، وهو أمر صعب أيضًا، ثم صار الرواديد يعتذرون، بسبب إمكانية التعرف عليهم من أصواتهم وتمييزها.

مرّت الساحة بتحديات كثيرة، كلّها أثّرت على الحضور بشكل واضح، وكذلك الأنشطة. هناك أيضًا شخص يعمل في سوق العمل، تم استدعاؤه وإظهار صورة له في الدراز والتحقيق معه حولها، أذكر أن هذا الحدث أثّر بشكل كبير في الحضور والتواجد وسبّب تخوّفًا كبيرًا عند الناس.

منذ ذلك الحين صار التصوير من الأمام ممنوعًا، بحيث لا يُسمح بظهور وجه أي من المتواجدين، وُسِّح فقط بالتصوير من الخلف. كذلك صار التصوير مهمّة تقتصر على مجموعة محددة هي التي تتولاه، ولا يُسمح لأحد آخر بحمل كاميرا أو التقاط أي صورة بالهاتف.

بعد الاعتقالات، تخلف بعض المشايخ عن الحضور، والبعض الآخر صار يأتي متخفيًا بدون عمامة ويجلس داخل المجالس. لاحقًا، تحوّلت الأنشطة إلى داخل المجالس نفسها وصار بعضها أكثر خصوصية وأقوى من الساحة.

تم تنفيذ عدد كبير من الدورات والورش في المجال الفني مثل: التصوير، والمونتاج، والتصميم، والفوتوشوب، ودورات تنمية مثل: إدارة الوقت، والتسوّق الآمن بالإنترنت، وكيفية

الاستفادة من خدمات موقع غوغل. بالإضافة إلى دورة إسعافات أولية وورش دينية ودروس عقائدية.

أسماء المجالس

بعد أن قلّ عدد المعتصمين، ارتأى المنظمون تقليل عدد المجالس المفتوحة، وجعل البيوت أقرب ما يمكن إلى الساحة. صار هناك سبعة مجالس يتوزّع فيها الشباب، بعض المجالس صارت مناطقية في معظمها وبعضها مختلطة. ومع الوقت، صار كلّ مجلس يعدّ برنامجاً خاصاً له، وما أن تدخل إلى المجلس، حتى ترى جدولاً موضوعاً عند المدخل يبين برامجه خلال هذا الأسبوع. صار هناك وقت محدّد للاستيقاظ، ووقت محدّد للنوم، لا يُسمح بالمحادثات الجانبية أو إضاءة الأنوار خلال وقت النوم، وهناك جلسات ودروس وحلقات وغيرها من الأنشطة التي ينظّمها كل مجلس بشكل مستقل وقد يحضر آخرون إلى المجلس ليشاركوا في نشاط ما أو يستفيدوا منه.

وصار لكل مجلس اسم يُطلق عليه من باب التمييز. كانت الأسماء إما مناطقية بحسب أغلبية الموجودين فيه مثل مجلس الديه ومجلس أبو صبيع، أو مرتبطة بحدث أو طرفة ما، فعلى سبيل المثال، يُسمى مجلس أبو صبيع أيضاً بمجلس (الأفق)، والسبب أنه عند فجر اليوم الثاني من الاعتصام، كان الشباب مجتمعين سهارى، وكلّما دخل أحد سألوه: «ما هو الأفق؟» فحصل ما يشبه حلقة نقاشية عن الأفق الذي يذهب إليه الوضع. مجموعة كبيرة من هؤلاء الشباب صاروا في هذا المجلس، فأطلق عليه في البداية مجلس الأفق، ثم صارت غالبية المجلس من أبو صبيع، فتغيرت تسميته.

هناك أيضًا مجلس الفداء، وسبب تسميته أن بابه يطل على ساحة الفداء مباشرة، وهو أقرب البيوت إلى بيت الشيخ. وهناك مجلس بيت الخال، إذ إنه بيت خال أحد الشباب هناك. ومجلس بيت جباتي، نسبة لكنية أحد الأشخاص، ومجلس الدفتر، وهو مجلس بعيد عن الساحة قليلًا، وخارج المنطقة المسورة، وفيه خليط من الشباب من مختلف المناطق، لكنني لا أعرف سبب التسمية تمامًا، أذكر أنني سألت من في المجلس ذات مرة، وشعرت أنه موضوع داخلي لا يريدون إظهاره.

أما مجلس السيلفي، فهم الشباب المسؤولون عن توفير الوجبات والمضيف، وهم من الشباب الأشاوس الذين تعتمد الساحة عليهم كثيرًا، وقد كانوا (مزوحين) ومرحين جدًا، عندما يدخل عليهم أحد يقولون له: «ما رأيك أن نأخذ معك صورة سيلفي؟» وقبل أن يجيب، يهجمون عليه من كل حذب وصوب في طقس مزاح خشن ويقومون بتصويره وهو في حالة يرثى لها، ويضحك الجميع. حصلتُ بنفسني على وجبة دسمة من (السيلفي)، وصرت من يومها عندما أذهب إلى هذا المجلس لسبب ما، أقف عند الباب من الخارج فقط ولا أدخل إليه مهما حاولوا استدراجي.

حضور الشهداء في المجالس

في مجلس الديه، كان ينام كل من الشهيدين مصطفى ومحمد حمدان والشهيد محمد العكري. الشهيد الساري لم يكن مداومًا في الاعتصام طوال الوقت. لديه التزامات أخرى تمنعه من التواجد في الساحة طوال الوقت، فقد كان محررًا للكثير من المسيرات والفعاليات في المناطق، وكان جلوسه ومنامه في مجلس الفداء.

خلال فترة الاعتصام رُزق الساري بمولوده (علي)، ثم استشهد ولم يكن ابنه قد أكمل عامه الأول بعد.

الشهيد زين الدين من أهالي الدراز، لذلك لم يكن ينام في المجالس ولا يتواجد فيها، لكنه مرابط دائم في الساحة مساءً، وفي الصباح يذهب إلى عمله. أما الشهيد أحمد العصفور، فهو أيضاً من أهالي الدراز، لذلك لا ينام في المجالس، لكنه يتواجد أحياناً في مجلس السلفي.

الكنيات الدرازية

يشتهر أهل الدراز بالكنيات، يطلقونها دائماً على الأشخاص من باب المزاح وإسباغ النعوت، وتصبح لقباً متداولاً فيما بعد. في كثير من الأحيان، أنت لا تعرف من الشخص إلا كنيته، أما اسمه الأصلي، فيصير نسياً منسياً. ستسمع مثلاً ألقاب (سلاية)، و (نتوف)، و (دعبس)، و (بهشتي)، وغيرها كثير. من المؤكد أن وراء كل كنية قصة، لكننا لا نعرفها جميعها. الأهم أن بعض الشباب المطلوبين تعرفهم الجهات الأمنية بكنائهم لا بأسمائهم، لأن المخبرين ينقلون إليهم هذه الكنيات المتداولة، لكنهم لا يعرفون أسماءهم الحقيقية.

في الساحة، صار لكل منا كنيته. وصار الجميع ينادي الآخر بالكنية، ولا يسأل عن الاسم. بعضنا تم إطلاق الكنية عليه من قبل الشباب هناك، وغالباً ما كانت هزلية، وصار الباقي يبادرون باختيار كنياتهم أو ألقابهم الخاصة قبل أن يختار لهم الشباب كنيات عجائبية ومضحكة.

بعد اعتقالنا وأثناء التحقيق معنا، كانوا كلما سألوا أحداً عن

اسمه، سألوهُ: «وما اسمك الحركي؟» فهم يعرفون أن من كنيته فلان مثلاً، كان يفعل كذا وكذا هناك، لكنهم لا يعرفون اسمه.

ضيوف الساحة

كلّنا ضيوف في الساحة، لكن مع الوقت ومع كون عدد محدود من الشباب المرابطين دائمي التواجد في الساحة، صار الجميع يعرف بعضهم البعض (بالكنيات لا بالأسماء)، وصار الجميع مثل العائلة الواحدة. وشعرنا أننا لم نعد غرباء عن المكان ولا عن الناس، وأن (البيت بيتنا)، أي أن الساحة والمجالس المطلة عليها كلها بيوتنا. فكان كلّ من يأتي من مرتادي الساحة الليليين من غير المرابطين نعتبره ضيفاً، ويكون علينا الاعتناء به وإكرام وفوده. كذلك الأمر في ليالي الأحداث والمحاکمات حيث يتوافد الناس بكثرة، كُنّا نعتبرهم ضيوفنا، ويتوجب علينا الاعتناء بهم. كُنّا نقدمهم على أنفسنا في تناول الوجبات، فلا نأكل إلا بعد أن نظمّن أن (الضيوف) قد أكلوا. كذلك فيما يتعلّق بالمبيت، كُنّا نؤمن لهم المكان المناسب للنوم، لأن من يأتي من غير المرابطين الدائمين لا يعرف أين يذهب وأين ينام، فكانت تلك مسؤوليتنا؛ أن نسهل على الآتي كل أموره واحتياجاته، ولا نجعله يشعر بأي نوع من الحرج أو الغربة.

شاي بالحليب

بقي في الساحة كما أسلفت مضيفان؛ المضيف الرئيس الخاص بأوقات الوجبات فقط، ومضيف أبي علي للشاي والحليب والحلويات والرطب. أبو علي شخص مرح ومحبوب ويتفنّن في إعداد أنواع مختلفة من الشاي مثل الشاي الأحمر والشاي الأخضر وشاي الليمون، وعلى يده عرفت لأول مرة شاي الكركم

أيضاً. قلت له ذات مرّة موصياً إياه: «تري أنا متعود كل يوم أشرب شاي بالحليب في الصباح والليل»، وأضفت من باب الممازحة: «أمي ما تخليني أطلع من البيت إلا بعد شرب شاي بالحليب». فكنت أمرّ عليه كل ليلة وقد جهّز لي الشاي بالحليب، وإذا رأيته من بعيد ولم أكن قد ذهبت له بعد ناداني: «تعال لا ترعّل أمك علينا». وفي كثير من الأحيان، كان يحضر كوب الحليب بنفسه لي إذا لم يرني في ذلك اليوم.

موجة البعوض

خلال شهر أغسطس/ آب؛ أي الشهر الثاني من الاعتصام، حلّت موجة بعوض شديدة وصلت إلينا من ساحل أبو صبح القريب. لم يسلم أحد من لدغات البعوض التي لا تستثني مكاناً في جسم الإنسان، تورّمت وجوهنا وأيدينا وأرجلنا. دامت الموجة حوالي عشرة أيام، وكانت متعبة وشديدة على الجميع. حاولنا التخلص منها بعدة طرق؛ أشعلنا حرائق صغيرة في كل مكان في الساحة، قمنا بغسل الساحة وتنظيفها ظناً منا أن الأمر قد يكون له علاقة بالأوساخ أو ما شابه، وضع بعض الشباب مواد تم خلطها بالماء وتعليقها في الهواء، أحضروا مختلف الأجهزة الإلكترونية الخاصة بقتل البعوض والحشرات. لكن لم يوقفها شيء.

كنّا نقف للصلاة فيرى كل واحد منا دائرة كبيرة من البعوض حول المصلين أمامه. قلّ خروجنا للساحة في تلك الأيام، إلا في أوقات الصلاة والوجبات والبرامج، لكن الشباب الذين كانوا يداومون على النوم في الشارع أمام بيت الشيخ طوال فترة الاعتصام تأذوا كثيراً. كان الأمر مزعجاً ومؤذيًا.

تفاوت تلقّي كل منا للدغات البعوض، البعض إصابته أقل، والبعض إصابته أكثر. بالنسبة لي كان الوضع مأساويًا، تورّم وجهي وجسدي بالكامل، أمّا الحكّة التي تصاحب التورم بعد اللدغة، فتلك عذاب آخر.

مع هذا، كنّا نضحك على بعضنا وأشكالنا، كان الشباب يعلقون على شكلي المتورّم أكثر من غيري، وكنت أجيبهم ممازحًا: «السرّ كلّهُ في الدم، البعوض يتكاثر على أصحاب الدم الخفيف، كلّما زادت لدغات البعوض فيك، دلّ على أن دمّك الخفيف جذبه إليك». كنّا نضحك على حالتنا.

رحلت الموجة من تلقاء نفسها كما جاءت بعد عشرة أيام!

فعاليات طريفة

مع مرور الوقت، بدأ الوضع داخل الساحة يصبح روتينيًا نوعًا ما، باستثناء «الأوقات الساخنة» مثل أيام المحاكمات أو حصول أمر مختلف. اهتم الشباب بخلق أجواء حماسية وأنشطة وإطلاق تسميات فكاهية تلطّف الجو وتضفي عليه الحيوية والنشاط والضحك. أحد تلك الأجواء اللطيفة هو الفعاليات التي أسميناها أيضًا بالشعائر، من باب الفكاهة، فكان لدينا شعيرة الرياضة، وشعيرة البلايلط، وشعيرة السفرجل، وشعيرة الرمان.

كل شعيرة تبدوّها مجموعة صغيرة، ثم ينضم إليهم الباقون تدريجيًا، فليس هناك أجمل من المشاركة في الأكل والشرب والشواب.

فعالية الرياضة

صار عدد من الشباب يخرجون كل يوم صباحًا، بعد أداء صلاة الصبح وقراءة دعاء العهد والصبح، لممارسة رياضة المشي في الشارع القريب من منزل الشيخ. أطلقوا عليها اسم (شعيرة الرياضة) من باب التلطيف والتشجيع. في البداية، كان العدد قليلًا، كانوا حوالي خمسة شباب فقط، وكانوا يخرجون للرياضة من دون أن يلحظهم أحد. ثم أخذ العدد يتزايد حتى وصل إلى عشرين تقريبًا، وصار ملفتًا. في هذا الوقت، يغادر أصحاب الأعمال والمدارس والجامعات، وما إن يفرغ الشباب من الصلاة والدعاء حتى يقفزوا من أماكنهم: «حان الآن وقت شعيرة المشي..» ويقوم معهم من يرغب بذلك. مدة المشي قرابة 20 دقيقة، وزعوها على ثلاثة أشواط في الشارع القريب من بيت الشيخ، ويُختتم الشوط الأخير بالجري الخفيف بين النخلتين.

هناك أيضًا مجموعة أخرى من الشباب اختصت بلعب كرة الطائرة بعد وجبة الغذاء، وأحيانًا لعبة الصبة الشعبية. بشكل عام تنوعت الأنشطة لكسر الروتين، وفي الوقت نفسه، لتحسين اللياقة البدنية للشباب.

فعالية البلايط

أحجل عندما أتكلم عن عطاء أهالي الدراز للمرابطين، فهم قدّموا كل شيء. لم نشعر يومًا أننا غرباء بينهم. في يوم الجمعة، اعتاد أحد المنازل من جيران الشيخ تقديم البلايط والحليب والبqvم بعد قراءة دعاء الندبة، وذلك قبل توزيع وجبة الإفطار الرئيسة. مع الوقت، أطلق الشباب على هذه الوجبة المقدّمة من ذلك البيت اسم (شعيرة البلايط)، فصار الشباب بعد دعاء

الندبة يؤدون شعيرة البلايط أولاً، أي يتناولون البلايط والبقصم والحليب حتى يُجهزوا عليها كلها، ثم يذهبون لتناول وجبة الإفطار. كل تلك التسميات هدفت إلى الترويح عن الناس وتلطيف الأجواء.

فعالية السفرجل

الوارد في الروايات استحباب أكل السفرجل على الريق. فصار بعض الشباب يحضرون السفرجل بعد صلاة الصبح، وقبل ممارسة شعيرة المشي، ويقومون بتقطيع السفرجل إلى شرائح صغيرة، وتوزيعها على جميع الموجودين هناك، وأسموها بـ(شعيرة السفرجل).

فعالية الرمان

أتاح التواجد في الساحة للشباب أداء المستحبات بشكل خاص، وفي يوم الجمعة الكثير من المستحبات مثل الاغتسال وتقليم الأظافر، وهناك أيضاً أكل الرمان على الريق. فكانوا يستعدون لذلك منذ ليلة الجمعة بتجهيز كمية من الرمان، وكذلك أسموها (شعيرة الرمان)، فكانوا يتجهون مباشرة بعد أداء صلاة الصبح إلى (مجلس الفداء) الذي يادر بالفكرة، وكان يتم وضع السفرة وتقطيع الرمان إلى أربع قطع أو خمس ثم تُقطع أيضاً بالنصف حتى يأكل الجميع.

شجرة وسيلفي!

إذا سمعت يوماً بهذه المسميات، فنصيحتي لك هي أن تهرب بعيداً. إنها من ضمن الأشياء التي فعلها الشباب لكسر الروتين وتلطيف الأجواء وإثارة جو من الضحك والمزاح فيما بينهم،

فاشتهر (مجلس الفداء) بمسمى (الشجرة)، والمجلس الذي يدير أمر للمضيف ويقدم الوجبات اشتهر بمسمى (السيلفي).

جلستُ ذات يوم في مجلس الفداء، فكنا نتحدث ونتمازح، فكان الشباب يقولون: «انت الظاهريي لك شجرة»، فقلت لهم: «تخوفوني بهالشجرة وش هالشجرة؟» وليتني لم أفلها. بدأ الهجوم عليّ بالمخدرات من كل حذب وصوب، هجمة جماعية يتفنن فيها الشباب ولا يتركونك إلا دائخًا مترنحًا. أما مجلس السيلفي، فهو أضعاف الشجرة، وفوق هذا يتم تصويره سيلفي وهو (ياكلها).

عيد مولدي

في تلك الليلة، كنت في الساحة خارج المجلس، تلقيت اتصالاً من الشباب في مجلس الفداء: «تعال المجلس، نريدك ضروري». قلت لهم إني سأنهي العمل الذي في يدي وآتي. بعد 10 دقائق، اتصل بي أحد الشباب: «أين أنت؟ أخبرني قبل أن تأني المجلس». تعجبت قليلاً. ثم تلقاني في الطريق إلى المجلس، وعندما دخلنا كان الجميع ينظرون إليّ، وقبل أن أبدي تعجبي أطفئت الأنوار، وبصوت واحد هبّ الجميع في حركة احتفالية: «أفضل الصلاة والسلام عليك يا رسول الله محمد...»، وتقدموا نحوي وهم يحملون كعكة وفوقها شمعة. كان ذلك يوم مولدي وقد دعوا بعض الأعضاء من المجالس المختلفة.

ثم جاء دور الهدية التي كان حجمها كبيراً، ومغلفة بطبقات كثيرة، وقبل أن يعطوني إياها أعطوني (شجرة)، لكنها شجرة خفيفة مراعاة للمناسبة، وعندما فتحت الهدية لم تكن سوى حقيبتني. لقد خدعوني.

تمتيت الموت

من أصعب المواقف على نفسي خلال فترة الاعتصام هو الهجوم الأول صباح 21 ديسمبر/ كانون الأول 2016، ربما لفرط مفاجأته. كل ما حدث بعد ذلك كان مترقبًا ومتوقعًا. قبل الهجوم الأول، كان كل شيء هادئًا تمامًا. ستة أشهر مضت على بدء الاعتصام، ولا شيء مثير للقلق. ومع طول المدة، وكما هي عادة البشر، صرنا نشعر بالأمان، حتى أن الساحة شهدت تراجعًا في الحضور، وبشكل عام، كان عدد المتواجدين صباحًا دائمًا أقل، وذلك بسبب التزام الناس بالأعمال والمدارس والجامعات.

خلال تلك الفترة، كنّا نذهب لزيارة عوائلنا بين حين وآخر، نخرج مثلاً لمدة يوم خلال الأسبوع، ثم نعود في اليوم التالي، أو نخرج صباحًا ونعود ليلاً. لا نفعل ذلك بتنظيم محسوب، ربما لأننا نشعر بالأمان كما قلت، ومن أمن الغدر، قصر عن أخذ الحيلة.

في ذلك اليوم، خرجتُ عند الساعة الثامنة صباحًا، وذهبت إلى عائلتي. كنت أحمل معي هدية لطفلي؛ مجلّة اشتريتها من أحد المحلات في الدراز منذ الليل. اعتدتُ خلال فترة الاعتصام أن أحمل معي في كل مرة أزور فيها عائلتي، هدية بسيطة لطفلي ذات الثلاثة أعوام. أيقظتُ عائلتي وجلسنا نتناول الإفطار. قلت لصغيرتي: «بعد الريوق، سأريك الهدية التي أحضرتها لك».

في تلك الأثناء، رنّ هاتفني، كان أحد الشباب: «أين أنت؟ هل أنت هناك؟»

أجبتة: «أنا في البيت، ماذا هناك؟»

قال: «يقولون هجموا..»

شعرتُ وكأن أحدهم صفعني على وجهي: «ماذا تقول؟»

أغلقت الهاتف وأنا في حالة من الذهول والصدمة، التقطت مفتاح سيارتي، التفتُ إلى طفلي: «بابا هذي هديتك»، أعطيتها الهدية وخرجت مباشرة.

ركبتُ سيارتي على الفور، ولا أعرف كيف قدتها وأنا في هذه الحال. فتحت هاتفي في الطريق فإذا الشباب قد أرسلوا صورة للقوات عند باب بيت الشيخ. ضربتُ رأسي: «يا الله!!!» ضربتُ مقود السيارة بيدي عدة مرّات من شدّة الغضب. كنتُ أقود السيارة بطريقة هستيرية وأتجاوز الإشارات الحمراء وأتجاوز السيارات وأوبّخ نفسي: «ماذا فعلت؟ لماذا خرجت من الدراز؟ وما الذي أخرجني في هذا اليوم بالذات؟!!»

بعد قليل، وصلني تسجيل صوتي لأحد الشباب يصيح فيه: «الحقوا يا شباب، دخلوا بيت الشيخ...!!»

هذا التسجيل جعلني أتمنى الموت!!

وصلت عند دوار القدم، الشارع شديد الازدحام، لم تتوقف يدي عن الضرب على بوق السيارة والتجاوز بين السيارات. في تلك الأثناء، لاحظت أن سيارتين أخريين كانتا تفعلان الشيء نفسه.

وصلتُ إلى الدراز، وظللت أبحث عن طريق للدخول. سيارات الجيب الأمنية كانت تتشر في الشارع بشكل كبير.

وجدت هناك منفذاً بين محل اسمه (القبائل) و (مسجد درويش) على الشارع العام. كان قد تم وضع أسلاك شائكة عند هذا المنفذ لمنع الدخول. رأيت شابين يحاولان دفع الأسلاك الشائكة للداخل باستخدام برميل، كانا يحاولان إحداث فتحة صغيرة يتمكنان من الدخول عبرها. على بعد 50 متراً، يقف جيب شرطة. تمكن الشابان من تحريك الأسلاك والدخول. أوقفت سيارتي في الشارع، ولحقت بهما.

المسافة من هذا المكان حتى الساحة لم تكن بسيطة، قطعناها كلّها جرياً من دون توقّف، لم نشعر بأنفسنا.

بعد أن هدأت الأمور، قال لي أحد الشباب ضاحكاً: «لقد أفادتكم رياضة المشي التي تؤديها بشكل يومي، صارت عندك لياقة تقطع بها كل تلك المسافة ركضاً».

وصلنا فإذا الناس مجتمعون، والهتافات الغاضبة تهدر في المكان، لكن كل شيء كان قد انتهى.

هذه الحادثة هزتنا جداً. أسست لفكرة أن لا يكون الخروج من الساحة إلا بالتنسيق مع الآخرين، وأن لا نخرج إلا إذا كانت هناك أعداد كبيرة في الساحة. صرّت دائماً أحرص على التواجد صباحاً ولا أخرج إلا عند الضرورة، لأن العدد يكون أقل. أخرج في الليل، خصوصاً في ليالي الإجازات، لأن الحضور فيها يكون أكثر من باقي أيام الأسبوع. أيضاً، صار هناك تحسس لدى الشباب. بعض الطلاب أوقفوا دراستهم، وأحد الشباب كان قد افتتح لتوه مشروعاً تجارياً، فأغلقه وقال: «الشيخ قبل رزقي!»

اليوم الأخير

تم اعتقالنا عند باب بيت الشيخ، كانت كلّ أرواح الشباب وكل أنظارهم متوجهة إلى باب بيت الشيخ، اقتحامه يعني أن ينتهي كل شيء، وأن يُمسّ الشيخ يعني أن نُعدم كلّنا: إنها معركة وجود مهما صوّرها البعض، ليست مجرد ولاء أعمى أو تعلّق عاطفي. كان بإمكاننا احتمال كل ما قد يحدث، إلا اقتحام بيت الشيخ وأخذه. لهذا كنّا طوال الوقت نحاول أن نعيق وصول القوات إلى بيت الشيخ، أو هكذا أملنا، وفي الحقيقة، كنّا نعرف أنّه حين يهجمون بكل معداتهم وقواتهم، لن نتمكن نحن العزّل من فعل شيء، لكن لم نكن لنسمح لهم بالقيام بذلك من دون ثمن، حتى لو كان الثمن أرواحنا ودماءنا.

انسحبنا إلى الداخل، إلى منطقة الصبيات، ودخلنا إلى محيط باب بيت الشيخ، فيما كان باستطاعتنا الهرب إلى الخارج بسهولة. زحفت القوات باتجاهنا، وحاصرت المكان بالكامل، ثم اقتحمت محيط بيت الشيخ. دخل العناصر علينا بأعداد مهولة، وكانوا يطلقون رصاص الشوزن وقنابل الغاز المسيل للدموع بشكل هستيري. حصلت مواجهات مع بعض الشباب، لكن لم يكن ممكناً التغلب على كلّ هذه العدة والعتاد والطلق الذي خنق الجميع وخرق أجسادهم. تمت السيطرة على جميع المعتصمين، جعلونا نبتطح على بطوننا ووثقونا إلى الخلف، وتولّوا ضربنا بالهراوات والرفس، إلى أن جاءت الباصات لنقلنا عصراً، قبيل وقت أذان المغرب بقليل. ثم سيّرونا في صفوف نحو الباصات، وأثناء توجهنا إليها، تتالت علينا الضربات بالهراوات والركلات بالأرجل، وقد تلقيت أثناءها ضربة بالهراوة، تسببت بشق رأسي

وسيل دمائي، الأمر الذي جعلهم يصحبوني إلى الطوارئ فور وصولنا، ويقومون بمعالجة الضربة وخياطة الجرح في رأسي.

محمود عطية:

يوميات الحرّ والبرد والمطر والمداهمات والوفاء والذاكرة الثرية

كنت قد عدتُ لتوّي من العمل ظهرًا في شهر رمضان، منهكًا بسبب السهر والحرّ وقلة النوم. وضعتُ رأسي على الوسادة لأخذ قسطًا من الراحة، تصفحت هاتفي قبل أن تغفو عيني فإذا بالرسائل تتوالى، وتحمل خبر إسقاط جنسية الشيخ. كانت صدمة كبيرة. كنت أنتظر خبرًا عن التجمع عند بيت الشيخ عندما غفوتُ من شدة التعب. بعد أقل من نصف ساعة، وإذ بالدتي توقظني: «قوم الدنيا مقلوبة العالم كلها عند بيت الشيخ». اتصلتُ بأحد الأصدقاء، وقال إنه يستعد للذهاب، فقلت له: «معك».

إلى الدراز

انطلقنا إلى الدراز. الشائعات بدأت تنتشر عن إقفال الطرق المؤدية إلى هناك. الشوارع شديدة الازدحام. دخلنا عبر إحدى الطرق الفرعية من منطقة باربار حتى دخلنا الدراز. لم نكن نعرف أين يقع بيت الشيخ بالتحديد، دلّنا عليه أحد الأطفال ووصلنا قبيل أذان المغرب. اليوم صرنا نعرف الدراز، كما لو أننا وُلدنا فيها.

ارتفع صوت أذان المغرب، كانت الحشود تغطي الساحة المقابلة لبيت الشيخ، وظل الناس يتوافدون إلى المكان. فتحت كل البيوت القريبة من بيت الشيخ أبوابها للصلاة، وتم توفير وجبة

الإفطار. أخبرتُ والدتي أنني لن أعود للإفطار في المنزل، ولا أعلم متى أعود. في هذا اليوم، شعرنا أن جميع جيران الشيخ لم يأكلوا لقمة من إفطارهم، جميع وجباتهم أخرجوها حباً وكرامة للناس.

هذا الليل... فاتخذوه جملاً

بعد الإفطار، قرأنا دعاء الافتتاح، ثم دخلنا أحد مجالس البيوت المفتوحة، وانتحى كل منا في زاوية ليرتاح فيها بعض الوقت. هناك من بقي في الخارج قرب منزل الشيخ. فجأة سمعنا أصوات المكبرات ترتفع بالتكبيرات عند الساعة الواحدة فجراً، فخرج الجميع ظناً أن هناك اقتحاماً من قبل قوات الشرطة، ثم عرفنا أن هناك كلمة ستلقى نيابة عن الشيخ، وكان المتحدث هو السيد مجيد المشعل. أبلغنا أن الشيخ يقول إن الأمور بخير ويطلب منا العودة إلى بيوتكم وسيتم الاكتفاء باعتصام رمزي لعدد من العلماء في بيت الشيخ. ارتفعت التكبيرات وشعارات: «لييك يا فقيه»، و«هل من ناصر مقاوم لبيك عيسى قاسم»، وغيرها.

رفض الشباب ترك الساحة، سألت أحد الإخوة: «ماذا نفعل الآن؟ ما هو التكليف؟» فقال: «الإمام الحسين (ع) سمح لأصحابه بالرجوع ورخص لهم ذلك وقال لهم: هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، فماذا فعلوا؟» أجبته: «لم يترك أحد الإمام»، فقال لي: «هذا هو التكليف».

عدت فجراً إلى المنزل لكي أذهب إلى العمل صباحاً، وعدت إلى الساحة في اليوم التالي.

الليلة 107: غريب

صادف الثالث من شهر محرم في هذه الليلة. كنتُ أعيش حالة من الصراع الداخلي من أجل الذهاب إلى الدراز. أنهيتُ الدرس قرابة التاسعة مساءً، ما يعني أنه لدي وقت حتى أصل إلى الدراز للمشاركة في البرنامج الليلي. في طريقي، كنتُ محتارًا: هل أذهب أم أعود إلى البيت؟ دخلتُ إلى المنزل، وكان الندم يعتريني، إذ كنتُ أملك الوقت للذهاب! لا أعلم لماذا لم أوفق لحضور برنامج الفداء، علَّه ذنب حال دون ذلك. ذهبتُ إلى مأتم القرية، شعرت أن الناس كلَّهم ينظرون إليَّ كغريب، تساءلت: «هل أنا مخطئ في بقائي في ساحة الفداء؟! أم هم مقصرون في عدم تواجدهم هناك?!»

الليلة 108: كل الدراز طوعة

ليلة الرابع من محرم هي ليلة مسلم وطوعة التي استضافته! الدراز كلَّها كانت طوعة. لقد فتح أهلها لنا بيوتهم، وشاركونا طعامهم. ذات يوم أتى ابن صاحب البيت الذي نجلس فيه وأففل علينا الباب، انتظرنا حتى فرغنا من الصلاة، ثم قال لنا: «لن تخرجوا قبل أن تتناولوا وجبة العشاء في منزلنا».

الليلة 110: الأنصار

ليلة السادس من محرم، ليلة الأنصار وشيخهم حبيب بن مظاهر الأسدي. استوقفني اليوم أحد كبار السن على كرسي متحرك. عند سلامي عليه، حاول تقبيل يدي. خجلت من نفسي: «من أنا وماذا قدمت!» سألني: «من أي المناطق أنت؟» وأجبت: فقال: «أنتم لكم جميل علينا». كان يقصد أننا دخلنا إلى منازلهم

وشاركناهم مسكنهم ومأكلهم، فقلت له: «أنتم أصحاب الجميل علينا، أنتم أخجلتمونا بكرمكم».

ذكرني هذا الرجل الكبير بشيخ الأنصار. فعلى الرغم من كبر سنه، إلا أنه لم يتوان عن التواجد بقرب منزل الشيخ.

الليلة 111: الإيثار

ليلة السابع من محرم؛ ليلة أبي الفضل العباس: الأخوة والحمية والشجاعة. كذلك أهل الدراز، استضافونا في منازلهم، آثرونا على أنفسهم في كل شي، كانوا لا يرتاحون حتى نرتاح، ولا يأكلون إلا إذا شبعنا، تعلّموا من العباس الأخوة والتضحية.

الجميع كانوا يستعدون لخروج موكب العزاء بالقرب من منزل الشيخ. الرادود يختفي بين ستائر من قماش من الجهات الأربع حفاظاً على سلامته. تفاجأ الجميع بقرار تحويل الموكب إلى موكب موحد داخل قرية الدراز حفاظاً على وحدة الصف، لكن ذلك جعل مساره بعيداً عن محيط بيت الشيخ. لم يعجب الأمر الشباب المعتصمين الذين لم يرغبوا بالابتعاد عن الساحة وترك منزل الشيخ وحيداً، فخرجت مسيرة عزائية من دون مكبرات صوت كي لا نترك الساحة. تكهربت الأجواء قليلاً.

الليلة 126: المحاكمة

أنهيت درسي، والوجهة المعتادة هي الدراز، بعد غياب ليلة عنها. وصلت إليها عند الساعة التاسعة مساءً. كانت هناك حركة مريبة لمركبات الشرطة في انتشارها وتم إغلاق شارع بني جمرة. كعادتي، اتصلت بالشباب في الداخل لتسهيل دخولنا بعد مدخل التوعية حيث المبنى قيد الإنشاء. اعتدنا الدخول سيراً على

الأقدام، لكن بسبب كثرة الدوريات المدنية، صرنا نأخذ الحيطة والحذر. اتصلت بعدة أشخاص ولم يردّ أحد على مكالماتي، وكانت الطائرة في حركة مستمرة، انتابني الشك: «هل حدث شيء؟ هل دخلوا؟!» قبل أن أعود أدراجي، ردّ عليّ أحد الشباب بأن المسيرة انتهت لتوها، وأن هناك من سيأتي ليأخذنا. دخلت إلى الساحة، ذهبت للسلام على الشباب الذين صاروا بمثابة عائلتي الثانية. ثم خرجت مع أحد الشباب لشراء المرطبات، فقال لي إنه يريد أن يصحو باكراً في الصباح من أجل المحكمة، فقلت له: «لماذا المحكمة؟ ماذا هناك؟» فقال: «محاكمة الشيخ». تفاجأت ثم استوعبت ما كان يحدث في الخارج.

الليلة 148: دخول مفاجئ

وصلت في هذه الليلة متأخراً، وكانت بتاريخ 14 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016. أجريت بعض الاتصالات للتأكد من أن الدرب سالك، وكانت الإجابة بالنفي. ذهبتُ إلى أحد المداخل البعيدة مشياً، ووصلت قرابة التاسعة مساءً. جلستُ مع الشباب وطلبنا العشاء. أنهينا الوجبة، بعدها قمت وبدلتُ ملابسني استعداداً للنوم، وبينما كنت أهتمّ بدخول المنزل الذي أنام فيه، وإذا بالشباب في حالة استنفار بين من يكبر ومن يصرخ: «الشعب دخلوا».

توافد الشباب من كل حذب وصبوب. كان النعاس ظاهراً على البعض. البعض الآخر خرج حافي القدمين، أو أفلت حذاه، والكل في حالة صدمة. أحد المصورين خرج يركض وفي يده الكاميرا من دون يتأكد إن كان بها بطارية. أصابني شيء من الخوف، فوضعي الصحي لا يسمح بوجودي في مواقف مماثلة،

لكننا أمام قضية تمس وجودنا الرمزي والديني. ما إن بدلتُ ملابسي حتى شعرت بشيء انقلب في داخلي، أزال الخوف من قلبي. ساحة الفداء هي بحق مدرسة وتربية وحاضنة للشباب.

كانت الساعة حوالي 11 ليلاً، عندما داهمت الساحة سيارتا جيب منفلتان إلى الداخل. دخلتا بسرعة كبيرة، ووصلتا إلى الشارع القريب من منزل الشيخ. إحداهما كانت سيارة أمن فيما كانت الثانية مدنية، تأهب الشباب وصاروا في حالة استنفار. لكن اتضح الأمر خلال دقائق، كانت دورية أمنية تلاحق أحد الشباب المطاردين. وسرعان ما هربت السيارة المدنية إلى الخارج، ودخلت الدورية إلى ساحة رملية وسط استنفار الشباب، ثم لاذت بالفرار هي الأخرى.

اليوم 155: تسقيف الساحة

في بداية الاعتصام، كانت الصلاة تقام في العراء وتحت الشمس الحارقة، بعدها تم وضع «طربال» من أجل التسقيف. تمت إزالته خلال فترة وجيزة. خلال شهر رمضان والأيام التي تلتها، كان الطقس متعباً ومنهكاً، فالرطوبة شديدة وخانقة. وكنا عندما نصلي على سجادات الصلاة، نشعر وكأنها مبتلة بالماء، وكانت المقترحات والتساؤلات من الحضور لماذا لا يتم التفكير في حل، خصوصاً مع دخول موسم الشتاء والأمطار!!

كان الإخوة ينظرون إلى الأمر من منظور آخر، فهم يخشون إزعاج جيران الشيخ، أما اليوم وبعد مرور 155 يوماً على المراقبة، قد تم البدء بالحفر تمهيداً لتسقيف الساحة، وكذلك تجهيز مجاري المياه. وفي الحقيقة، كان هناك الكثير من المقترحات المفيدة

لوضع الساحة، لكن تأخر تنفيذها من باب مراعاة الآخرين وعدم إزعاجهم، وربما هناك أسباب أخرى.

اليوم 158: ألطاف المطر

أعلنت الأرصاد الجوية عن فرص كبيرة لتساقط الأمطار هذا الأسبوع وسحب رعدية، والشباب يتساءلون عن مدى الاستعداد لها. اليوم الجمعة، بدأت الأمطار تتساقط على شكل زخات. بعد الانتهاء من المجلس الحسيني، أعلنت مكبرات الصوت عن وقفة تجديد العهد والولاء: «الله أكبر الله أكبر على الظالمين». بدأنا بالتوافد مع زخات المطر وقام الإخوة بتوزيع المظلات، وما هي إلا لحظات حتى تحولت الزخات إلى أمطار قوية. أجواء روحانية لا تفيها حقها بضع كلمات، كان المنظر جميلاً ومهيئاً والشباب واقفين بالمظلات في حالة من التكبير وتجديد العهد. تواصلت الأمطار بين هطول وتوقف.

وفي فجر يوم الإثنين، كان الطقس بارداً. أبعد الشباب السجاد الذي كان مفروشاً على طول الساحة، واستبدلوه بالحصير لسهولة جفافه في حال سقوط المطر. وقف الشباب استعداداً للصلاة، وما أن كبرنا تكبيرة الإحرام، حتى بدأت زخات المطر في التساقط. كانت أجواء روحانية رائعة.

اليوم 166: غسيل شامل

الساحة تحتاج لحملة تنظيف وتنظيم، وكذلك السجاد بسبب الرطوبة. كان المكان بحاجة إلى تنظيف. بعد صلاة الصبح، أعلنت إحدى الشخصيات الكاريزمية المؤثرة في مكبرات الصوت عن حملة تنظيف للساحة بعد دعاء الندبة. جهّز الشباب المعدات

وبدؤوا بكنس الساحة وتنظيفها. عمل الجميع بهمة ونشاط حتى أحضروا أجهزة ضخّ الماء من أجل غسل الساحة. ما إن بدؤوا حتى أخذهم الحماس، فقاموا بغسل السجاد مرة واحدة. دُهِش صاحب الفكرة من حماس الشباب ومبادرتهم لغسل السجاد، الأمر الذي لم يكن مخططاً له.

عمل الجميع كالنحل، غسلوا أعداداً كبيرة من السجاد، وعندما رأى أحد الجيران الشباب يفعلون ذلك، قام بمساعدتهم وإخراج الماء للغسيل حيث كان الماء في منزله مُبرداً، والطقس في الخارج شديد الحرارة، فأخذ الشباب يمزحون بالماء البارد، وقد لطف ذلك الأجواء بين ابتسامات وضحك الشباب.

أنهى الإخوة تنظيف الساحة قبيل العاشرة صباحاً. ومع حلول العصر، كان المكان مرتباً من جديد ومهيئاً لاستقبال المرابطين. انبهر الجميع من نظافة الساحة وترتيبها، وأثنوا على مجهود الشباب.

الليلة 168: المحاكمة وشهود النفي

رُفِعَت جلسة 4 ديسمبر/ كانون الأول 2016 مباشرة بعد الاستماع إلى شهود النفي، وأُجِّلَت إلى الشهر التالي. في ذلك اليوم، أقيمت أيضاً جلسة محاكمة الشيخ علي سلمان، وتمّ تأييد حكم الإعدام على عدد من شبّاب الوطن بتهمة ما عُرِفَ بتفجير الديه. كان الوضع خارج الدراز وداخلها مزرياً، إذ وضعوا نقاط تفتيش إضافية على المخارج والمداخل.

عشية المحاكمة، عدتُ من الدرس كعادتي بعد انتهاء المسيرة. تواصلتُ مع أحد الشباب لمعرفة الوضع والمداخل

المتاحة فأخبرني أنه يمكنني الدخول مشياً. طلبتُ منه أن يأتي ليأخذني، فقال لي: «بجي لك بسيارة مجكنمة (أي صغيرة)»، وقد كنت معتاداً على سيارته الكبيرة. أوقفتُ سيارتي في بني جمرة وعبرت الشارع. خرجت من العمارة، وكنت أتلفت بحثاً عن السيارة (المجكنمة)، لم أرَ غير سيارة هوندا من نوع (سي آر في). تجمدت في مكاني ولم أعرف ماذا أفعل، فنحن نسمع أن الدوريات المدنية تستخدم هذا النوع من السيارات. تقدمت بضع خطوات، وكنتُ متردداً، هل أكمل الطريق أو أعود أدراجي، أو أدخل بيت أحد الشباب؟! دقتُ النظر في السيارة كي أعرف على الشخص بداخلها، فلم أفلح بذلك، ثم أومض الكشافات مرتين، فقلتُ في داخلي إنها الدورية بلا شك، وإذ بصاحبي يفتح باب السيارة وهو يضحك. وجدتُ نفسي أضحك معه من القلق الذي اعتراني، وصرختُ به مماًزحاً: «هذي (المجكنمة)؟!»

قراءة منتصف الليل، عاد الوضع طبيعياً كما كان، وظلّ التفتيش في المداخل فقط.

اليوم 172: الدعاء تحت اللحاف

نحن في التاسع من شهر ديسمبر/ كانون الأول 2016. الطقس بارد والأرصاد الجوية أعلنت عن موجة برد قادمة بعد موجة الأمطار. اليوم هو الجمعة والطقس أكثر برودة، لكن ذلك لم يمنع الشباب من التواجد في الساحة وقراءة دعاء الندبة. كان الحضور جيداً وبدا المنظر في الساحة روحانياً وجميلاً، أغلب الإخوة كانوا قد غطّوا أنفسهم باللحاف وهم يقرؤون الدعاء، لكن العشق كان مصدر دفئهم الفعلي.

الليلة 180: مولد الرسول الأعظم

إنها ذكرى مولد منقذ البشرية ورسول الرحمة النبي محمد (ص) وحفيده الصادق (ع)، وسبقها أسبوع الوحدة. وهنا مقولة لآية الله قاسم: «التخاذل عن الدعوة للوحدة الإسلامية والتخلف عن المواقف المنسجمة مع هذه الدعوة، والتراخي في هذا السبيل فيه لون من خذلان الإسلام».

تزينت الساحة بصور الشيخ، صورته تحمل ابتسامة ملأى بالتفاؤل. يزين شعار «محمّديون طه سر قوتهم» وغيره من العبارات الجميلة الصور. أنيرت المصابيح الملونة وانتشرت في الأرجاء روائح الطيب والبخور. في نهاية الشارع، وُضِعَتْ بعض الألعاب للأطفال. كان حفلاً بهيجاً تنوعت فقراته بين محاضرة قصيرة وشعر وجلوات، وبين الفقرات، تم إجراء سحب على جوائز للحضور، عبارة عن كوب طُبِعَتْ عليه صورة الشيخ، وللأسف لم نوفق بالحصول عليها. ما إن انتهت فقرات الحفل حتى بُسِطَتْ مائدة الطعام، التي حوت كل ما لذ وطاب من الفواكه والحلويات والفطائر.

كانت الفرحة مرتسمة على وجوه المرابطين وهم يهتفون بعضهم بهذه المناسبة السعيدة.

اليوم 181: الشهادة طريق الفتح

يصادف يوم 17 و18 ديسمبر/ كانون الأول ذكرى عيد الشهداء، تليه ذكرى رحيل الوالد الشيخ عبد الأمير الجمري (قدس سرّه)، ومرور عقد على رحيله. في هذه الأيام، كان الإخوة قد أطلقوا

برنامج الختمة القرآنية مهداة لأرواح الشهداء وروح الشيخ (رحمه الله).

انطلقت مسيرة شموع في عيد الشهداء بحضور حاشد. وفي اليوم التالي، أقيم تأيين للشيخ الجمري، تضمن فقرات متعددة بينها كلمة ومقاطع مصورة للشيخ واختتم بأنشودة بحقه، وبعد انتهاء البرنامج، كان هناك وقفة لتجديد العهد للشيخ قاسم.

من كلمات الشيخ الجمري رحمه الله الخالدة بحق أبناء شعبه: «إني أشتاقكم اشتياق يعقوب إلى يوسف»، وقد هيّجت هذه العبارة أحزاننا، فنحن اليوم مشتاقون إليه، وإلى حنانه وعطفه علينا.

اليوم 185: هجوم بحجة مطلوبين!

الوقت: بعد الساعة التاسعة صباحًا. لم أكن متواجدًا في الساحة حينها بسبب ارتباطي بالعمل.

محاولة الهجوم

كانت الطائفة تحوم في المكان بشكل غير طبيعي، تم رصد تحرك بعض القوات من معقلها، كما انتشرت القوات بشكل غير طبيعي في شارع البديع، ثم انطلقت فرقة باتجاه قرية مقابة. أعلن الشباب الاستنفار فيما بينهم ونزلوا إلى الساحة وانتشروا فيها. ولم يُنشر الخبر في مواقع التواصل حفاظًا على الهدوء.

بعد قرابة نصف ساعة عاد الوضع إلى الهدوء. بقي بعض الإخوة في الساحة، بينما رجع الآخرون إلى المجالس القريبة. عند قرابة الساعة 9:45، اقتحمت المكان فرقة من قوات الشرطة

من جهة شارع البريد، وكذلك فرقة أخرى من جهة الحيدرية. تم رصد تقدم القوات، وبدأ الشباب بالتجمع من جديد. ما هي إلا لحظات وإذا بالقوات خلف منزل الشيخ.

الإخوة ركضوا شمالاً باتجاه (البنر) الكبير، تفاجؤوا بسيارة مدنية وباص وخلفهما فرقة. بدأ الشباب بالتكبير، فقام المدنيون بالصراخ عليهم محاولين إسكاتهم، فأطلقوا قنبلة صوتية وبعدها غازات مسيلة للدموع. لم يستطع الأخوة الوصول إلى مكبرات الصوت. حاولت الشرطة التقدم أكثر باتجاه الساحة من أجل الاستطلاع أكثر، ومعرفة ما يوجد في الساحة وقرب منزل الشيخ، لم تتمكن من ذلك.

بقي بعض الإخوة في الساحة، والآخرون دخلوا إلى محيط منزل الشيخ المنطقة المسقفة خلف الصبيات الإسمتية. بدأ الشباب بالتكبير وكان السقف من (الجينكو)، فكان لصوتهم صدى، وبدأ أن عددهم أكثر مما هو عليه.

توجهت القوات إلى أحد البيوت، كسر عناصرها أبواب المنزل واقتحموه واعتقلوا طفلاً وشاباً لم يكونا هدفاً لهم، بل يمكن القول إن أخذهم كان «ضربة أعمى»، لهذا أفرجوا عنهم لاحقاً. كانت القوات مصرة على معرفة ما يوجد خلف سور منزل الشيخ وفي الساحة. انتشرت الرسائل عبر برامج التواصل الاجتماعي بأنه تم الهجوم على منزل الشيخ وتم إطلاق النار. كان عدد الشباب المتواجدين في الساحة عند الصباح قليلاً، فصاروا يستخدمون أسلوب المناوشة بين كرّ وفرّ، ليبعدوا إبعاد القوات، حتى قدوم الإخوة من الخارج للدعم.

وصلت حين انتهى

كنت قد استأذنتُ من العمل للذهاب إلى المستشفى. عند وصولي، أعطوني موعداً متأخراً، فذهبت إلى المنزل للراحة، حتى يحين وقت مواعيدي. بمجرد وصولي، تلقيت رسالتين عبر الواتس أب:

«عاجل.. المدرعات الآن س 9:05 اليوم الأربعاء 21 ديسمبر / كانون الأول 2016م في ساحة الاعتصام عند منزل الفقيه القائد وتبدأ بإطلاق النار. كل واحد قريب يتوجه»

«عاجل.. الآن الهجوم على بيت سماحة القائد آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم.. على كل قادر التوجه الآن»

لم أستوعب ما قرأته في المرة الأولى. أعدتُ قراءة الرسالتين، وكأن ماءً بارداً قد سُكب علي. انطلقتُ مسرعاً، وأجريت عدّة اتصالات في الطريق. البعض قال إنه ذاهب إلى هناك، والبعض الآخر لم يكن يعلم بالخبر. وصلت إلى شارع البديع وكانت الحركة غير اعتيادية. نقاط التفتيش فيها أكثر من سيارة شرطة، وكل المنافذ بها ما لا يقل عن سيارتين. عند قرية بني جمرة، وعلى امتداد الشارع، انتشرت سيارات الشرطة لمنع الناس من الخروج من بني جمرة إلى الدراز. بدأ الناس بالتجمع قرب أسواق رويان، وبدأ تهديد الشرطة لهم بالسلاح. دخلت إلى باربار من جنوسان متجهاً نحو الساب الفاصل بين الدراز وباربار. كانت المرة الأولى التي أستخدم فيها هذا المدخل، لذلك، وقفتُ أنتظر أحد الإخوة الذي سيكون مرشدي للطريق. تجمعنا، وكنا قرابة خمسة أشخاص، حتى دخلنا في الساب.

وصلنا إلى أطراف الدراز وكانت الطائرة تحوم فوق رؤوسنا، فتوقعت أن تأتي دورية لاعتقالنا أو أن يُغلق المدخل خلفنا. سبقني الإخوة بمسافة. سلكتُ طريقاً فرعياً لتجنب الطريق العام، فرأيتُ مجموعة بينهم شخص أعرفه. أخذنا بالسيارة إلى النقطة الأقرب إلى منزل الشيخ. كان كل شيء كان قد انتهى تقريباً، لكن الناس كانوا متجمهرين وغاضبين. تم إغلاق الشوارع القريبة من منزل الشيخ تحسباً لأي عودة. كان عدد المتواجدين في الساحة كبيراً جداً، بين رجال ونساء. الجميع اعتقدوا أن هذا الهجوم لأخذ الشيخ وفض الاعتصام، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها الكثير من الأشخاص.

رُفع أذان الظهر، وأقيمت صلاة الظهرين جماعة، فيما كان الناس لا يزالون يحاولون الدخول من خلال بني جمرة. استمرت المواجهات وواصلت القوات إطلاق الغاز المسيل للدموع. بعد الانتهاء من الصلاة، مدّ الإخوة السمات وتم توزيع وجبة الغداء. لم يكن منا أحد يتصور أن الكمية المعتادة، التي يتم إعدادها للشباب المتواجدين كل يوم، ستكون كافية لكل هذا العدد الجميل من الحضور الذين توافدوا إلى الساحة ذلك اليوم، لكن، والحمد لله، لم يكن هناك أي نقص.

استمر احتشاد الناس حتى الليل، وانطلقت دعوات علمائية بالنزول إلى الشارع بكل سلمية. وحصل تحشيد قوي من أجل مسيرة بقرب منزل الشيخ. انطلقت المسيرة المهيبة استنكاراً للهجوم الغاشم. كانت هذه المسيرة الأطول والأقوى على مدى شهور من الاعتصام. ولم يكن بإمكان الكاميرات إظهار حجمها ووضخاتها.

اليوم 187: ورشة «جاين لمطلوبين»!

إنه يوم الجمعة؛ اليوم المقرر لعقد ورش فكرية. عنوان الجلسة هو: «جاين لمطلوبين؟» تقرر بعد اقتحام القوات للساحة قبل أيام. كانت الجلسة بمثابة مراجعة لما حدث: ما سبب دخولهم؟ لماذا وصلوا إلى الساحة مباشرة بعد دخولهم من دون تأخير؟ كيف يمكن إيجاد حلول لتلافي دخولهم بهذه السرعة؟

كان من المفترض عرض مقطع مصور ثم تحليله، لكن أغلب المقاطع نُشرت والحدث ما زال طازجاً، فلم يكن هناك حاجة لذلك. بدأ الإخوة بتقدير سبب الدخول، وتباينت الآراء: أخذ الشيخ. استفزاز. جسّ نبض. محاولة معرفة ماذا يوجد ومن يوجد... وغير ذلك من التحليلات. بعدها دار النقاش حول كيفية وصولهم بسرعة، من دون أي اعتراض، فكانت فكرة الحواجز.

تم طرح عدد من الأفكار العملية والفاعلة. تم اقتراح أن تؤخذ عمليات الرصد لأي تحركات مريبة خارج المنطقة على محمل الجد، وعمل شبكة بين المرابطين للإخبار بأي تحركات مريبة ودعوتهم لأن يكونوا على أهبة الاستعداد، وكذلك وضع الحواجز في الطرقات القريبة من منزل الشيخ.

الليلة 188: زيارات ميدانية

هذه الليلة وبعد الانتهاء من الختمة القرآنية، قام الإخوة بزيارة أحد جيران الشيخ الذي فتح بيته للمعتصمين، وذلك للاطمئنان على صحته إثر وعكة صحية ألمّت به.

بعدها، اتجهنا لزيارة المنزل الذي تم اقتحامه يوم أمس بحجة المطلوبين، وذلك للاطمئنان على وضع العائلة. استقبلنا صاحب

المنزل استقبلاً حاراً، وسأله الإخوة عن تفاصيل ما حدث، فكان يكرر: «الحمد لله، أهم شي الشيخ.. الشيخ أولاً».

اليوم 188: الفطور المميز

أحد الإخوة الذين يعدّون وجبة الإفطار أخبر أحد المشاركين في شعيرة المشي صباحاً: «الريوق اليوم كباب». قال الآخر: «لم أعره اهتماماً، فماذا سيكون غير الكباب البحريني الذي يحضّر بالقلي في الدهن؟»

انتهت قراءة دعاء العهد، ثم دعاء الصباح. كان الإخوة في المضيف يجهّزون المكان ويرتبون الطاولات والكراسي على غير العادة، إذ كانوا عادة يضعون السفرة على الأرض. أنهينا قراءة الدعاء وإذا بالإخوة ينادون: «حياكم حياكم الريوق». كانت هناك رائحة مميزة.. إنها رائحة الشواء والكباب الشهية.. تفاجأ الجميع بمنقل الفحم والدخان وشواء الكباب مع الطماطم. وكأنهم أرادوا مكافأة المرابطين بعد الهجوم الغاشم، فإذا بالشباب ينسلون من شعيرة المشي ويتوجّهون إلى شعيرة الريوق. كانت من الوجبات المميزة التي لا تُنسى.

الليلة 191: عرس في الساحة!

قرّر أحد الشباب المرابطين عقد قرانه في وسط الساحة. أرسل دعوات الحضور للشباب لحضور حفل عقد قرانه. فكان تجمّع الإخوة في تلك الليلة على غير العادة. جهّز له الشباب باقة (ورد الفداء) مهنيين، ومتمنين له حياة سعيدة.

وعلى الرغم من أن التصوير كان ممنوعاً في الساحة، لكن في تلك الليلة سُمح للجميع بالتصوير مع (المعرس)، فقاموا بأخذ

الصور والسيلفي والفيديو. كان الشباب في كل صورة جماعية يحملون العريس فوق أكتافهم ويزفونه في المآتم ثم يرجعونه للمنصة مرة أخرى. ساد جوُّ من الفرح والمتعة والمرح.

اليوم 195: إطلاق رصاص

إنه فجر الليلة الأولى من العام الجديد 2017. الساعة حوالي الثانية فجراً. الإخوة بين نائم وساهر. كنت نائماً بالقرب من نافذة المجلس المفتوحة، سمعت صوت طلقتين اخترقتا حلمي. لحظات، وإذا بالإخوة يكبرون. قمنا فزعين وخرجنا نبحت عنهم، لا وجود لهم. لم تكن المرة الأولى التي يتم فيها الهجوم وإطلاق طلقتين من الرصاص ثم الهرب. تكرر ذلك قبل أسبوع. لم نعلم نواياهم من وراء ذلك. كل ما أعرفه أن نفس الإخوة طويل. توجهنا إلى الله عز وجل نسأله أن يجعل هذا العام عام فرج.

الليلة 200: وفاء وفداء

كان قد مرّ 200 يوم على حصار الدراز والمرابطة. انطلقت حملة إلكترونية تحت شعار 200 يوم حصار. وتم النشر عن معاناة الناس لما يحصل في الدراز وسط صمت المجتمع الدولي.

مائتا يوم والدراز محاصرة، ويمنع دخول المواد الغذائية ومياه الشرب إليها بشكل طبيعي. الإنترنت كان يُقطع فيها من الليل حتى الفجر. أكثر من عشرين مدخلاً أغلقوا بحواجز إسمتية وأسلاك شائكة.

صادف هذا اليوم أيضاً محاكمة الشيخ، وانتهت بتأجيلها إلى 30 يناير/ كانون الثاني للمرافعة النهائية. انطلقت مسيرة حاشدة جابت منطقة الدراز، ونددت بهذه المحاكمة الباطلة.

اليوم 210: إعدام وطن

يوم 14 يناير/ كانون الثاني، تم استدعاء عوائل المحكومين بالإعدام (الشهيد عباس السميع والشهيد سامي المشيمع والشهيد علي السنكيس) في زيارة من غير موعد مسبق. تزامن مع توارد أنباء عن نيّة السلطات تنفيذ حكم الإعدام. انطلقت المسيرات الاحتجاجية الغاضبة.

في 15 يناير/ كانون الثاني، تم تنفيذ الحكم بحقهم. انطلقت مسيرة غاضبة من ساحة الفداء في الدراز واتجهت إلى الشارع العام، وقوبلت بالقمع. فعاد الشباب المتحمسون إلى الساحة وحصلت مواجهات ولاحتقتهم قوات الأمن. كانت عودة الشباب خطأً كبيراً يمكن أن يجرّ المواجهات إلى بيت الشيخ ويعرّضه للخطر.

ذهبت في اليوم التالي إلى الدراز. انطلقت مسيرة غاضبة من الساحة إلى دوار الشهيد فاضل، وكان الاتفاق بأن تكون أي مواجهات عند الدوار، بعيداً عن منزل الشيخ. وصلت المسيرة إلى نهايتها، فتم إيقاف الصوتيات. بقينا دقائق لم نتقدم كثيراً، حتى بدأ إطلاق النار. وفجأة صار الشباب يركضون. صرخ أحدهم: «من لا يستطيع الركض، فليتجه إلى اليمين». دخلت في أول مخرج، وتفاجأت أنه لا يوجد أحد أمامي، وأني أمام شارع مفتوح. نظرت إلى الخلف، فرأيت بعض الإخوة واطمأن قلبي. وصلنا إلى منطقة قريبة من الساحة وهدأت أنفاسنا. تبين لاحقاً أن هناك إصابات في صفوف الشباب.

الليلة 217: قاعدين

في هذه الليلة أطلق الإخوة فعالية «قاعدين»، وهي جلسة ليلية تحوي برامج متنوعة ثقافية ودينية في خلال الأسبوع. تكون مدتها 20 إلى 30 دقيقة، وتضم فقرتين إلى ثلاث. عرّفنا الإخوة على هذه الفعالية وأهدافها وماهيتها.

اليوم 221: هجوم دموي

صادف يوم الخميس 26 يناير/ كانون الثاني 2017، يوم الخميس الأخير في الشهر العربي، ومن صامه، فكأنما صام الدهر حسب الروايات. استعد الشباب لهذه الشعيرة بحصر العدد من أجل ترتيب وجبة السحور، وكان الموعد المتفق عليه عند الرابعة فجرًا.

انتبهتُ من نومي قرابة الثانية فجرًا، وكأن شيئًا أبْقَظني. كنتُ أريد معرفة الوقت من أجل السحور. تكاسلتُ حتى أتى شخص يبحث عن غطاء بالقرب مني، فطلبت منه أن يطفىء النور. أردت العودة إلى النوم، لا أعلم كم مضى من الوقت، لكنني لم أدخل في نوم عميق، وإذ بي أسمع أصوات طلقات نارية في الأرجاء. بخلاف المرات السابقة، كانت الطلقات هذه المرة متواصلة. قمتُ فرعًا، لا أعلم كم عدد الأشخاص الذين معي في المجلس. صرختُ بهم: «هجموا هجموا». قفز الجميع وخرجوا مسرعين قبلي، وبعناية إلهية مر الشباب أمام القوات ولم يطلقوا عليهم. لكن ما إن تقدمتُ من الباب حتى رأيت أمامي شخصًا ملثمًا بلباس أسود بالكامل، ظننتُ في بادئ الأمر أحد الشباب، لكنه رفع سلاحه في وجهي صارخًا: «ارجع داخل». كانت المرة الأولى التي أكون فيها بمثل هذه المسافة أمامهم. رجعتُ وكان

خلفني شاب آخر، وأغلقتنا باب المجلس. لم أعلم ما الذي كان يتوجب عليّ فعله في تلك اللحظة، أخذت هاتفي وبدأت بإرسال (برودكاست) للإخوة: «الساعة 2:39 فجرأ دخلوا». لم يستجب إلا شخصان، فالغالبية كانوا نيامًا في ذلك الوقت، وهل تأتي خفافيش الظلام في وقت غير هذا؟

أحدهم من الصدمة كتب لي: «إحلللف!!» وقال إنه سيقوم بتغيير ملابسه ويأتي. كنت أراقب من النافذة، وفي الوقت ذاته، أتواصل مع الإخوة. وأسمع أصوات الطلقات وصوت الشوزن تحديدًا، وكان الشباب يواجهون في الخارج. دقائق وإذ بهم يحملون شابًا مصابًا (عرفنا لاحقًا أنه الشهيد مصطفى حمدان الذي تلقى رصاصة في رأسه). كان واضحًا من صراخ الشباب أن إصابته بليغة.

القوات، التي ترتدي ثيابًا سوداء مدنية وتحمل الأسلحة، اعتقلت أحد الشباب، وفرت متراجعة.

رأيت دماء الشهيد على طول الشارع من أوله حتى وصلوا به. كان ينزف بشدة وكان وجهه غارقًا في الدم. نقلوه إلى سيارة أحد الأشخاص الذي لم أتوقع أن يكون بهذه الشجاعة، وكان هناك خلاف: «هل يذهب معه أخوه أم لا؟» كانوا يخشون أن يتم اعتقاله. انطلق صاحب السيارة مسرعًا بالمصاب، تاركًا نقاشهم.

استنفر أهالي الدراز، فنزلوا إلى الساحة. كان هناك إصابات أخرى بالشوزن في صفوف الشباب. احتشد الجميع في الساحة وارتفعت التكبيرات في مكبرات الصوت. بعد فترة وجيزة، هداً الوضع فصرنا نسأل: «كيف وصلوا؟» فقال الأخوة إن قرابة 8

سيارات مدنية وباصًا وقفوا أمام الساحة ونزلوا بأسلحتهم. كان هناك بعض الأخوة يجلسون في خيمة على الشارع، عندما رأوهم اعتقدوا أنهم أشخاص عاديون، حتى تفاجؤوا برفع الأسلحة، فركض الشباب يكبرون باتجاه الساحة، وربما لولا تكبير الأخوة، لدخل هؤلاء من دون أن يلحظهم أحد.

لم تستطع سياراتهم تجاوز الحواجز التي وضعها الشباب، لذلك نزلوا مشيًا. توجهوا إلى البيت، الذي سبق لهم اقتحامه، مرّة أخرى وقاموا بتكسير الأبواب وأخذوا ابن صاحب المنزل وانسحبوا. أثناء انسحابهم، كانوا يطلقون النار لتغطية بعضهم البعض، فهبّ الإخوة عليهم. في هذه الأثناء، كان هناك من ينتظرهم قرب سياراتهم. أطلق أولئك النار، فأصيب مصطفى، وسقط على الفور.

استمرت التكبيرات وفُرِعت الطبول وسط الساحة حتى قرابة الساعة الثالثة والنصف. عندها سمعنا أن المدرعات تحركت وأن هناك حركة من قبل القوات. توزّع الشباب على جميع المداخل، وجمعوا ما استطاعوا من أدوات مشروعة للدفاع، ولكنهم لم يأتوا.

التنديد بالهجوم

في ذلك اليوم، لم نوفق لإحياء شعيرة صوم الدهر، فقد كان الوضع مربكًا ومتوترًا. مازحني أحد الشباب الذين طلب مني إيقاظه لوجبة السحور: «هذا السحور مالك اللي قعدتنا ليه؟»

رُفع أذان الفجر، وامتألت الساحة (تقريبًا ثلاثة صفوف من المصلين). كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا العدد في فريضة

الصباح، وأقيمت الصلاة، وبعدها دعاء العهد. ثم انطلقت مسيرة حاشدة غاضبة تنديداً بهذا الهجوم الغادر. استمرت المسيرات الغاضبة بعد صلاة الظهرين المركزية وفي الليل.

ذهبت إلى العمل صباحاً، وكان أحد الموظفين يحدثني عن الهجوم، فكنتُ أظاهر بأنّي أسمع عنه لتوي. استأذنتُ من العمل، وذهبتُ إلى المستشفى، فقد شعرتُ بالمرض بسبب البرد الذي تعرّضنا له وقلة النوم. عدتُ إلى المنزل ولم يكن أحد هناك، انتظرتُ حتى وصلت والدتي، فسلمتُ عليها وجلسنا نتحدث عن تلك الليلة. وعندما رويت لها الموقف الذي ترك الرهبة في نفسي، صارت تضحك عليّ، وقد رفع من معنوياتي بعض الشيء، معرفة أن والدتي مسلمة بالأمر. ودعتها وطلبت منها الدعاء لي بالتيسير في الدخول، حين وصلت إلى النقطة حاولت أن أريه رخصة القيادة، وكأني من أهل المنطقة، كان سينطق أنني لست من هذه المنطقة، لكنه قال لي: «حياك». لم أستغرب الأمر، فدعاء الأمهات لا يرد.

الأيام 224 – 222: طوفان بشري

يوم الجمعة، وبعد الهجوم الأخير، انتشر بيان باسم علماء البحرين يدعو أبناء هذا الشعب إلى الدفاع عن الشيخ حتى الموت وأعلن أنها ساعة الصفر. تم التحشيد لانطلاق مسيرات الأكفان في 29 يناير/ كانون الثاني في البحرين كلّها عشية محاكمة الشيخ. استمرت المسيرات بالقرب من منزل القائد حتى تلك الليلة.

منذ اليوم التالي، بدأ الإخوة بتفعيل نقاط المراقبة في جميع

الطرق المؤدية إلى الساحة تفاديًا لما حصل في تلك الليلة من دخول لم يلحظه أحد.

خرجتُ يوم السبت لإنهاء بعض الأعمال في المنزل وجلب ملابس. وكنتُ في صراع داخلي، بين أن أراجع بعد ما رأيته في تلك الليلة، وأني لا أستطيع فعل شيء بسبب وضعي الصحي. قلت في نفسي إنني سأندرع بإنهاء بعض الأمور غير المهمة، لكنني تغلبت على ذلك الخوف وحسمتُ تردددي.

كان الوعد هو ليلة الإثنين، ليلة محاكمة الشيخ. خرجت من العمل باكراً، ووُفِّقْتُ إلى الدخول مع الحشود. كان العدد ملحوظاً، وكان هناك وجوه جديدة وتزايد كبير في الحضور. أقيمت صلاة المغرب، وكان العدد يفوق استعدادنا، بحيث اضطروا لجلب سجاد إضافي، وأتوا به من كل مكان.

قبل الصلاة، وزَّعت الأكفان تلبية لنداء العلماء، فتلونت الصفوف الأولى باللون الأبيض. ارتدينا الأكفان، وكانت صلاة مهيبة لها طابع خاص من الروحانية، أحببتُ أن أسميها صلاة العشق. صليت فرض العشاء فرادى حتى أذهب إلى نوبة مراقبتي، ويستطيع بقية الشباب الالتحاق بالصلاة.

عند الساعة الثامنة، انطلقت المسيرة الحاشدة بصوت مزلزل ومدوّ. حتى نحن صُدمنا من ضخامة المسيرة وهيبتها. الجميع لبسوا الأكفان وحملوا أرواحهم على راحتهم. لم تكف السَّماعات لهذا الطوفان البشري، حيث طوّقت هذه المسيرة المحيط الخارجي لمنزل آية الله الشيخ عيسى. أخبرنا الإخوة أن

المسيرة تحركت في بدايتها، والحشود لم تتحرك بعد من الساحة. كانت المسيرة الأضخم والأكبر عددًا طوال فترة الاعتصام.

اليوم 242: قوة شباط الراحدة

ذكرت صفحة (بحرين ويذر) الخاصة بالطقس، أنه ستكون قوة أمطار شباط الراحدة يوم الخميس، وستستمر حتى الجمعة. كانت هناك أمطار متفرقة عصرًا، لكن بعد صلاة العشاءين، بدأ المطر يهطل بكثافة ومن دون توقف.

عند قدومي إلى الدراز، أحضرت مظلة معي تحسبًا. وصلت إلى مدخل المرخ، واتصلت بأحد الإخوة ووقفت أنتظره. وما إن نزلت من السيارة، حتى ازداد هطول الأمطار. فتحت مظلتي ومشيت، مررت أمام سيارة شرطة؛ عادة أمشي بعيدًا عنها، ولكن لقوة المطر تلك الليلة، لم يكونوا لينزلوا من سياراتهم. وصلت إلى سيارة صديقي، وكان يقف وسط بركة ماء. اضطررت لعبورها، وتبللت قدمي. أخذني إلى الساحة حيث كان دوري في المراقبة مع عدد من الشباب. لم يكن هناك مكان يحميننا من المطر، وقفنا في تلك الليلة وسط حمّام من كثيف من المطر حتى انتهى وقت نوبتنا، وسلمناها لمن بعدنا. كنّا ننتظر انتهاء نوبتنا على أحرّ من الجمر.

الليلة 250: النوبة

ذهبت إلى الشباب الذين اعتدّ الجلوس معهم قبل تفعيل النوبات. كانت هناك مجموعة من أهالي المنطقة ومن خارجها بمقام آبائنا، وكانوا يأتون لنا بالشاي والحليب وبعض المأكولات الخفيفة من بلايط ومكسرات وغيرها. في البداية كانوا يرون

أننا مجموعة فيشاركونا وجباتهم، أما لاحقاً، فصرتُ أذهب إليهم بقولي: «لا تخرجونا يا جماعة» وأخذ منهم المكتوب من الوجبات وكذلك حافظة الشاي بكاملها وأعود بها إلى الشباب بكل مرح ودون حرج.

الجميل في يوم الجمعة هذا أنه تم تفعيل شعيرة الرمان من جديد، بعد أن توقفت أغلب الشعائر، وذلك بسبب الانشغال بتفعيل النوبات والتركيز عليها.

كريم علي:

في المضائف والطبخ وإدخال المؤونة إلى الساحة

كُنَّا في شهر رمضان، لا بد من توفير وجبتي الإفطار والسحور. في بادئ الأمر، تكفل أحد مطابخ الدراز بتوفير الوجبات، وساهم الأهالي بأصناف مختلفة يحضرونها بشكل يومي من بيوتهم. لاحقاً، تم استدعاء صاحب ذلك المطبخ وتعرض للتوقيف، فلم يكن باستطاعته المواصلة، وبالطبع، لم يكن ممكناً الاعتماد على مساهمات الأهالي بشكل رئيس، فكان على الشباب أن يتدبروا أمرهم بأنفسهم، وكان أن بدأنا بتشيد المضيفات منذ الشهر الخامس للاعتصام.

الحافلة المنقذة

أنا من خارج الدراز، لكنني كنت أحضر إلى الاعتصام كل يوم، وأستطيع الدخول والخروج دون معوقات. فلديّ ترخيص يسمح بالمرور عبر نقاط التفتيش المنتشرة على المداخل الرئيسة، والسبب أنّه لديّ حافلة لتوصيل الطالبات، أخذ الطالبات صباحاً من الدراز إلى مدارسهن في الخارج، ثم أذهب إلى سوق السمك للعمل مع والدي، وعندما ينتهي الدوام المدرسي، أعيد الطالبات إلى الدراز، وأبقى هناك حتى صباح اليوم التالي. وهكذا، لم أعان مثل الشباب الآخرين، من خارج الدراز، الذين كانوا مضطرين للدخول والخروج عبر مسالك شاقة ومداخل ملتوية.

بشكل يومي، كُنَّا نحتاج لإحضار مؤونة من الخارج وحاجات

أخرى، والأمر صعب مع وضع الحصار. معظم الشباب الذين يعملون في المضيف لم يتمكنوا من الخروج والدخول بسهولة لأنهم من خارج الدراز، وبشكل عام، تولى شباب الدراز أمر إحصار الحاجات، إذ كان بإمكانهم التحرك عبر نقاط التفتيش بسهولة، وكنت أنا أيضًا ممن يحضرون الاحتياجات. كنت أمرها في الحافلة، وكان وضعي مناسبًا للقيام بذلك، وبالطبع، لم يخل الأمر من المخاطرة.

كانت وظيفة القوات عند نقاط التفتيش التأكد من هويات الداخلين أو تصريحاتهم، لكن هناك شرطياً كان مترصداً وحادقاً أكثر من الآخرين. كنتُ أضع المؤونة والحاجات تحت كراسي الحافلة، وفي ذلك اليوم، فتح هذا الشرطي الباب وبدأ بالتفتيش. عندما شاهد المؤونة، سألتني: «إلى أين تأخذ هذه الحاجات كلها؟» قلت له وقد صادفت مناسبة وفاة أحد الأئمة ليلتها: «إنها لبيت أختي تقوم بالطبخ للمأتم»، لكنه رفض إدخالها.

ابتعدت عنه، ثم توجهت إلى نقطة تفتيش أخرى وعبرْتُ من دون مشاكل. أنزلتُ الحمولة في الساحة وهممت بمغادرة المنطقة، وبعد أن قطعت مسافة قصيرة تفاجأت به يلاحقني في سيارة مدنية، كان يريد التأكد من أنني لن أذهب إلى الاعتصام، وعندما شاهدني أتوجه نحو الخارج تركني.

كان قد وصلني قبل ذلك استدعاء لمركز الشرطة للتحقيق معي بخصوص الحافلة. كان استدعاءً فورياً، لكنني ذهبتُ إليهم في اليوم التالي، لم يكن الضابط الذي طلب استدعائي موجوداً،

ولم يكن هناك أحد يعرف سبب الاستدعاء، وليس هناك ما هو مسجل علي، ولا سوابق لي، لذلك تركوني أغادر.

وجبات الساحة

كنا نطبخ في اليوم أكثر من ثلاث وجبات. كان لدينا شباب يسهرون عند نقاط الحراسة، وهؤلاء توفر لهم وجبة إضافية أيضًا. في شهري رجب وشعبان، يصوم عدد كبير من الشباب، فيكون علينا توفير الوجبات الثلاث بشكل يومي، بالإضافة إلى وجبة السحور للصائمين. كان هذا وضعنا عند حصول الاقتحام الأخير للساحة، وفُضّ الاعتصام بالقوة في شهر شعبان.

كنا نطبخ كمية كبيرة يوميًا، بالقدر الذي نتوقع أن يغطي حاجة المتواجدين من خارج الدراز. شباب الدراز كانوا غالبًا يذهبون إلى تناول الوجبات في بيوتهم لكي لا ينقص الطعام عن الآخرين، والبعض كان يطلب وجبات من المطاعم القريبة.

الشهداء كانوا دائمًا فاعلين في المضيف. الشهيد محمد العكري كان مميزًا في العمل معنا وفي توزيع الطعام على المعتصمين، كذلك الشهيد محمد حمدان، أما الشهيد أحمد العصفور فكان يتواجد دائمًا في المضيف أو البيت الذي فيه المضيف، على الرغم من التزامه بعمله في أحد البنوك، كذلك الشهيد محمد كاظم، كلاهما كانا يعملان في وظائف جيدة وبراتب مغرٍ، لكن ذلك لم يكن ليحول دون تواجدهم وتضحياتهم. أحد الشباب كان يعمل في شركة ألبا وكان راتبه جيدًا، لكنه ضحّى به من أجل المشاركة في الاعتصام، والآن هو يعمل في سوق السمك مع والده، ومع ذلك لا يشعر بالندم أو الخسارة.

عنفوان الشهداء

في يوم الهجوم الأخير، روى الشهداء حكاية عنفوان لا يقدرُ عليها إلا من اختاره الله. عندما اقتحمت القوات المنطقة المحيطة ببيت الشيخ، أي ما بعد الصبيات الإسمتية التي تحيط ببيته، كنا لتونا قد أنهينا صلاة الظهر. كُنّا محصورين في منطقة صغيرة، وكنا قرابة مائة شاب. لم يكن لدينا شيء نواجه القوات به إلا أجسادنا والحجارة. أمرونا بالجلوس على الأرض، وهددوا بأنهم سيطلقون النار على من لا يجلس. كانت مسافة مترين تفصل بيني وبين الشهيد محمد حمدان، لم يكثرث للتهديد وهمّ بمواجهة القوات التي لم تتردد عن رميه فوراً بالرصاص عن قرب جهة البطن والخاصرة. جلس الجميع، إلا الشهيد محمد العسكري ظل واقفاً عند باب بيت الشيخ، بيني وبينه مسافة متر ونصف، لم يصغ لتهديد القوات بالجلوس، ولم يرمش له جفن. اقترب منه الشرطي ووجه له طلقة مباشرة أردته شهيداً على الفور. شكّل هذا المشهد صدمة كبيرة عند الشباب، الكل لا يصدق ما يراه من القتل بدم بارد إلى هذا الحد.

تم اعتقاله من عند بيت الشيخ ضمن أكثر من 300 شخص⁽¹⁾. كانوا يمررون كل من يتم إخراجه بين صفين من القوات تتلقاها بالضرب بالهراوات والعصي والركل بالأحذية الغليظة، ثم يتم تقييد يدك بـ (الهفكري) من الخلف قبل أن يجلسوك على الأرض

(1) تم اعتقال أكثر من 300 بحريني خلال عملية فض الاعتصام، بعد 8 أشهر من الاعتقال أفرج عن 171 منهم بكفالة مالية قدرها 200 دينار بحريني (ما يعادل أكثر من \$500) مع استمرار المحاكمة، فيما استمر حبس الباقيين بتهم مختلفة.

دون حراك. سألني بعدها الضابط المسؤول عن بهشتي⁽¹⁾، قلت: «لا أعرفه»، فصار يضر بني أكثر، ويقول: «كيف لا تعرفه؟ لا أحد لا يعرف بهشتي». في هذه الأثناء، تعرف أحدهم على الشاب الملقب بدعبس⁽²⁾ بين الشباب، فتركوني وتراكموا نحوه كأنهم أصابوا صيداً عظيماً. كانوا يصرخون بتفاخر وفي حالة من الفرح الغامر: «صدنا دعبس.. هذي محكوم 130 سنة». تكالبوا عليه وكأنه غنيمة كبيرة وخطيرة.

الاعتقال والمحاكمة

كنت أرتدي كفنّاً أبيض ونظارة واقية من الغاز المسيل للدموع. عندما همّوا بإيقافنا لنقلنا عبر الباصات، اعتدى علي أحدهم وضربني بفأس على ظهري. لديهم تصوير لهذا الاعتداء. خلال التحقيق معي، أراني إياه الضابط؛ عرض عليّ الفيديو وسألني: «من هذا؟» قلت: «هذا أنا». وظل يسألني عن هذه الضربة محاولاً تليفق تهمة لي بأني قمت بالاعتداء على رجل الأمن، وأنه أخذ الفأس من يدي وضربني به. وقال لي: «سيكشف الطبيب الشرعي لنا كل شيء».

بقينا معتقلين لمدة ستة أشهر قبل أن يتم تقديمنا للمحاكمة

(1) اللقب الذي اشتهر به أحد أكثر المطلوبين عند الداخلية، لم تتمكن القوات الأمنية من إلقاء القبض عليه خلال عملية فض الاعتصام الدموي، بقي متخفياً لفترة ثم تمكن من الفرار خارج البحرين.

(2) اسمه محمد العجمي، وهو أحد المطلوبين من قبل السلطة على خلفية سياسية وهو محكوم غيابياً بالسجن لأكثر من 130 عاماً قبل الاعتصام، ألقي القبض عليه خلال عملية فض الاعتصام في 23 مايو/ أيار 2017. في أغسطس/ آب من العام نفسه، قالت عائلته إن ابنها محروم من العلاج داخل السجن جرّاء إصابته بحساسية شديدة في عينه اليمنى، بسبب بقائه مصمّداً العينين في مبنى التحقيقات لمدة 42 يوماً، كما أصيب برصاص الشوزن في أنحاء مختلفة من جسده أثناء فض الاعتصام. وذكرت أنه عقب اعتقاله بقي أكثر من شهر في مبنى التحقيقات، ثم أخرج منه ونُقل إلى سجن جوّ في 3 يوليو/ تمّوز.

وتوجيه التهم إلينا، أُخلي سبيل 171 شاباً بعد توقيفهم لثمانية أشهر بكفالة مالية قدرها 200 دينار لكل واحد مع استمرار المحاكمة. صدرت الأحكام بعد حوالي عام كامل. حُكِم علي بالسجن لمدة 10 سنوات بتهم منها التجمهر وحيازة أسلحة والاعتداء على رجال الأمن، لم أكن مطلوباً سياسياً، ولم يكن لديّ سوابق معهم. بدا وكأن الأحكام اختيرت بالقرعة؛ تم توزيع التهم على الأسماء جزافاً، كذلك الأحكام. ما إن سمعت الحكم، حتى قررت الفرار خارج البحرين. صدر الحكم صباحاً وغادرت البحرين في مساء اليوم نفسه قبل أن يتم تعميم أسمائنا على المطار ومنافذ الدخول والخروج.

في ذلك اليوم، بقينا جالسين على الأرض لساعات طويلة وأيدينا موثقة إلى الخلف، ثم أركبونا حافلات لنقلنا إلى التحقيقات. كانت الحافلات ضيقة، وكان جلوسنا متعباً خاصة مع أيدينا الموثقة إلى الخلف. تسبب ذلك بضغط شديد على أيدينا، فكلما طلب منهم أحد من الشباب تعديل الهفكري لتخفيف الضغط على اليد، قاموا بضرب جميع من في الباص. كنت أتألم كثيراً وأخشى أن أتكلم، فأكون السبب وراء ضرب الشباب في الباص. في هذه الأثناء، تذكرت الإمام موسى الكاظم (ع) وهو مقيّد بالأصفاد، وتوسلت به. كنت متعباً جداً لأنني، وكبقية الشباب، لم أنم الليلة التي قبلها، فأخذتني غفوة ونمت. في الحقيقة لم يكن من الطبيعي أن أتمكن من النوم في الوضع الذي كنت فيه، ومع الألم الذي عانيتُ منه، لكن هذا ما حدث. عندما استيقظت، كان الألم قد خفّ كثيراً.

لا تزال آثار الأصفاد تحزّ معصمي، فحكايتنا معها لم تنتهِ عند

ذلك الحد. حضور جلسات المحاكمة متعب جداً، يتم تقييدنا بالهفكري من الخلف. وبسبب العدد الكبير للمحكومين، نبقي مقيدين طوال اليوم، حتى نشعر أن أيدينا قد تيبست. في المحكمة، وخلف الزجاج الفاصل، يتم إدخالنا على دفعات، عشرة في كل مرة، والقاضي يتلو علينا التهم الموجهة إلينا ونحن ننفي من دون أن نتمكن من سماع ما يقوله بسبب الحاجز. لم يكن مسموحاً لنا بالكلام، ثم يُخرجوننا من باب آخر، ليدخلوا مجموعة ثانية وهكذا. العدد كبير، ولم يتمكن المحامون من الإفاضة في الدفاع.

ابني الذي لم أره إلا يومين

لم يكن أمر التواجد الدائم في الساحة لمدة 11 شهراً أمراً سهلاً أبداً. لا أعتقد أنه، في العالم كله، استمر اعتصام في مكان عام لهذه المدة وفي ظل كل تلك الظروف. الناس لديهم التزامات ومسؤوليات ومشاكل وظروف عمل ودراسة ومعيشة، وخلال هذه المدة شهدنا أوضاعاً مناخية متغيرة بين البرد والحر والشمس والمطر والمناسبات المختلفة. بعض الشباب من داخل الدراز وخارجها لم يتمكنوا من المواصله، ولا ملامة على أحد. كان الحضور يتفاوت بشكل عام، بين التواجد المكثف في أوقات معينة، والتواجد المحدود في أوقات أخرى. لكننا بقينا طوال فترة الاعتصام وتعلقنا به، وصرنا نقدّمه على كل الأشياء الأخرى في حياتنا. عند غيابنا عن الساحة، نشعر أننا لسنا في المكان الصحيح. قلبي وعقلي مع الشباب هناك، ولا أستطيع الانتظار حتى أعود بينهم. كنتُ قد تزوجت خلال هذه الفترة، ومن الطبيعي أن أسافر مع زوجتي لقضاء شهر العسل، لكنني طلبتُ منها أن نؤجل ذلك

وكانت متفهمة، بل هي نفسها تشارك في الاعتصام بين حين وآخر، وتحضر معها عائلتها أيضًا.

أنا الآن خارج بلادي، بلا زوجتي وبلا ابني الذي لم أره سوى يومين بعد ولادته، ولا أعرف المصير الذي ينتظرني أو ينتظر بلدي وعائلي، لكنني لست نادمًا.

الفصل الثالث:

اقتحام الباب الأخير

المصوّر أحمد الماضي:

أطلق الرصاص على يدي وتلظخت الكاميرا بالدم

الهجوم على الساحة لا يشبه أي هجوم آخر. منذ أحداث 2011 وأنا أقوم بتصوير الأحداث وتغطيتها إعلاميًا. كنت حاضراً في الهجوم الغادر الأول على دوار اللؤلؤة وصوّرت الأحداث، وكذلك الأمر في الهجوم الأخير. صوّرت معظم الشهداء وحضرت مراسم تغسيلهم ودفنهم، التقطت صوراً للشهيد عيسى عبد الحسن الذي تم تفجير رأسه، كل هذا قاسٍ ومؤلم جداً، لكن لا شيء في ذاكرتي أقسى من حصار بيت الشيخ والهجوم عليه.

طائراتهم فوق رؤوسنا

منذ اللحظة الأولى لتواجدنا في الساحة، وحتى ساعة فض الاعتصام، كان دوري إعلاميًا. قبل الهجوم بيوم، لاحظنا أن حركة طائرات الهليكوبتر في المنطقة غريبة. فهذه الطائرات كانت، منذ بداية الاعتصام، تحلّق بشكل يومي فوق الساحة، وتدور في محيط المنطقة قرابة الربع ساعة ثم تمضي. لكن في ذلك اليوم، كان الوضع مختلفاً. رصدنا قرابة 24 زيارة لها، أي بمعدل زيارة لكل ساعة خلال اليوم، وفي كل مرة كانت الطائرة تأتي وتدور في محيط الدراز بالكامل، ثم تقف فوق الساحة مباشرة لأكثر من ثلث ساعة. كانت تلك الإشارة الأولى.

عند الساعة الثامنة مساءً، توافدت الأخبار عن تحرك أرتال عسكرية من جهة الطريق السريع إلى مناطق شارع البديع.

دخلت هذه القوات وتمركزت عند بحر الدراز، وتزامن ذلك مع تحركات غربية في محيط المنطقة. قبل ذلك، كان أحد الثقة قد أخبرنا عن معلومات لديه بأنهم يتجهزون لضرب الساحة، وصار الخبر ينتشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي. مرّ بعض الوقت، ثم وصلت أنباء عن وصول شاحنات تحمل أسلاكاً شائكة، ثم تمركز قوات ومدركات في مركز شرطة مقابة، الذي يبعد عن الدراز مسافة 5 دقائق.

بعد انتشار الأخبار على وسائل التواصل الاجتماعي، بدأت دعوات التحشيد للتواجد في الساحة. احتشد أهالي الدراز، وتوافد الناس من كل مكان. ضجّت الساحة بالشباب والرجال والنساء من كل الأعمار. الجميع في حال من الاستنفار والترقب، لا أحد يعلم في أي ساعة سيكون الهجوم، لكن التوقعات كانت أن يحدث فجرًا، كما هي عادة النظام، لذلك لم ينم أحد في تلك الليلة.

كاميرات وصور

راح الشباب يعدّون أنفسهم، بعضهم أغلقوا الشوارع بالحجارة كي يعرقلوا اقتحام المركبات والمدركات، والبعض الآخر راح يعمل على تجميع أشياء دفاعية بسيطة مثل الألواح لاستخدامها كدروع. البعض ارتدى الأكفان، والبعض تموضع في أماكن معينة، وهناك من راح يكتب وصيته، ومن اتّصل بأهله مودعًا. عُقدت جلسات الدعاء والقرآن، وانفرد الشباب بأداء صلاة الليل، وأديرَت حلقات النقاش. كانت أجواء يختلط فيها الحماس بالروحانية، ومن أجمل ما شهدناه في تلك الليلة تصافي كل من

لديه خلاف بسيط مع الآخر، كان كل شخص يعتذر من الآخر ويسأله براءة الذمة.

كنتُ ومجموعة من الشباب الإعلاميين نرصد كل ذلك ونقوم بتصويره. كُنَّا خمسة أشخاص نحمل كاميرات. في يوم الهجوم، تمكنت القوات من الاستيلاء على إحدى هذه الكاميرات الخمس. لدينا بنك من الصور، بعضها نُشر وبعضها لم يُستخدم بعد. نحفظ الكاميرات والمعدات في مكان خاص. التصوير يكون بشكل يومي والحفظ والتنزيل يكون أولاً بأول. تمّ تصوير كل الهجمات التي تعرضت لها الساحة وتغطيتها إعلامياً ونشرها. لا أنام إلا وكاميرتي عند رأسي. وعند أي هجوم، حتى لو كنت نائماً، أهبّ من نومي وكاميرتي في يدي.

مذُ أخليّ سيلي مع الشباب في المرة الأولى بعد سجن الثمانية أشهر الأولى بعد فضّ الاعتصام، لم أعد لمشاهدة الصور والفيديوهات التي التقطتها في اليوم الأخير، غادرتُ البحرين وحتى الآن لم أفعل. الصور التي أتحدث عنها الآن هي من ذاكرتي لا من كاميرتي، ثمة صورة لا تغيب عنها، وهي مشهد توديع الأمهات لأبنائهن عشية الاقتحام.

قضى الجميع تلك الليلة في حالة استنفار وترقب، إلى أن حلّ وقت صلاة الصبح، أديناها جماعة بإمامة أحد الشيوخ المتواجدين معنا، ثم قرأنا «زيارة عاشوراء» و«دعاء الجوشن الصغير» وأدعية أخرى.

الساعة قد حانت

عند الساعة السادسة صباحاً، بدأت تصلنا الأخبار عن تحرك

الأرتال العسكرية من المراكز المجاورة، وأنه تمت إزالة الحواجز الإسمنتية التي وضعتها الداخلية عند مداخل الدراز طوال 11 شهرًا، فتيبن لنا أن الساعة قد حانت.

خرج الشباب إلى الشوارع الرئيسة لمواجهة المدرعات، هناك لقطات لشباب يصعدون فوق المدرعات، كان ذلك في البداية. كان هناك رجال ونساء وشباب من كل الأعمار، وكنتُ أصور ما يحدث. في هذه الأثناء، اقتحمت القوات الدراز من جميع المداخل في وقت واحد، وما إن دخلت القوات، حتى انقطعت شبكة الاتصالات.

بدأ القمع والضرب مباشرة، وحدثت مواجهات مع الشباب. أغرقت القوات المنطقة بالغاز المسيل للدموع، وحدثت حالات كثيرة من الاختناق والإصابات المختلفة بالشوزن وغيره. صمد الشباب لفترة وقاوموا وواجهوا، لكن الاستمرار لم يعد ممكنًا: أنت أعزل غير محصّن، وأمامك أحد خيارين، إما السقوط مختنقًا أو التراجع للخلف.

تراجعنا، وكان الشباب يحتمون بالحوايات والقوات على مسافة قصيرة منهم. لم أتمكن حتى من التصوير، في هذه الأثناء رأيت الشهيد «محمد كاظم» محمولًا، كان مُصابًا بطلقة، وكان الشباب يركضون به نحو الداخل. لم أكن أعرفه كشخص حينها لكن عُرِف بعد استشهاد. ظللنا نراجع ووصلنا إلى مكان قريب من الساحة، ومن خلفنا أرتال عسكرية تشد حصارها علينا والشباب بين كَرْ وفَرْ. بقيت ألتقط الصور لما يدور حولي حتى وصلت لمرحلة من الاختناق لم أعد قادرًا معها على الاستمرار.

دخلتُ إلى أحد البيوت القريبة، وكان آخر من رأيتهم قبل دخولي أمي وأختي، أعتقد أنهما دخلتا إلى أحد البيوت أيضًا.

دخلتُ إلى بيت زين الدين المجاور لبيت الشيخ، كان ممتلئًا بالأطفال والكبار، حالات الاختناق والإصابات كثيرة. الشباب كانوا يحاولون إسعاف الشهيد محمد كاظم. وثقنا إصابته بالصور والفيديوهات ونشرناها عبر وسائل التواصل. وبعد أن استجمعتُ قواي، بحثت عن السلم وصعدت إلى السطح، ورحتُ أصور من خلال فتحة في الجدار.

القوات قد وصلت إلى الساحة، وأعداد كبيرة من النساء والرجال ما زالوا متواجدين رغم مسيلات الدموع. في الساحة، صورتُ من فوق سطح المنزل الفيديو الذي يظهرُ القوات وهي تضرب أحد الرجال الكبار في السن، ومشاهد اقتحام القوات للبيوت وضرب المتجمهرين. في هذه الأثناء لمحني أحدهم، ومباشرة صوّب سلاحه نحوي، وأطلق النار عليّ. أصابني في يدي وتلطخت الكاميرا بالدم.

بعد ذلك، تمت محاصرة البيت الذي كنتُ أتواجد فيه. فلم يكن أمامي إلا القفز من سطح البيت إلى سطح البيت الملاصق له، وهو بيت الشيخ عيسى، ومنه إلى الحوش الذي يتواجد فيه الشباب. قفزتُ من السطح، وتعلقت بأنبوب الماء ومنه صعدت فوق أحد المكيفات، ثم نزلت إلى حوش بيت الشيخ. كان هناك قرابة مائة شاب.

من حوش بيت الشيخ، عدتُ مرة أخرى إلى بيت زين الدين. هناك سور يفصل بين البيتين. كانت هناك أعمال صيانة في هذا

السور، وتوجد فتحة في جانب منه، ومن هذه الفتحة كان الشباب ينتقلون بين البيتين.

القوات تحاصر البيت ولم تقتحمه بعد، والشباب مجتمعون حول الشهيد محمد كاظم في محاولة لإسعافه. أحد الأطباء الشباب كان يحاول إنقاذه، ولما وجدوا أنفسهم عاجزين عن القيام بأي شيء، أخذوا اثنان من الشباب ووضعوه عند باب البيت، أمام قوات الشغب لكي يقوموا بنقله. لكن العناصر، بدلاً من إسعافه، ضربوه وركلوه فيما كان ينازع. كان الشباب يصيحون بهم لينقلوه إلى المستشفى، ولكن دون فائدة. فاردم الشباب، واضطروا إلى معاودة الخروج وسحبه للداخل مرة أخرى. وضعوه على الأرض في المطبخ وحاول المعالج إنقاذه لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة. شهدت شهادته وأنا أصور إصابته القريبة من الرقبة، والدماء تفور منه .

بدأ اقتحام القوات لبيت زين الدين، ففررت مرة أخرى من خلال فتحة السور إلى حوش بيت الشيخ. بقينا في الحوش وكانت القوات تقتحم البيوت المجاورة لبيت الشيخ واحداً تلو الآخر. تم تمشيط المنطقة بالكامل، وكُنّا نسمع بعض أصوات المواجهات من بعيد يقابلها القمع. في هذه الأثناء كنا ما نزال نصور اقتحامات البيوت وتكسير الأبواب.

الشيخ دونه الموت

ارتفع أذان الظهر، وأقمنا الصلاة في حوش بيت الشيخ جماعة بإمامة أحد المشايخ. تحيط بحوش بيت الشيخ حواجز إسمتية رفيعة. كانت القوات تتقدم نحو هذا الحوش وتحاول اقتحام

الحواجز، وقف أحد المرابطين وأخذ السماعة وصاح بالشباب: «الآن ستدخل القوات، لا نريد أن يتراجع أحد، ليبقى الجميع واقفاً ثابتاً، من لا يستطيع الثبات ليجلس من الآن، نحن الآن عند نقطة الصفر، وتسليم الشيخ دونه الموت».

عندها، صار من الضروري أن أدخل إلى بيت الشيخ، وثبت الشباب في الخارج. كنّا عشرة في داخل بيت الشيخ. سعدت إلى السطح ورحتُ أصور الهجوم. اقتحمت القوات الحاجز ودخلت بشكل جنوني، لكن الشباب لم يتراجعوا. احتموا بدروع خشبية طويلة كان قد تم تجهيز أعداد منها، القوات دخلت من كل الاتجاهات وسيطرت على المكان بالكامل.

رأيت بعيني الطلقة التي راح ضحيتها الشهيد أحمد جميل العصفور. هو صديقي وعملنا معاً منذ سنوات في حراسة الشيخ علي سلمان ثم الشيخ عيسى قاسم. كنت أقوم بالتصوير من خلال فتحة في الجدار فأطلقوا النار باتجاهي. أنزلتُ الكاميرا، وعدتُ إلى الداخل، وأخفيتُها قبل أن يقتحموا المكان.

وصلت القوات إلى باب بيت الشيخ، وبدأت تضرب على الباب بآلات وأجهزة متخصصة ارتجّ بها المكان. كان الشيخ عيسى واقفاً في الداخل بكل عنفوان وقوّة، وقلبه على الشباب في الخارج. فتح ابن الشيخ الباب، الشباب المتواجدون مع الشيخ قرروا المواجهة حتى الشهادة، لكن الشيخ رفض ذلك. ثم علمنا أنهم لم يأتوا ليأخذوا الشيخ، فسلّمنا أنفسنا بشكل سلمي. كانت كاميرات الداخلية تصور، فتم إخراجنا بكل احترام، لكن ما أن

أوقفوا التصوير حتى تغيرت المعاملة، ولم نرَ إلا الرفس والركل والكلام البذيء.

وعادت لنا كربلاء

أخرجونا من بيت الشيخ، وأمرونا بالوقوف في مواجهة الحواجز الإسمتية التي تحيط بالبيت، بعد بعض الوقت أمرونا أن نلتفت للخلف ونقابل الحوش. وهنا رأينا المشهد الكربلائي، الشهداء والمصابون ملقون على الأرض ودماؤهم تجري. وعلى الرغم من اصطفاة سيارات الإسعاف على طول الشارع، لم يتم إسعاف أحد من الشهداء أو المصابين. أما بقية الشباب، فكانوا منبطحين على بطونهم والعساكر فوق رؤوسهم في وضع اعتقال.

القوات أماننا لا حدّ لها، الجيش بلباسه والحرس الوطني والشغب والقوات الخاصة، كل القوى الأمنية متواجدة باختلاف تصنيفاتها. تم المرور علينا واحداً تلو الآخر، سألونا عن أسمائنا وأرقامنا الشخصية وكانوا يصوروننا بالفيديو، ثم ساروا بنا في طابور، وأمروا كل واحد بالاستلقاء على بطنه مع مجموعة مختلفة. جاءني أحدهم وسألني: «هل أنت فلان؟» وما إن قلت نعم حتى بدأ بصفعي على وجهي وأسناني وركلي في كل الجهات، ثم ساروا بي. بعد ذلك، جعلوني أجلس على ركبي وجاء أحدهم وسألني: «أين بهشتي؟» (أحد أهم الناشطين المطلوبين والمتواجدين في الدراز)، قلت له: «لا أعرف»، فوقف وركلني بحذائه على وجهي حتى سقطت، ثم حملوني وساروا بي قليلاً، قبل أن يطحوني على بطني فوق الأرض ويقيدوا يديّ من الخلف. بقيت على الأرض قرابة 10 دقائق ثم أخذوني وأركبوني في حافلة بها بعض المطلوبين المعتقلين، نظرت من

النافذة فإذا بمئات الشباب مستلقين على الأرض، على بطونهم، ويتم تقييدهم. سارت بنا الحافلة وتوقفت عند أكثر من بيت، وتم اعتقال البعض قبل أن تنطلق بنا إلى مركز الاعتقال.

يوم الملحمة..

هكذا عشنا اللحظات الأخيرة قبل الهجوم حتى الاعتقال

في ما يلي حوار بين اثنين من الشباب: علي وحسين. قضية معاً 11 شهراً في اعتصام الدراز، ثم ثمانية أشهر في الحبس الاحتياطي. يتذكّران الليلة الأخيرة قبل الهجوم على الدراز في 23 مايو/ أيار 2017، ويقدمان شهادتهما حول ذلك اليوم الصعب الطويل، وكيف عاش كل منهما تفاصيل الاقتحام حتى لحظة اعتقاله ضمن 286 شخصاً آخرين، ونقلهم إلى سجن جو.

كدويّ النحل

علي: كانت جلسة النطق بالحكم في قضية الشيخ عيسى قاسم بتاريخ 21 مايو/ أيار 2017، قبلها، لم نغادر الساحة لمدة أسبوع كامل. بقينا في حالة استنفار وتحشيد. الكثير من الشباب المعتصمين أجّلوا زياراتهم لأهاليهم ومشاغلم لما بعد هذه الجلسة تحسباً لما قد يصدر عنها. بعد تأجيل النطق بالحكم، تنفّس الشباب الصعداء ونظّموا جدول زياراتهم لأهاليهم بحيث يبقى البعض ويذهب البعض الآخر، ثم يعودون، ويذهب آخرون. ذهبتُ لزيارة عائلتي في اليوم التالي أي في 22 مايو/ أيار، وفي الليل تواردت أنباء عن تحركات مريبة في محيط منطقة الدراز، فعدتُ على الفور.

حسين: وصلتُ إلى الساحة عند الساعة العاشرة ليلاً تقريباً،

هناك تفاوت في الأقاليم، وحالة تأهب. استمر الوضع حتى الساعة 12 عند منتصف الليل، بدأت سيارات الشرطة تتوافد بشكل أكبر، المدرعات توجهت ناحية المطافئ وبعضها ناحية الخيالة، وامتلاء الشارع بقوات الأمن. رأيت ذلك بنفسى مع أحد الشباب، الحركة كبيرة ومربية، وعدد السيارات والمدرعات ضخم جدًا، رغم أنه في نقاط التفتيش، لم يكن هناك ما يوحي بأمر ما.

بدأ الخبر ينتشر في الساحة، فأعلنت حالة الطوارئ، تمت الترتيبات والتعديلات بشكل سريع في النقاط والترسانات بحيث تتواجد مجموعات من الشباب عند كل المداخل، وصار على الشباب أن يبقوا جميعًا في الخارج، وليس في داخل البيوت، وأن يلتفتوا أكثر، بحيث تكون المراقبة أشد.

أرسلنا عبر وسائل التواصل المجتمعي دعوة للناس للحضور. كنّا نعتقد أن الهجوم سيحصل عند الثانية فجرًا كما هي عادة النظام. بدأ الناس يتوافدون من الساعة الواحدة تقريبًا، أو بعدها بقليل. استمر هذا الوضع حتى الساعة الثالثة فجرًا.

معنويات الشباب مرتفعة وقد تهيؤوا لأقصى الاحتمالات، احتضن كل واحد الآخر وراح يتسامح منه ويسأله براءة الذمة في حال استشهد أو حدث له شيء، بعض الشباب جهزوا أكفانهم واتصلوا بأهاليهم وطلبوا منهم مسامحتهم، والبعض الآخر أخرجوا الأوراق وبدؤوا كتابة وصاياهم، وكانوا يسألون ما إذا كتب الجميع وصاياهم أم لا، بعضهم سجل وصيته صوتيًا في الواتس أب. وكان لكل هذه الأمور أثر كبير.

وسط هذا الاستنفار، توجّهت مجموعات من الشباب إلى تلاوة القرآن، وصلاة الليل وزيارة عاشوراء، وبعضهم إلى قراءة دعاء أهل الثغور. شعرنا بأننا في ليلة العاشر من محرّم، حتّى أن أحدهم قال: «كدوي نحل أصحاب الإمام الحسين ليلة العاشر من محرّم». هذا المشهد لا يفارق ذاكرتي، وقد أثر فيّ بشكل كبير.

صلاة الفجر شهدت حضورًا خاصًا، كمّا ونوعًا. بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة التي افترشت المكان. عشنا حالة روحانية استثنائية، شعرنا أنها قد تكون الصلاة الأخيرة. البعض يصلون مرتدين أكفانهم. تم توزيع الأدوار؛ البعض يحرسون والبعض الآخر يصلّون. التوجّس كان كبيرًا.

بعد الصلاة، توجهت الحشود لقراءة الأدعية، ظلّ الشباب مرابطين في الخارج حتّى الصباح. الطقس حار ورطب، والبعض تملكهم التعب، فاستلقوا على السجّاد للاستراحة قليلًا، لا للنوم.

القبض على مطلوبين

حسين: ظلّ الوضع هكذا حتّى قرابة الساعة الثامنة صباحًا، عندما نشرت الداخلية خبرًا على حسابها في تويتر مفاده أنها ستقوم بعملية أمنية في الدراز من أجل القبض على مطلوبين أمنيين عند بيت الشيخ عيسى أحمد قاسم.

هكذا تأكد الخبر بشكل قاطع، كان البعض قد غادروا إلى أعمالهم بعد أن انقضى الليل من دون هجوم واعتقدوا أنه لن يحصل شيء، والبعض ذهبوا إلى امتحاناتهم (كانت هناك امتحانات في الجامعة آنذاك). أُطلّقت الدعوات للتواجد عبر وسائل التواصل، وتوافد الناس أكثر، دخل الناس مشيًا، وفي

السيارات التي تمّ ركنها في أقرب نقطة ممكنة. تمّ توزيع الأكفان والأقنعة للحماية من مسيلات الدموع. وبدأت قوات الشغب تتقدم بأعداد كبيرة من كل الجهات وكل المنافذ التي يقف عندها الشباب: من شارع البريد، وجهة المدرسة، وساحة خمدن (خلف بيت الشيخ مقابل مدرسة الدراز الإعدادية للبنات). بدؤوا بإزالة الحواجز الإسمنتية التي وضعها الشباب عند مدخل البريد، وبات واضحاً أنهم سيدخلون من هذه الجهة، وهذا ما حدث.

كانت الساحة تعجّ بالحشود من النساء والرجال، فُرِعت الطبول كي يتواجد الجميع في الخارج. شعرنا بأننا في حرب. دوّت مكبرات الصوت في المكان بالتكبيرات والنداءات لنصرة الفقيه. تقدم بعض الشباب إلى الأمام، بعضهم انتقلوا إلى شارع البريد، لم أكن موجوداً هناك، بل كنتُ أُنقل حول بيت الشيخ، لكنني لم أصل إلى شارع البريد.

في هذه الأثناء، كنت مع الشباب أرّتب بعض الأمور والحاجات من كمّات وأموال أخرى. بقيتُ في الساحة لفترة طويلة، حتى الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف تقريباً، ثم سمعتُ أنهم وصلوا إلى ساحة خمدن، فذهبتُ إلى هناك. كانت القوات راجلة بأعداد كبيرة، وتطلق قنابل مسيلة للدموع بشكل مجنون، والشوزن ينهمر كال مطر. وقعت إصابات كثيرة. القوات تتقدّم والشباب يواجه بكل استبسال. يصرخون: «تقدموا، لا تدعواهم يدخلون». في هذه الأثناء، أنت مجموعة ثانية من القوات الراجلة من جهة المدرسة، وتوجهوا إلى بيت الشيخ.

لم لم نهرب؟

علي: رأيت جزءاً من مشهد البريد أثناء دخول المدرعات. دخلت المدرعات من مدخل البريد بأعداد كبيرة. الشباب وقفوا بأجسادهم كدروع بشرية لمنعها من التقدم، فيما بدأت الفرق بالدخول مشياً على الأقدام من عدة جهات. كان الشباب موزعين على خمس نقاط عند أطراف الساحة ومدخلها. ولوحظ أن فرق الشغب تتقدم من كل جهة فيها نقطة، دخلوها مشياً، وأحاطوا بالساحة من كل الجهات.

انقسمت فرق الشغب الراجلة إلى ثلاث مجموعات: واحدة تحمل الشوزن، وأخرى تحمل الغازات المسيلة للدموع، والثالثة تحمل الرشاشات وهي تسير خلف المجموعتين الأولى والثانية. يبدو أنهم استعدوا لمواجهة أكبر. لم أرَ بنفسى استخدام الرشاشات والرصاص، لكنهم كانوا مستعدين لذلك.

دخلت القوات من عدة جهات باتجاه الساحة مباشرة، ظلوا هناك لوقت طويل يحاولون تفريق المتجمهرين من النساء والرجال. بعض النساء وقفن في وجه المدرعات ببسالة. رأيتُ بنفسى في (حيّ الحيدرية) إحدى النساء وهي تتقدم أمام القوات وتدفع حاوية القمامة في محاولة لإسقاطها، كانت امرأة كبيرة بالسن.

تم إغراق الساحة بالشوزن ومسيلات الدموع بطريقة لا يمكن وصفها. إصابات كثيرة وبليغة واختناقات كبيرة، حتى الأقنعة لم تعد تكفي لحمايتنا من الاختناق. الشوزن يهطل علينا بغزارة، لا يتوقف ولا مفر من الإصابة به، لم ينبج منه إلا من احتمى بقطعة

خشب أو أي شيء اتخذته درعاً. احتميتُ بأحد الشباب الذي اتخذ من قطعة خشبية كبيرة درعاً له، حصل عليها من أحد المباني قيد الإنشاء.

كان هناك خياران عند الشباب، الهروب إلى الخارج، أو التراجع نحو الداخل وصولاً إلى بيت الشيخ. لم يكن الخيار الأول مطروحاً، تراجع الشباب إلى الداخل لحماية بيت الشيخ، وواصلت القوات دخولها من كل الجهات إلى أن أحكمت السيطرة على الساحة وأحاطتها بالكامل. حاول الشباب إنقاذ المصابين ونقلهم إلى البيوت القريبة من بيت الشيخ: بيت زين الدين، والبيت المقابل لبيت الشيخ. البعض بقوا في الساحة، والبعض دخلوا إلى منطقة «الصبيات» أي «فناء بيت الشيخ»، وهي المنطقة التي تقع بين بيت الشيخ والحواجز الإسمتية الضخمة التي أحيط بها لحمايته.

في البداية لم تكن هناك اعتقالات. محاولات تفريق من خلال المسيلات والصراخ والضرب، لكن الشباب لم يتحركوا. وهذا يأخذنا إلى السؤال الذي وصلنا بشكل متكرر؛ لماذا لم تهربوا وقد رأيتم عناصر الشغب يتقدمون ويحكمون حصاركم بهذا الشكل؟ لِمَ لم تهربوا وقد كان لديكم مجال للهرب؟

الجواب هو أننا لم نذهب إلى هناك كي نهرب، ولم نبقَ هناك لمدة 11 شهراً تركنا فيها عوائلنا وأهاليها وقضيناها في الحر والبرد والأوضاع الصعبة كي نهرب في اللحظة الأخيرة، لقد كنّا متواجدين هناك من أجل هذا اليوم وهذه اللحظة. أحد الشباب المطلوبين كان بيننا، وهو محكوم في قضايا عدّة بأحكام طويلة.

نصحناه بالهرب قبل أن يُحكَمَ الحصار لأن وضعه سيكون أصعب منا فيما لو اعتقل، رفض ذلك رفضاً قاطعاً، وقال: «أنا لم آتِ إلى هنا لأهرب». صرنا نهرب باتجاه الداخل، لا الخارج. في الساحة كان خيار الهرب إلى الخارج متاحاً لنا. لكننا هربنا إلى المنطقة التي نعلم أن قوات الشغب ستتجه إليها، وهي بيت الشيخ.

سقوط الشهيد الساري

سقط الشهيد محمد الساري في الخارج، قبل الدخول إلى منطقة الصبيات أو ما نسميه بمحيط بيت الشيخ. في هذه الأثناء، رأيتُ بعيني مشهد سقوط الساري الذي كان ملحمياً ومؤثراً جداً، ولا يمكنني نسيانه أبداً.

كانت أصوات التكبير والطبول عالية جداً، والأجواء حماسية وكأنها حرب، الساحة غارقة تماماً بالغازات المسيلة للدموع. لم نكن نستطيع التنفس أو التحرك، سقطتُ وأربعة من الشباب على بعضنا البعض من شدة الاختناق، كنا نقف خلف أحد الحواجز الإسمتية عند بيت الشيخ، قبل أن نقع مترنحين ونحن نسعل من شدة الاختناق، وأعيننا ميزاب من الدمع. بقينا بعض الوقت على هذه الحال محتمين بالحاجز عن الطلقات، لا نبصر شيئاً أمامنا إلا سحبات الغاز البيضاء التي تغطي المكان بأكمله، بعدها بدأت السحابة تنكشف تدريجياً وهنا رأيت ذلك المشهد المؤثر. كان الشباب قد أعدوا بعض الدروع للحماية من الطلقات، بعضها بلاستيكي وبعضها معدني. رأيت القوات تتقدم في الساحة نحو الحواجز ببطء، ورأيت الشهيد الساري يخرج من وسط سحابة الدخان، وهو يمسك بدرع بلاستيكي طوله قرابة متر ونصف وعرضه متر، يتقدم في وجه القوات بثبات صامد وصامت، ويمدّ

الدرع أمامه بيد واحدة، وكأنه بدرعه يحاول أن يصدّ القوات عن الاستمرار في التقدّم. كان وحيداً. صفوف من القوات المدججة بالسلاح يواجهها فرد واحد لا يحمل معه أكثر من درع بلاستيكي وسط سحببات الغاز الخانقة. مشهد مهيب لا يمكن وصفه ولا تخيّل. إن هي إلا لحظة لا أعرف كيف حدثت، رأيت الدرع يترنّح في يد الساري، كانوا قد أطلقوا النار عليه وأصابوه، لا أعرف كيف حدث هذا، لكن ربما أطلق عليه أحدهم من جانبه، وربما مال درعه فأصابوه، رأيت بعد ذلك يتراجع مترنّحاً، وهم يتقدمون نحوه ويطلقون عليه، ظل الشهيد يرجع بخطواته قرابة خمسة أمتار، حتى انهارت قوّته بالكامل وسقط أرضاً، فتركت القوات ملقى على الأرض وأكملت اقتحامها، وعلى الفور تراكض الشباب نحوه وسحبوه إلى منطقة غير مكشوفة (منطقة البئر) وحاولوا إسعافه، لكن لم يتمكنوا من فعل شيء.

كان الساري يقول دائماً عندما يأتي إلى الساحة: «لم يخترني الله ذاك اليوم (يقصد إصابته الأولى في 2011)، وأتمنى أن تكون شهادتي هنا».

كيوم العاشر

حسين: لم تقطع أصوات التكبير عبر مكبرات الصوت، لم تتوقف أبداً منذ الفجر حتى اللحظة الأخيرة. هذا الأمر تسبب لقوات الشغب بحالة من الجنون: من أين يأتي هذا التكبير؟ وإلى متى التكبير؟ كنت في هذه الأثناء داخل ساحة بيت الشيخ «الفناء»، قبل صلاة الظهر بين الساعة 11 - 11:30. سمعنا أن هناك شهيداً، أو إصابة بليغة جداً لمحمد زين الدين، وأن الطبيب الذي تمّ احضاره له لم يتمكن من فعل شيء لحالته، وقال إنه يجب

إرساله إلى المستشفى. حاول الشباب إخراجه لنقله بالإسعاف، لكن القوات منعت نقله وتركوه ملقى على الأرض، وظلّ ينزف إلى أن استشهد.

في هذا الوقت أُذِن لصلاة الظهر، وقبل الصلاة، رأيت مشهداً أثر بي كثيراً في فناء بيت الشيخ، مع توافد الشباب، رأيت صبيّاً لا يتجاوز عمره السبعة أعوام؛ وقف مع الشباب عند باب بيت الشيخ، يرتدي كفنّاً صغيراً، ويحمل في يده قطعة حديدية. قلتُ له: «أنت لا تبقي هنا، اذهب إلى البيت». قال لي: «كلاًّ أنا أتيت لأحمي الشيخ». قلتُ له: «اذهب إلى البيت حالاً، الأمر ليس لعبة». لم يقبل وأصرّ قائلاً: «لن أسمح لهم أن يدخلوا». قلتُ له: «باباً، ادخل لأي مكان، الشغب أتوا»، ثم التفتُ إلى الشباب وقلتُ لهم أن يأخذوه، فهو صغير ونحن لا نستطيع تحمل مسؤولية ما قد يصيبه. فقال لي إنه سيدخل إلى بيت الشيخ ولن يبقى معنا، ثم دخل. لا أعرف من أين أتى هذا الطفل، من الدراز أو غيرها، وهو ليس من بيت الشيخ أو من أولاده، لكنه أصرّ على أن يكون موجوداً في هذا الموقف.

حلّ وقت الصلاة، واحترار الشباب كيف يصلون. كانت الدماء تغطّي أجسادهم وثيابهم. البعض تمكنوا من إزالة الدم عنهم، في حين لم تتوقف جراح الآخرين عن النزف. لجؤوا إلى المشايخ وسألوهم، قال بعضهم إنه في حالة الحرب وفي حالة عدم الاستقرار، يجب أن تُقام الصلاة حتّى لو لبسنا الأكفان، بعض الشباب قطعوا قمصانهم وثيابهم، إذ كانت كلّها كانت مغطاة بالدماء.

علي: بعد أن وصلت قوات الشغب إلى داخل الساحة، بقيت مجموعة في الساحة لا تتحرك، ودخلت مجموعة أخرى إلى بيت زين الدين، خصوصاً المصايين، بالإضافة إلى البيوت القريبة. كنتُ في المجموعة الثالثة التي دخلت إلى فناء بيت الشيخ. بين بيت زين الدين وبيت الشيخ جدار واحد، وصادف أنه خلال تلك الفترة، كانت هناك تعديلات في بيت زين الدين، وهناك جزء تم تهديمه من سور البيت، فصار منفذاً لنا بين البيتين، وكان الشباب يتناقلون الأخبار عبره.

في الفترة الصباحية، عند وصول قوات الشغب، لم يحاولوا الدخول مباشرة إلى فناء بيت الشيخ، بدا أنهم أرادوا تأمين المنطقة قبل دخولهم. ارتفاع الحواجز الإسمنتية حول بيت الشيخ يفوق ارتفاع الشخص العادي، لذلك، لم يتمكنوا من رصد الموجودين خلف الحواجز: عددهم، وماذا يحملون في أيديهم. كان عناصر الشغب يحيطون بالمنطقة ويحاولون النظر إلى الداخل، وكان من المتوقع أن يدخلوا في أي لحظة.

هناك مشهد ما يزال عالقاً في ذهني، كان عدد كبير من الشباب صائماً، إذ كنّا في أواخر شهر شعبان، وكان الجو شديد الحرارة، فضلاً عن المواجهات والاختناق. البعض أفطروا بسبب الاختناق والإصابات، والبعض الآخر بسبب شدة الحرّ والظمأ والتعب. كان هناك غالون ماء يشرب منه الشباب في الداخل، وعند القطرات الأخيرة، شهدنا صوراً من الإيثار، رأينا الشباب يقدم أحدهم الآخر على نفسه: «لا أنت اشرب، لا أنت اشرب»، على الرغم من العطش الظاهر على الوجوه.

نقد الماء قبل صلاة الظهر، واشتدّ العطش والحرّ وسط كثافة المسيلات والإصابات والاختناق، صرنا في وضع صعب ومؤثر جداً. كان مشهداً كربلائياً. وتكررت المشاهد الكربلائية أثناء أداء صلاتي الظهر والعصر، فالبعض كانوا يراقبون، والبعض الآخر يصلون، تماماً كما في يوم العاشر من محرم.

واصلت قوات الشغب الاقتراب ونحن في الداخل. الشباب المنتشرون حول الساحة قرب منطقة الحواجز الإسمتية يراقبون، كانت الحراسة دائرية هناك، بحيث لا يتسلل أحد أو ينظر أو يصوّر أو ما شابه، وكان الجميع متأهباً لأي لحظة يقررون فيها اقتحام الداخل.

عند باب بيت الشيخ

حسين: بعد الصلاة، عادت الروح إلى الشباب واستعادوا قوتهم قليلاً. عناصر قوات الشغب يقفون في الخارج، أمهلونا نصف ساعة كان الوضع فيها هادئاً. استمرت التكميرات ولم تتوقف. بعد الصلاة بنصف ساعة، عاودوا إطلاق الشوزن ومسيلات الدموع والقنابل الصوتية داخل فناء بيت الشيخ بغزارة ومن دون توقف. لم أكن أرتدي قناعاً حينها، فقد أعطيت القناع الذي كان معي صباحاً، لأحد الإخوة الذي احتاج إليه. ثم أخذت غيره، لكن أحد الشباب اختنق بشدة فأعطيته إياه، والقناع الأخير أعطيته لصبي صغير. ثم قررت أن لا أضع قناعاً بعد ذلك، فالشباب الذين كانوا يرتدون الأقنعة اختنقوا من شدة المسيلات، ولم يتمكنوا من التحمّل.

إصابات الشوزن في كل مكان وليس هناك مجال للمعالجة.

أصيب وجه أحد الإخوة بالكامل، والبعض في ظهورهم وصدورهم وأرجلهم، وفي كل مكان من أجسادهم. لا أظن أن أحداً نجا من الإصابة بالشوزن. استمر الطلق إلى الساعة 1:30 تقريباً.

بعد أن سيطروا على الساحة كلّها، دخلوا علينا من ثلاث جهات، الجهة الأولى من ناحية ساحة خمدن حيث الباب الرئيس الكبير لبيت الشيخ. الجهة الثانية من الساحة مقابل بيت الشيخ، جهة النخلة. والجهة الثالثة من فوق بيت زين الدين. فكان إطلاق النار من كل مكان ولم يعد هناك أي مفر.

سقط الكثيرون من الشباب جراء إصابات بليغة جداً. شعر الجميع أن الشهادة صارت على بعد خطوات منهم. أخذ الكل يستسمحون من بعضهم البعض ويسألونهم براءة الذمة. كان مشهداً صعباً. من ناحية، استبشر الشباب بالشهادة من ناحية، ومن ناحية أخرى، عينهم على حماية الشيخ. في هذه الأثناء، هدأ إطلاق النار من ناحية الباب الرئيس قليلاً، أما في الساحة، فقد واصلوا إطلاق الشوزن. ثم سمعنا فجأة صوتاً قوياً جداً، وتم كسر الباب الحديدي (الخارجي) الذي يتم منه الدخول إلى محيط بيت الشيخ.

علي: هناك باب حديدي، هو المدخل الوحيد عبر الصبّيات التي تحيط ببيت الشيخ. كنّا حوالى ستين شاباً في المساحة بين بيت الشيخ والصبّيات، وقمنا بإقفال الباب الخارجي. رأيت من ناحيتي أنّهم أحضروا جسماً ضخماً وثقيلاً، ربما كان جذع نخلة أو ما شابه، وصاروا يضربون الباب بقوة، كنّا نعلم أنها مسألة

ضربات قليلة فقط ويكونون في الداخل، فالباب سوف ينكسر وسوف يقتحمون الفناء.

دخلت القوات بعنف. أخذ (محمد المتغوي) يصرخ ويقول: «يا شباب، وصلنا إلى اللحظة الأخيرة، هذا يوم العاشر، هذه صلاة الظهر وقد انتهينا منها، وهذه كربلاء.. لير كل شخص ما هو تكليفه، الجماعة سوف يدخلون».

كان نداءً حماسيًا مؤثرًا، فقد وقعت معركة العاشر من محرم بعد صلاة الظهر أيضًا. أذكر حينها حركة الشهيد محمد العسكري داخل الفناء. كانت حركة شخص يتجه إلى الشهادة: «يا شباب.. التفتوا إلى هنا كي لا يدخلوا، انظروا هنا.. لا يتعد أحد عن الباب...»

كلما تزلزل المكان بفعل ضربات الجسم الثقيل على الباب الحديدي، صرخ محمد فيهم: «من يدخل منكم سوف يموت..»

بيت الشيخ بابان: الباب الرئيس، ويقع في الواجهة الأمامية وهو معروف بالنخلة التي على جانبه، ثم باب المجلس، ويقع في الجهة اليسرى من البيت. كان باب المجلس الأقرب للباب الحديدي الذي دخلت منه القوات بعد كسره. احتفى الشباب بما حصلوا عليه من ألواح خشبية ضد طلقات الشوزن التي هطلت فوقهم بجنون، وحدثت حالات اختناق كثيرة بسبب الإطلاق الكثيف للغازات المسيلة للدموع. انقسم الشباب إلى قسمين، قسم تجمع عند باب المجلس، وقسم عند الباب الرئيس. كان الأهم بالنسبة للشباب حماية الأبواب. كنتُ عند باب المجلس، تقدّمت القوات، فالتصق الشباب بالباب أكثر. بدورها، انقسمت

قوات الشغب إلى قسمين، قسم تقدّم نحونا، وقسم آخر توجه إلى الباب الرئيس الذي تجمع عنده معظم الشباب، وسقط أمامه ثلاثة شهداء: محمد جميل، ومحمد العكري، ومحمد حمدان.

ما إن وصلوا إلينا، حتى بدؤوا بضربنا بكل ما وجدوه في أيديهم: الأسلحة والهرات. كانوا يركلوننا أيضًا. سقط الكثير من الشباب على الأرض وأصيبوا بشكل بالغ في أرجلهم وأيديهم وعيونهم، وهناك من قُطع إصبعه. بقينا على الأرض والشباب ينزفون، إلى أن وصلوا إلى الباب، وصاروا يضربوننا بكل الوسائل، فسقط الشباب على بعضهم البعض عند الباب، وواصلوا ضربنا. وكانوا يشيرون إلى بعض الشباب ويصرخون: «هذا عنده سلاح!» كانوا يفترضون دائمًا أن هناك أسلحة، وطبعًا، لم يكن هناك شيء، كانوا يضربون الشباب ضربًا مبرحًا على رؤوسهم وبطنهم والأماكن الحساسة. في هذه الأثناء، تقدمت مجموعة أخرى من القوات نحو الباب الثاني لبيت الشيخ، ولا أعلم ما الذي حصل هناك.

شهادة جميل والعكري وحمدان

حسين: كنتُ عند الباب الرئيس لبيت الشيخ، وعندما وصلوا إلينا، أطلقوا الشوزن والمسيلات والقنابل الصوتية بكثرة، وبشكل عشوائي، على كل مكان، على الوجه والصدر والبطن. كانت القوات حاضرة بأعداد الحرب، وكان عناصرها يحملون الأسلحة والشوزن والمسدسات والرشاشات. بعضهم يرتدي اللباس الأسود، والبعض الأخضر أو الأزرق أو الأبيض، وآخرون كانوا مقتنعين ومعهم الكثير من المدنيين، كان بينهم باكستانيون ويمينيون وبحرينيون. البعض يرتدون الثوب العربي. لم يكن هناك أحد من

دون سلاح، والرشاشات كثيرة. من الواضح أنهم كانوا يعتقدون بوجود سلاح لدى الشباب، وأنه ستكون هناك مواجهات عنيفة، والدليل هذه الأعداد الكبيرة جداً، والأسلحة. منذ دخولهم، كان الضرب عشوائياً، وكل من يتعرض للضرب يسقط في مكانه.

مستعدون للشهادة؟

أذكر بعض المواقف قبل هذه الأحداث كلها؛ الموقف الأول للشهيد أحمد جميل. بعد الثانية فجراً، كنت أتجول حول بيت الشيخ وأتفقد الشباب، رأيت الشهيد أحمد جميل خارجاً وقد كان في فناء بيت الشيخ. فتمشينا سوياً. سألتني: «مستعدين للشهادة؟» فقلت له: «إن شاء الله مستعدين». فقال: «أنا سوف أرحل شهيداً» فقلت له ممازحاً: «أنت أينك من الشهادة! لن تحصّلها»، قال: «أقول لك بأني سأرحل عنكم شهيداً»، فقلت مداعباً: «لا يبدو عليك أنك من أهل الشهادة ولا أي شيء!» وقد نالها الجميل.

موقف آخر للشهيد محمد الساري، الظهر قبل أن أدخل فناء بيت الشيخ، رأيته فتبادلنا التحية، وسألني عن وضعي. قلت له: «كما ترى الأجواء مضطربة ويبدو أنهم وصلوا إلى ساحة خمدن»، قال: «سوف أذهب عاجلاً إلى هناك»، فقلت له: «إن شاء الله خير». ذهب كل منا في طريقه لكنني استغربت أنه عاد واحتضنني وقال: «سامحوني وبرّثوا ذمتي». كان الشباب جميعهم يسلمون على بعضهم، فتفاعلت معه على قدر كلماته، إذ لم تكن علاقتي معه قوية. لكن ما جعلني أستغرب قوله: «سامحوني.. أنا ذاهب إلى الإمام الحسين (ع)». لا أدري لم قلتُ له بشكل غير شعوري: «أنت لم تستشهد في المرة الأولى ولن تستشهد الآن»، فقال لي: «كلاً، إنني راحل إليه الآن». مضى كل منا في طريقه.

وجاءني خبر استشهاده لاحقًا، عرفتُ من الشباب أنه كان يقول: «السلام عليك يا أبا عبدالله الحسين» إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. كان هذا آخر ما نطق به. وقد كان حينها صائمًا، وشديد العطش، فالتحق بمن أودعه سلامه.

كنتُ والشهيد محمد العسكري معًا في كثير من الأنشطة، وكان مرحًا ومزوحًا ودائمًا (يجنني ويؤذيني) بمزاحه. أتى إليّ عند الفجر وقال: «أبحث عنك». قلت: «ماذا هناك؟». احتضنني بقوة وقال: «إذا أنا أذيتك أو مازحتك كثيرًا، لا تحمل في قلبك عليّ»، فقلت له: «ليس هناك أي شيء»، فقال: «أنا جاد فيما أقول، لأنني سوف أستشهد اليوم»، فقلت له ممازحًا: «هيا اذهب.. ليس لدي وقت لك، وبعدها يصير خير». وعندما كنّا داخل فناء بيت الشيخ، يبدو أنه أرسل لعائلته رسالة عبر الواتس أب، ثم عاد مرة أخرى بعد صلاة الظهر، واحتضنني وكرّر لي القول ذاته.

أعود إلى اقتحام فناء بيت الشيخ، كنت عند عتبة الباب الرئيس ناحية النخلة، تكوّم الشباب فوق بعضهم مشكّلين درعًا بشريًا: «لن يكون الدخول إلى الشيخ إلاّ على جثتنا». ما إن دخلت القوات، حتى رفع العناصر أسلحتهم في وجوهنا وصرخوا: «اجلس اجلس أو أضربك»، رفض الجميع الجلوس، وتعلّلت هتافات الشباب في وجه صراخ قوات الشغب وتهديداتهم، فقاموا بإطلاق الشوزن وأصابوا عددًا من الشباب في البطن والأرجل.

كان الشهيد أحمد جميل العصفور أول من أطلقوا عليه في صدره، واستشهد فورًا.

جلستُ على عتبة باب البيت، وجلس الجميع، وظلّ أحد

الشباب يصرخ: «لا تتنازلوا.. لا تدعوهـم.. لا عليكم منهم.. دافعوا»، وراح يواجههم. حاول أن يرمي عليهم حجرًا، فأطلقوا الشوزن في رجليه، لم يتوقفوا عند هذا الحد، بل التفّوا حوله وانهالوا عليه ركلاً وضرباً بالهراوات حتى أغمي عليه ولم يتوقفوا. ظننا أنه استشهد، فعمّت الفوضى بين الشباب، وتعالى الصراخ والتكبير.

لم يحتمل (محمد المتغوي) الصمت، فهبّ واقفاً من مكانه، وصرخ: «صلّوا على محمد وآل محمد»، فارتفعت أصوات الشباب بالصلوات وضجّ المكان، ثم صرخ فيهم: «إلى متى تضربونه؟ لقد مات، ماذا ستفعلون به أكثر؟!»

لاحظنا الصدمة على وجوههم، فذهبوا إلى المتغوي وضربوه، لكن فجأة سمعنا صوتاً من جهة قوات الشغب يقول: «محمد المتغوي، تعال»، فقال محمد: «لن آتي». لم نعرف صاحب الصوت، ثم عاد الصوت وقال: «قلت لك محمد المتغوي، أنا أعرفك تعال»، قال: «أنا لن آتي إليك، أنت تريدني تعال».

كان محمد من ناحيتي عند العتبات، فرأينا ضابطاً يتقدّم من الخلف نحوه، وهو يقول: «لا أريد أن يلمسه أو يضع يده عليه أحد»، توقّف عناصر الشغب ولم يتحرك منهم أحد، ثم أخذه الضابط من يده وخرج به، وما إن غادرا، حتى انهالت القوات علينا بالضرب من كل صوب.

أنا الشهيد التالي

الشهيد (محمد العكري) كان يجلس بجانبني على العتبات، فلم يحتمل الوضع أيضًا. وقف وصاح: «أنا لا أستسلم»، سحبْتُ

بنطاله وقلت له: «اجلس واسكت»، فقال لي: «لن أجلس ولن أستسلم». جاءه شرطي باكستاني وضربه بالسلاح على ظهره بقوة، فاشتبك محمد معه وصرخ فيه: «لا أستسلم.. أدافع عن الشيخ.. لا أستسلم»..

وبدون تردد، وجّه الشرطي سلاح الشوزن نحو محمد، ثم وضعه على خاصرته مباشرة من دون أي مسافة، ثم أطلق النار عليه. سقط محمد من فوره بجانبه على الأرض.

منذ سقط، لم أسمعه يلفظ إلا كلمة «آه»، أن بصوت ضعيف قبل أن يختفي نفسه. صرخت في الشرطي: «لقد ماااااات!!» فقال: «دعه يموت».

ثم صرخ الشرطي مستعزّضاً:

«من يريد أن يموت بعده؟ من الشهيد التالي؟» قالها وهو يضحك.

فوقف الشهيد محمد حمدان وصاح: «أنا الشهيد التالي»..

على الفور أيضاً، ومن دون تردد، أطلق الشرطي الرصاص على محمد حمدان من مسافة تقل عن مترين، وسقط حمدان من فوره أيضاً. لم أستطع معرفة مكان إصابته حينها، لأنني كنت مشغولاً بالعكري الذي كان غارقاً في دمه جنبي.

هكذا تم قتل ثلاثة شباب بدم بارد خلال دقائق أمام الجميع!

في هذه الأثناء، راحوا يطلقون الرصاص بشكل عشوائي، على الرغم من أننا لم نقاومهم، وحصلت إصابات كثيرة في الرأس

والصدر، كان مؤثراً أن ترى الشباب على الأرض، ودماؤهم تسيل، وليس بمقدورك فعل شيء، لا تدري أهم أحياء أم أموات، والشباب الذين بقوا كانوا ينتظرون دورهم للشهادة، أمر واحد فقط كان يهمننا في تلك اللحظة: أن لا نسمح لهم بالدخول على الشيخ أو أخذه.

باب الشهيد حمدان

علي: بخصوص الشهيد محمد حمدان، لديّ إضافة، فقد كان الشهيد مسعفاً، وكانت هناك إصابات كثيرة وبليغة داخل البيوت المجاورة لبيت الشيخ، وكانوا بحاجة إلى مسعفين. كنتُ قد رأيته قبل دقائق من استشهاده في المحيط، فقلتُ له: «محمد.. هذا البيت به إصابات كثيرة وبحاجة لك»، وأشرتُ ناحية البيت، فذهب محمد أمامي وطرق الباب وكان يقول لهم: «أنا محمد حمدان، مسعف، افتحوا».. لكنهم لم يفتحوا.. ظلّ يطرق الباب لدقائق ويناديهم ولم يفتحوا له.. كنتُ قريباً منه وشاهدتُ ما حدث بنفسي. بعدها التفت إليّ وقال لي: «لم يفتحوا، سأخذ فرّة وأعود لهم». لم يتمكن محمد من العودة. لم تمضِ إلّا دقائق حتى اقتحمت القوات فناء بيت الشيخ، وسقط شهيداً.

الغريب أن ذلك البيت بالذات لم يتم اقتحامه من قبل القوات، وتمكن الشباب بداخله من الخروج بعد أن انتهى ذلك اليوم الطويل. كان يمكن لمحمد - لو فُتح له الباب - أن يكون أحد الناجين. لكن لم يكن ذلك بابه، لذلك لم يُفتح له، كان باب آخر في السماء قد شُرع في انتظاره، إنّه الباب الذي كانت عينه عليه، باب الشهادة.

عندما سيطروا على الوضع عند بيت الشيخ، انبطح الشباب جميعاً فوق الأرض على بطونهم، عند الباب وعلى امتداد الفناء. صاروا يطوفون بيننا وانهالوا علينا ضرباً وركلاً وبالأصفاد، بقينا على هذه الحالة لساعتين ربما. في هذه الأثناء، دخل أشخاص كثيرون، بعضهم يرتدون الأثواب، وحتى الشرطة النسائية.

ما حَزَّ في نفسي حينها، وأعتقد أن كثيرين شعروا مثلي، أن الجميع كانوا على الأرض وعيونهم على باب بيت الشيخ، الجميع اعتقد أنهم إما سيقتمون بيت الشيخ فعلاً، أو سيحاولون إخراجهم، وحينها سيكون الموقف مختلفاً.

كنت أقول في نفسي إننا انبطحنا على الأرض من دون مقاومة لأن قوات الشغب لم تتقدم خطوة باتجاه البيت. لكن لو أنهم فعلاً تحركوا صوب الشيخ كي يخرجوه، لاختلف الأمر. هذه الفكرة كانت في بالي وبال الكثير من الشباب: «لو رأيتهم يقتحمون بيت الشيخ أو يخرجونه، سوف لن أبقى منبطحاً على الأرض». كان الشباب يقولون: «طالما الشيخ سالم، لا نريد أن يُسفك المزيّد من دماء الشباب». كان في اعتقادنا أن هناك خمسة أو ستة شهداء من آثار الدماء والإصابات البليغة التي شهدناها. بقينا منبطحين على الأرض.

كان الشباب قد وضعوا كاميرات على بيت الشيخ منذ بدء الاعتصام. أذكر أن شخصاً يرتدي ثوباً جاء، ومعه ثلاثة أو أربعة فيليبينين، كانوا ينظرون إلى الكاميرات المعلقة على جدران البيت وكأنهم يبحثون عن مصدر التسجيل، وأوقفوا الضرب وكأنهم خائفون من الكاميرات.

كان الشباب المصابون يثنون ويتلوون من الألم من دون أي اكتراث لشأنهم. عانى بعضهم من إصابات بليغة ونزيف شديد لأكثر من ساعتين، ولم يسعفهم أحد. وكانوا عندما يسمعون أنين شخص، يأتون إليه ويضربونه. بل إنهم قد يسألون المصاب: «أين تتألم؟» فيقول لهم مثلاً: «رجلي تؤلمني»، فيضربونه على مكان الإصابة. بعض الشباب كانت إصابتهم في اليد، والأصفاة إلى الخلف، وهو منبطح على يده ويصيح أنه لا يستطيع أن يضغط على يده أكثر، فيأتي أحدهم ليشد الأصفاة أكثر أو يضربه عليها. وقد يجبره على الزحف على الأرض وهو مصاب، هذه الحالات رأيتها بنفسى وكانت كثيرة، بالإضافة إلى الضرب على الرأس.

سؤال واحد لم يبارح ذهني: «ما حال الشيخ وهو يسمع كل هذا الأنين والصراخ؟!»

تجمع الشامتين عند «جو»

حسين: أبعدوننا عن باب الشيخ، وقسمونا إلى سباطين، بحيث إنه على كل شاب أن يمر بينهما ويأخذ نصيبه من الضرب، عليك أن تمر عبر هذين الصفيين، بين من يضربك في رجلك وفي وجهك وفي بطنك بالهراوة والسلاح والحداء. لم يبق أحد لم يحظ بنصيبه من الضرب، مع أنه كانت هناك إصابات بليغة بالشوزن بين الشباب. لم يكثرثوا.

بعد أن أبعدوننا، فتحوا باب بيت الشيخ على مصراعيه وأبقوه مفتوحاً، بحيث يمكنهم رؤية من في الممر، لكنني لم أرهم يدخلون.

بقينا هكذا حتى وقت المغرب، أتت سيارات الإسعاف ونقلت

أصحاب الإصابات البليغة، ثم بدؤوا يأخذوننا واحداً تلو الآخر إلى الباصات. لكن هناك مشهداً غريباً قبل أن يأخذوننا؛ أكثر الشباب كانوا صائمين، وكان عطشهم شديداً. طلب غالبيتهم الماء، إذ لم يكن باستطاعتهم أن يحتملوا أكثر، لا أدري ما الذي حدث، سبحان الله، هل لانت قلوبهم علينا؟ وما هي القصة؟ لست أدري! أحضروا لنا زجاجات مياه صغيرة، فكان الشرطي يأتي إلى كل شخص ويعطيه ليشرّب رشفة من الماء، وكان الشباب يؤثر بعضهم بعضاً خوفاً من نفاذها: «أنا لست عطشاً، أعط صاحبني، أعط فلان...»، وكانوا يستغربون: «ياه شفيكم ما تبون تشربون ماي، كل واحد يقول لرفيقه». فيجيبهم الشباب: «أنا أقدر أن أتحمّل.. أنا لست عطشان.. دع فلان يشرب لأنه متعب»، فيقول له الشرطي: «إذا أنت لم تشرب، لن أعطيه الماء»، تكرر هذا الأمر، حتى أن بعض الشباب كانوا صائمين واضطروا لأن يشربوا كي يشرب الذي بعدهم. كان الجو حاراً جداً وقد أنهكنا العطش.

كان أذان المغرب قد ارتفع عندما أدخلونا إلى الباصات. في هذه الأثناء، سمعناهم ينادون بأسماء فرق القوات للمغادرة: فرقة المراكز تغادر. قوات الدفاع تغادر. قوات البديع تغادر. قوات المحرّق يتحركون. قوات الرفاع يتحركون. دوار 17.. سافرة.. الإسعافات... وتمت مناداة أسماء جميع الفرق والمراكز، وكأنهم أحضروا قوات البحرين كلّها إلى الدراز. تم ترحيلهم على فترات.

في الطريق إلى سجن جو

كدّسونا في الباصات، نحن الذين تمّ اعتقالنا من عند بيت الشيخ، مع الذين تم اعتقالهم من بيت زين الدين. كانت الأصفاد

محكمة إلى الخلف. لم يكونوا يعرفون إلى أين سيأخذون هذه الأعداد الكبيرة كلها. سمعته في البرقيات يقولون: «إلى أين نأخذهم؟ إلى البديع أو إلى الخيالة؟» فجاء الجواب: «كلّا، خذوهم إلى دوّار 17». ثم بعد وقت، تلقّوا برقية: «ليس دوّار 17»، وأثناء كلامهم مع بعضهم البعض، كانوا مرة يقولون: «نأخذهم إلى سافرة» ومرة يقولون: «لا ندري أين نأخذهم»، فكنا متخوفين من ذلك، وفي النهاية أخذونا إلى طريق جو.

الموقف الذي لن أنساه، وهو ما رأيته بعيني، قبل وصولنا إلى السجن، رأيتُ تجمّعًا وسيارات كثيرة متوقفة على جانبي الشارع العام، وقد أشعلوا إشارات الخطر (دينجر)، كانت هناك مجموعات من الناس، نساء ورجال وأولاد. وما أن دخلت الباصات بنا إلى المنطقة، حتى أطلق هؤلاء المزامير، وأخذوا يهللون ويكبرون ويصفقون شماتة وتشفيًا بنا. كان منظرًا وضيعًا. تذكرنا مشهد سبايا كربلاء وهن يدخلن الشام وسط شماتة الأعداء، راح الشباب يتمتمون: «السلام عليك يا أبا عبد الله الحسين، السلام عليك يا سيدتي يا زينب». أدخلونا إلى سجن جو.

عاش عاش عمّ ترامب

علي: كان الضرب في الباص الذي نُقلتُ فيه عنيفًا، وكذلك الأمر في الباصات الأخرى، وفقًا لما سمعته من الشباب. أثناء نقلنا إلى الباص، كانت الضربات تنهال علينا بالهراوات والركلات بالأرجل، وقد تلقيت أثناءها ضربة بالهراوة على رأسي تسببت بشقه وإدمائي، الأمر الذي جعلهم يأخذوني إلى الطوارئ فور وصولنا ويقومون بمعالجة الضربة وخياطة الجرح في رأسي.

كان ضرباً انتقامياً حاقداً، حتّى أنهم طلبوا منا في الباص أن نردد بعض العبارات، مثل: «الموت لعيسى قاسم»، و«يعيش خليفة بن سلمان»، و«يعيش حمد»، وكلمات أخرى بذیئة. الذي لا يستجيب، كانوا يضربونه على رأسه، وبالأصفاد، ويركلونه بأحذيتهم. وكانوا يمشون فوق ظهورنا بأرجلهم ويتنقلون بيننا ويضربوننا. من بين الهتافات التي أذكرها: «عاش.. عاش عم ترامب»، في إشارة إلى أنه قبل أيام من الاقتحام، كان ترامب قد زار السعودية، وكأنّه قد أعطاهم الضوء الأخضر لقمع الاعتصام في البحرين أو ما شابه، وبغض النظر عن صحة هذا الكلام أو عدمه، لكنهم كانوا يعتقدون أن ترامب ساهم في اتخاذ هذا القرار أو هو من أعطى الضوء الأخضر.

حسين: تجربتي في الباص كانت سيئة، شعرتُ أن حلقي قد تيسس من شدة العطش، وكنت أتذكر عطش الإمام الحسين (ع) ومقولات الخطباء إن لسانه صار كالخشبة، وكان ريقِي قد جف تماماً، فكنت أئن وأكرر طلبي بأنني عطشان وأريد الماء. الشباب ناحيتي كانوا يحاولون التكلم معهم ليعطوني ماء. وصلتُ إلى مرحلة شعرت فيها أنه سوف يغمرني عليّ من شدة العطش. كلما قلتُ إنني عطشان، ضربني الشرطي الباكستاني على رأسي بالهراوة وغيرها، حتّى شعرت بالدوار.

قبل أن نصل، قال لي: «تعال... أنت عطشان؟» قلت: «نعم». قال: «تريد الماء؟» قلت: «نعم». قال لي: «الآن سوف أعطيك ماء». كانت هناك قنينة ماء فيها القليل من الماء، عندما وقع نظري عليها، شعرت بأنني وجدت كنزاً ثميناً. أردتُ أن أن أبلل ريقِي فقط. لكنه أخذ القنينة وتفل فيها، ثم أعطاني إياها: «هيا، اشرب».

شعرت بالاشمئزاز وقلت: «لا أريد». أعاد قوله: «اشرب». ثم
أجبرني أن أشرب منها، وراح يضحك عليّ.
وقبل أن يضعوا العصابت على أعيننا، لمحت لافتات مكتوب
عليها «جو».

مريم عباس:

يوم الهجوم، تودعت مع زوجي وذهبنا إلى المجهول

ما إن تم إسقاط جنسية الشيخ عيسى قاسم، حتى شعرتُ أنني غير قادرة على البقاء في البيت، اتصلت بزوجي وهو في العمل وقلت له: «أنا ذاهبة إلى الدراز الآن».

دخلت إلى الدراز بشكل طبيعي، وكان التجمهر قد بدأ؛ الرجال في جهة والنساء في الجهة الأخرى مقابل بيت الشيخ. وعندما احتشد الرجال وزاد عددهم صارت واجهة البيت كلها لهم، وصرنا في الخلف.

حلّ وقت صلاة الظهر، فقضيناها هناك. البعض عادوا إلى بيوتهم بسبب مسؤولياتهم، نظّموا أمورهم ثم عادوا إلى الاعتصام. رجعت إلى بيتي ليلاً، بعض البيوت، خصوصاً القريبة من بيت الشيخ، فتحت مجالسها للنساء، اللواتي يرغبن في المبيت هناك.

صرنا نذهب إلى الساحة كل يوم على الرغم من الصيام والحر الشديد. كنت أنهي أمور بيتي صباحاً وأخرج ولا أعود إلا ليلاً. من الساحة، كنت أتواصل مع عائلتي وأطمئن على وضع صغاري عن طريق الهاتف، وكنتُ والكثيرات مثلي، نعود إلى البيت حسب الحاجة مثل أيام الامتحانات وما شابهها. بعض المراتبات صرن

يُدرن أوضاع بيوتهن بحيث يكلفن أخواتهن بالذهاب إلى أبنائهن أو يأخذنهن إلى بيوت آبائهن حسب الحاجة.

بشكل تدريجي، تم وضع الستار عند قسم النساء خلف الرجال لتتحرك النساء براحة. كانت تتم إزالته خلال النهار كي لا يعيق حركة المارة، ويسدّل عندما يكون هناك تواجد كثيف.

تولى أهالي الدراز رعايتنا، ولم ينقصنا شيء من الطعام أو الشراب، حتى إن البعض كانوا يتساءلون: متى يتم تحضير كل هذا الطعام؟ تعرفنا على الكثير من المراتبات خلال الاعتصام وصارت بيننا مودة وتطورت العلاقات بيننا. تأتي المرأة من بيتها وهي تحمل معها إفطارها أو الشاي، وتشاركه مع الأخريات، وكان الأهالي يرفدوننا بكل إمكانياتهم، كما أن الرجال أيضًا يطبخون في المضائف ويحضرون لنا الوجبات.

الدخول والخروج

مع محاصرة الدراز، صار الدخول أصعب. كنا نتدبر أمرنا، فحينئذ نستعين بمعارفنا من الدراز، سواء كانوا أهل أو أصدقاء، لندخل معهم، وأحياناً نقف بعيداً ونمشي قرابة ساعة كاملة، قد نضع سيارتنا في مواقف (مجمع نجيب) ونسير منه إلى الداخل، أو ننزل جميعنا - ما عدا الأخت التي تقود السيارة - عند أقرب نقطة ممكنة ثم تذهب الأخت لركن سيارتها بعيداً، فهذا أكثر أماناً من إيقافها في مكان قريب، فقد تعرضت بعض السيارات للتكسير المتعمّد، وقد تم تكسير زجاج سيارتنا مرة عندما أوقفناها عند الحديقة. كما كان يتم تسجيل مخالفات ضد البعض، وكان البعض الآخر يتلقون اتصالاً من المرور لنقلها من مكانها.

في إحدى المرات، كنا مجموعة في سيارة إحدى الصديقات. أوقفنا السيارة عند مطعم «ريدان» واشترينا عشاءً للأطفال من هناك. وما إن دخلنا إلى الاعتصام حتى اتصل زوجها يخبرها أن شرطة المرور اتصلوا به وقالوا له إن السيارة تقف في مكان خاطئ (كانت السيارة باسم زوجها)، فذهبت لنقلها من مكانها. كان معي رصيد العشاء، قلت لها: «احمليه معك لأنهم سوف يسألونك عن سبب وقوفك هناك». وبالفعل هذا ما حدث، فأخبرتهم أنها كانت في الداخل تتناول العشاء.

في ما يتعلق بالبرامج والفعاليات، كنّا غالباً ننضمّ إلى برامج الرجال لأن هناك سماعات، وفي الأوقات الأخرى، كان هناك من يقرأ القرآن بشكل فردي أو جماعي كذلك الدعاء. بعد أن استقر الوضع، صارت هناك برامج ثقافية عند الرجال محاضرات أو مقتطفات، ثم أسئلة ومناقشات، أحياناً تكون هناك مسابقات وهدايا بسيطة مثل أكواب عليها صورة الشيخ. وكُنّا نقدم أسئلتنا أو إجاباتنا في المسابقات في أوراق يتم جمعها.

البعض يقول: «ماذا تفعلين كامرأة هناك؟» وجودنا يدعم وجود الرجل، صحيح أن القوة الجسدية عند الرجل مختلفة، لكن وجود المرأة يمدّه بحماس أكثر. كنْتُ وزوجي نتواجد في الاعتصام؛ عندما أراه أشعر بالقوة، وكذلك هو.

ليلة الهجوم

لاحظنا أنه قبل الهجوم بفترة، كانوا يقولون لنا عند نقاط التفيتش: «كلها فترة بسيطة وبيخلص الموضوع»، نسألهم: «شنو يعني بيخلص الموضوع؟» يقولون: «بيهممون عليكم ما تقومون

بالطيب يقومون بالقوة». صار هناك حرص أكثر عند الشباب على التواجد.

في ليلة الهجوم كان زوجي عائداً لتوّه من العمل وقد ارتدى ملابس البيت ليستريح، فقلت له: «هناك أخبار عن قوات متجهة إلى الدراز». سألتني عن مصدر الخبر، فأريته إياه. قفز من فوره وبدل ملابسه وقال: «إذا ما بتوصليني أنا رايح». قرابة الساعة 12، أوصلت زوجي وكان وضع الشارع طبيعياً، لكن لفتنا تجمع كبير للقوات في مركز شرطة (مقابة). أنزلته في الدراز، وأثناء عودتي، رأيت الأعداد تتزايد عند دوار الشاخورة وجنوسان، ولما علمت أن أختي ستذهب هناك، ركنت سيارتي عند بيتها وركبت معها في سيارتها ووصلنا عند الساعة الواحدة فجراً. كان الناس قد احتشدوا، والاستنفار يُخيم على المكان.

بقينا هناك حتى صباح اليوم التالي. الجميع كانوا في حالة ترقب، الشباب ارتدوا الأكفان، ونحن بين الساحة وداخل البيوت، وقد جفانا النوم. توقعنا جميعاً أن يحدث الهجوم عند الفجر، أصوات الرجال خلية نحل بين صلاة ودعاء وقرآن، وبين فترة وأخرى يهتفون بالشعارات الحماسية، والجميع في حالة ترقب.

انقضى الليل والجميع على هذا الحال، وعند الساعة السادسة صباحاً، خرج البعض لاصطحاب أبنائهم إلى المدارس. لم يكن ممكناً تغيبهم بسبب الامتحانات.

عند الساعة والنصف، تقدمت القوات نحو مدخل الدراز المسمى بمدخل (البريد). تم فتح هذا المدخل الذي كان الدخول منه ممنوعاً طوال عام كامل، وتقدمت المدرعات والقوات نحوه،

فاستنفر الشباب وأهل الدراز. بدأ قرع الطبول في الساحة، وخرج الشباب مباشرة للتصدي لتقدم القوات، تقدّموا بصدورهم العارية في وجه المدرعات، وصعدوا فوقها، شعرنا أنها ساعة حرب حقيقية، ارتجّ كل شيء فينا.

توزع الشباب على المداخل المختلفة، وكانوا حريصين على الالتزام بالدفاع لا الهجوم، لم يكن هدفهم سوى صد تقدّم القوات.

تحت رحمة الله

اتصل بي زوجي يسألني عن مكاني، لم يكن يعلم أنني عدت إلى الدراز بعد أن أوصلته، فأخبرته، فقال لي: «تعالى أريد رؤيتك». فقلت له: «لماذا تريد رؤيتي؟» فكرر جوابه: «تعالى أريد رؤيتك». ذهبت إلى المكان الذي حدده لي، فسلم عليّ وأعطاني هواتفه ومحفظته وودعني قائلاً: «في أمان الله أنا وأنت»، فقلت له: «تيسر، يسّر الله أمرك». افترقنا ولم نكن نعرف ما إذا كان أحدنا سيرى الآخر مرة ثانية.

عدت إلى البيت الذي نحتشد فيه، وهناك سألتني صديقتي: «والآن كيف ستتواصلين مع زوجك وهواتفه عندك؟» قلت لها: «هو ومن معه ونحن تحت رحمة الله».

عند الساعة الثامنة وعشر دقائق تقريباً، حصل الهجوم. وصلتنا الصور الأولى لدخول القوات ومحاولات الشباب منعها من التقدم قبل أن ينقطع الإنترنت. عند الساعة التاسعة إلا ثلث تقريباً، تسربت إلينا روائح مسيلات الدموع. خرجت النساء من البيوت، الشوارع غارقة بروائح الغاز المسيل للدموع. كنا نخرج

إلى الشارع قليلاً، فنختنق ونعود إلى داخل البيت، ثم نعاود الخروج بعد أن نسترد أنفاسنا. كانت معركة حقيقة بين طرفين غير متكافئين. نشاهد في الجو أشكالا مختلفة من مسيلات الدموع وألوان مختلفة، نسمع فرقعة الرصاص الانشطاري وهو يتفكك في الهواء، نسمع صراخ الشباب، نراهم يتراكمون هنا وهناك، معظم الشباب يتوافدون على المشارف لإعاقة تقدم القوات، وعند بيت الشيخ لحمايته، لكن ماذا يمكن أن يفعل الذين لا يملكون إلا أرواحهم في وجه كل هذه الجيوش.

صورة الشهيد الأول

خرجنا نستطلع الوضع، فإذا بمجموعة من القوات أمامنا. دخلنا إلى أقرب بيت، فأطلقوا النار على الباب حتى ظننت أن الباب سينكسر وسيقتحمون المنزل. لم نعد قادرين على التنفس، كلما شعرنا بلحظة هدوء، خرجنا فإذا بمجموعة أكبر تتقدم. كانت قلوبنا على الشباب في الخارج ولا نعرف ماذا يحدث لهم. ثم وصلت إلينا عبر وسائل التواصل صورة أول شهيد، كانت صورة الشهيد زين الدين، رأتها إحدى النساء ودخلت في حالة هستيرية وأغمي عليها، قيل إنه من أهلها، حاولنا تهدئتها.

كان معنا في البيت طفل رضيع عمره لا يتجاوز عمره ستة أشهر، كاد يخنق برائحة المسيلات، فأخذه إلى غرفة المخزن في البيت في محاولة لإبعاده عن الرائحة قدر الممكن، وغسلوا وجهه بالحليب واستخدموا لإنعاشه البصل والعطر. كان وضعه مخيفاً، فقد اعتقدنا أنه سيموت بين أيدينا. كان الطفل مع عمته وسألت عن والدته فقالت: «لا أعرف أين صارت».

عندما شعرنا أن الوضع هداماً قليلاً ناحية البيت، خرجنا لمدة دقائق ومشينا مسافة، فرأينا مجموعة من القوات، وكادوا يطلقون النار. صرخت بهم امرأة: «ويش تبغون تضربونا بعد؟» قال لها: «ادخلي لا توقفين في الطريق». وهنا، لمحنا أحد الشباب ملقى على الأرض بين سحابة الغاز المسيل للدموع. لم نكن نعرف ما إذا كان شهيداً أم مصاباً أم أنه وقع بسبب الاختناق، وكنا نريد رفعه وإسعافه، لكن القوات كانت تطلق المسيلات بكثافة، من دون توقف، فلم نتمكن من الصمود ودخلنا البيت.

اقتحام تركي الماجد

عند أذان الظهر، صرنا في أحد البيوت اللصيقة ببيت الشيخ (بيت العلوة). كنا نحاول الخروج والقوات توجه الأسلحة صوبنا وتصرخ فينا للدخول. عندما حل وقت الصلاة، كنا نحاول استجماع أنفسنا لأدائها، تفاجأنا بالباب يُفتح ويدخل علينا تركي الماجد ومعه سلاحه وهو يقول لنا: «السلام عليكم»، وهو يضحك. دخلت وراءه مجموعة من القوات، وأمرنا أن نخرج هواتفنا جميعنا ونعطيها لهم. صُدمنا بما يحدث أمامنا، بعضنا أخرجنا هواتفهن، فيما بقيت الأخريات واجمات، في حال من الصدمة والذهول. صرخ فينا: «طلعوا تلفوناتهم وكل وحدة تحطه قدامها يا...» وكال لنا من الشتائم والألفاظ القبيحة والأوصاف ما لا يمكنني ذكره. ثم أخذ صور الشيخ وقام يمزقها ويدوسها وهو يشتم ويسب ويلعن ويستفزنا ونحن صامتات. ثم جاء وجلس على الكرسي الذي تجلس عليه أختي، فتنحت جانباً كي تترك مسافة بينها وبينه، فالتفت لها وسألها: «ليش تدنيتين؟» فلم تجبه، ثم قال لنا: «تتوقعون شنو بسوي فيكم؟» فكان جوابنا الصمت.

ثم سأل: «وين الصبيان؟». قلنا: «لا ندري عن أحد»، سأل: «بيت من هذا؟ قلنا: «بيت راعيه». سأل: «ليش دخلتوا هنني؟» قلنا: «كنا نجلس هنا».

ولسوء الحظ، كانت صاحبة البيت مريضة، إذ خضعت قبل فترة لعملية في القلب، ويبدو أنه قد أُدخل أحد الشباب المصابين إلى المنزل ورأت الدم فأغمي عليها، وحملتها العاملة إلى الداخل.

التفت تركي الماجد ناحية إحدى الغرف المقفلة وسأل: «من في هذه الغرفة؟» فذهبت عاملة المنزل لإحضار المفتاح، لكنه لم ينتظر ورفس الباب برجله وكسره ولم يجد شيئاً. فراح يصرخ فينا: «وين خشيتونهم؟» يعني الشباب. ثم صعد إلى الطابق الثاني وأحضروا ابن صاحب البيت الذي كان مريضاً هو الآخر، وظل يصرخ فينا: «تقولون ما في أحد»، فأخذوه، ولما جاء والده وعرف أنهم أخذوا ابنه صار يبكي خوفاً عليه، فقلنا له: «اذهب إليهم وأرهم هوياتكم»، فذهب إليهم وأراهم الهويات وأخبرهم أن ابنه مريض فأخلوا سبيله.

أما بخصوص الهواتف، فقد جمعوا هواتفنا بعد أن وضعناها أمامنا. وفي هذه الأثناء، سمع هاتف إحدى الأخوات یرن ولم تكن قد أخرجته. فقال لها: «أعطيني هاتفك»، فقالت له: «أنا منقبة ولن أعطيك هاتفني لأن فيه صوري، يمكن لشرطة نسائية أن تفتش هاتفني وأنت لا يحق لك أخذه»، ورفضت أن تعطيه إياه، فغضب وسحب الهاتف من يدها وضربه بالجدار.

تكسير الشوارع

بقينا في ذلك البيت حتى تمت السيطرة على الوضع بالكامل

في الخارج. انتهى كل شيء ونحن لا نعرف ماذا حدث للشباب، بدأنا بعدها نسمع أصوات تكسير المضافات في الساحة، ثم سمعنا صوت جرافات تجرف الأرض وتكسر الإسفلت في الساحة كأنهم يبحثون عن شيء، سلاح أو ما شابه. كانت قلوبنا تنقطع على المكان الذي استضافنا لمدة عام كامل، لكن رغم ذلك، كنا نقول فليذهب المكان ولتسلم الأرواح. الأجواء تشعرنا بالغصة والرغبة في البكاء. تمكنا بعد ذلك من الخروج والتنقل بين البيوت القريبة. كنا نحاول معرفة أي خبر من هنا أو هناك، الناس بعد هدوء المعركة صاروا يريدون معرفة مصير أهاليهم، لم يعد ممكناً الاتصال بأحد، الخطوط لم تكن تعمل.

القوات ظلت موجودة عند بيت الشيخ. وكانت هناك مجموعات تسير في الشوارع، لم نعش مثل هذه الأجواء من قبل. منطقة هادئة عادة، تعيش أجواء حرب حقيقية. شعرنا بالوحشة وبنهاية الأشياء كلها، كانت أجواء لم نشهدها طيلة حياتنا.

قبل أذان المغرب بقليل، توجبت علينا المغادرة. بيوتنا وأطفالنا لا أحد لهم، ولا نعرف شيئاً عن أزواجنا، ولم يعد هناك أي شيء يمكننا فعله. خرجنا من الدراز من الأطراف قبل أن يحل الظلام وتصير الحركة أصعب وأكثر خطورة، لم يكن من الأمن العبور من خلال الساحة، كنا مجموعة كبيرة، لكننا توزعنا بحيث نخرج بشكل ثلاثي كي لا نلفت الأنظار. وصلنا إلى سيارة إحدى الأخوات، فركبنا معها وأوصلتنا إلى بيوتنا. وصلتُ إلى منزلي بعد أذان المغرب.

بدأنا نتواصل مع معارفنا. أخبار الشباب وأزواجنا وكل من

نعرف مقطوعة كليًا. كانت كل واحدة تسأل الثانية عن مصير الأهل والشباب ولا جواب. كنا نسأل عن الأهالي والجرحى والشهداء والمعتقلين والمصابين، نشعر بفقد كبير ووحشة. كان زوجي مفقودًا ولا علم لي بمكانه، وبما حلَّ به. غالبًا اعتُقل. بقيتُ لمدة شهر كامل أعيش أجواء ذلك اليوم. لم يكن يفارقني الشعور بالفقد والحزن على الشهداء والمصابين والمعتقلين.

صادق حسين:

هكذا حوّلوا البيت الملاصق لبيت الشيخ إلى وكر تعذيب

الساعة بين الثانية عشر والواحدة من ظهر يوم 15 يناير/ كانون الثاني 2017، كنّا نجلس عند بيت الشيخ عندما انتشر خبر تنفيذ حكم الإعدام بحق الشهداء سامي مشيمع وعباس السميع وعلي السنكيس بتهمة قتل الضابط الإماراتي طارق محمد الشحي. وعلى الفور، استنفّر الجميع في الساحة، وهاجوا، وصار قرع الطبول، وتجمهر الناس كبارًا وصغارًا من كل جهة وناحية.

اعتقالات وهجوم

توجه الناس إلى الشارع العام، وهناك بدأت القوات بالقمع، مستخدمة الشوزن ومسيلات الدموع والرصاص المطاط. أصيب عدد من الأشخاص، بينهم نساء وكبار في السن وأطفال؛ أحد الأطفال أصيب في عينه. في ذلك اليوم، اعتُقل أحد الشباب المُطاردين.

في فجر اليوم التالي، شنوا الهجوم الغادر على الساحة، راح ضحيته الشهيد مصطفى حمدان. كنّا نجلس في خيمة خلف منطقة الاعتصام، نُصِبَت هذه الخيمة بهدف رصد أي تحرك غريب في المحيط. دخلت قرابة سبع سيارات مدنية، كنت أجلس في الداخل مع أحد الشباب، وكان هناك خارج الخيمة شابان آخران. تفاجأنا بدخول سيارات مدنية في هذا الوقت، توقفت،

ونزل منها رجال بتياب مدنية وبوجوه مكشوفة، ظننا في بادئ الأمر أن بينهم شجاراً أو ما شابه، لكننا تفاجأنا بهم يتوجهون إلى صناديق سياراتهم ويخرجون أسلحتهم، وهنا استوعبنا ما يحدث، وبدأنا نراجع نحو الساحة، تم اعتقال الشباب المتواجدين داخل الساحة. ركضنا، أنا ومن معي في الخارج، باتجاه الساحة ولحقنا اثنان منهم، حتى تمكنا من الوصول عند الساحة، وصرخنا بأعلى أصواتنا لنادي الشباب، فخرجوا إلينا وتجمعوا.

بعد إصابة الشهيد مصطفى، أدخلوه إلى أحد البيوت. دخلت لأسعفه، فلديّ شهادة في الإسعافات الأولية وكنتُ أعمل مع مسعفين في الاعتصام، وجدتُ أن حالته خطيرة جداً، فخرجت لأنادي مسعفاً آخر، وأحضر شنطة الإسعاف. لكن أخاه محمد تولى نقله فوراً إلى المستشفى لخطورة وضعه، لم نكن حينها نعرف شيئاً عن إصابته، عرفنا لاحقاً أن الرصاصة كانت في رأسه.

نقله أحد الشباب بسيارته، وتبعه محمد، أخو الشهيد. ذهبوا في بادئ الأمر إلى مستشفى خاص، رفض إدخالهم أو حتى تقديم إسعاف أولي له، فتوجهوا مباشرة إلى السلمانية. وبمجرد وصولهم إلى المستشفى، عاد الشاب المرافق له إلى الساحة، وبقي معه أخوه، طلب رجال الأمن من محمد بطاقته فأخبرهم أنها في السيارة وأنه سيذهب لحضارها، خرج إلى سيارته، ولم يعد. ذهب إلى الساحة، وكان قد اطمأن أن والدته صارت مع أخيه في المكان الصحيح.

صامدون في الساحة

بعد استشهاد مصطفى حمدان، تغيرت الاستراتيجية، وتم

تحديد خمس نقاط مراقبة. كنت جالساً أراقب عند واحدة من هذه النقاط حين دخلت مدرعة ذات مساء، بعد صلاة العشاء، خلال فقرة الهتافات عند بيت الشيخ، أخبرت الشباب عبر البرقية أن مدرعة دخلت وهي تتقدم، تقدّمت لمسافة قريبة وبدأت تطلق رصاص الشوزن، فتركت نقطتي وانفضّ مكان الاعتصام، هناك من تراجع من الشباب، وهناك من تقدّم وحدثت إصابات، صمد خلالها الشباب إلى أن تراجعت المدرعة.

أنا من منطقة الدراز، كنت أدرس في الجامعة عندما بدأ الاعتصام، بقيت في الساحة من اليوم الأول حتى اليوم الأخير. لم أغادر المكان إلا إلى الجامعة. لم يكن أحد من الشباب يغادر الساحة خلال هذه الفترة، كانوا يتصلون بأهاليهم ليحضروا لهم الملابس. بعد العيد، بدأ الناس يتحركون بشكل محدود لزيارة الأهالي وقضاء الحوائج والالتزامات، أما المطلوبون، فكانوا ملازمين للساحة لا يبارحونها.

في إجازة الصيف أتواجد بشكل دائم في الساحة. أما بعد الإجازة، فأذهب إلى الجامعة ثم أعود، وأدخل من خلال الحديقة لأنها آمنة وتكشف الشارع بالكامل ويمكنني رؤية أي تحرك قد يستهدفني.

في الهجوم الثاني الذي حدث صباحاً، سمعت الخبر وأنا في الجامعة، فغادرتها بشكل سريع ووصلت إلى الدراز. كانت المنطقة محاصرة والقوات متشرة عند حديقة الدراز التي تعودت الدخول منها، فاضطرت للذهاب إلى منفذ آخر مقابل قرية المرخ، نزلتُ هناك، ودخلت إلى القرية. كانت سيارات الجيب

منتشرة، وبدؤوا بملاحقتي، رحت أركض ولا حقني أحدهم وهو يصرخ: «توقف وإلا أطلقت النار عليك»، واصلت الركض حتى وصلت إلى داخل المنطقة ورآني أحد الشباب فأصعدني في سيارته، قرب الساحة قبل أن يصلوا إلينا.

في إحدى المرات، دخلت قوات الأمن إلى حي الديرة في الدراز من دون أن نتبه لهم، اقتربت سياراتهم، وأمسكوا بعض الشباب، لكنهم تمكنوا من الهرب باستثناء واحد منهم، رماه الشرطي على الأرض وجثم على صدره. سأله عن اسمه وعمره قبل أن يقوم عنه ليطلق النار عليه ويصبيه بطلقة شوزن في قدمه ثم يتعد عنه. تراكض الشباب نحوه، وحملناه إلى أحد البيوت للعلاج، كان المصاب صديقاً للشهيد مصطفى الذي عاد ليسأل عنه، فلم يجبه أحد عن مكانه حفاظاً على سلامة المصاب ولأسباب أمنية، ظل هذا الشاب لا يستطيع أن يدوس على الأرض بقدمه لفترة، إذ إن الشوزن تسبب بأضرار في منطقة الكاحل بالكامل، ما اضطره للخضوع لعملية، أخذ الأطباء فيها الجلد من منطقة الفخذ لترقيع مكان الإصابة.

الليلة الأخيرة

كنا نجلس عند إحدى نقاط التفتيش، وبقي الشهيد محمد الساري معنا حتى الساعة التاسعة مساء ثم غادر لأن لديه عملاً صباحاً، لكن ما إن انتشرت الأخبار المؤكدة عن الهجوم حتى عاد، وراح يوصينا: «ابقوا ثابتين، لا يغادر منكم أحد، لا تسلموا الشيخ، كونوا يداً واحدة ولا تسمحوا لهم بالدخول»، وفي هذه الأثناء قام بإرسال رسائل صوتية عبر الواتس أب يدعو فيها الناس

إلى التواجد في الساحة، ويقول لهم إن مداخل الدراز مفتوحة، وإنه للتو دخل منها، ثم اتصل بعائلته وتحدث مع زوجته.

في الصباح، خرجتُ إلى الشارع العام، فرأيت قوات خاصة ورجال أمن وبعض السيارات المدنية في محيط المنطقة، يقومون بالتصوير وظلّوا واقفين لفترة فعدنا إلى الساحة. بعد بعض الوقت، جاء أحد الشباب مسرعًا ونادانا: «لقد دخلوا». خرجنا، أمامنا طابور طويل من المدرعات. ذلك المشهد الذي أظهرته الصور للشباب وهم يعتلون إحدى المدرعات بأكفانهم. في تلك اللحظة، خرجت القوات وبدأت بإطلاق النار بكثافة؛ أُصِبت بطلقة شوزن، وبقينا هناك أكثر من ساعة في مواجهة بين كرّ وفرّ، حتى تم إغراق المنطقة كلها بمسيلات الدموع ولم يعد ممكنًا الصمود أكثر، وانسحبنا نحو الساحة.

عندما وصلنا إلى الساحة، كان المكان محاصرًا من كلّ الجهات، والشباب يحيطون ببيت الشيخ، دخلتُ من خلال منفذ خاص أعدّه الشباب لتتمكن من الدخول إلى بيت الشيخ لحمايته، الشهداء كلهم هناك إلا الساري الذي سقط في المواجهة خارجًا. دخلت إلى البيت المجاور لبيت الشيخ، فوجدت الشباب يحاولون إسعاف الشهيد محمد زين الدين وقد اخترق الشوزن صدره، فلم يعد قادرًا على التنفس، بدأ الدم ينزف من رقبته وفارق الحياة. في هذه اللحظة، قرر الشباب أخذه إلى القوات في الخارج، لعلهم يسمحون للإسعاف بأخذه. وما أن أخرجه، حتى قامت القوات بضربهم وتركه عناصرها ملقى على الأرض من دون إسعاف، ولما وجد الشباب أن الشهيد ظل ملقى على الأرض، خرجوا مرة

أخرى وسحبوه إلى الداخل وكان قد فارق الحياة. فوضعوا جثته عند زاوية في البيت وغطّوها، وعدنا إلى بيت الشيخ.

في داخل بيت الشيخ، كنّا قرابة الستين شابًا. الجميع يهتفون بمعنويات عالية وتكبيرات، الكل يحمّسون بعضهم البعض. إخوة الشهيد محمد الساري معنا، وحينها لم يكن قد انتشر خبر إصابته بعد. وحين علمت بالأمر، وأنّه في حالة خطيرة، وقفت مع أحد إخوته جانبًا، وأخبرته عن إصابة أخيه، وأنه قد يصعد إلى السماء شهيدًا، بعدها حاول إخوته معرفة أي شيء عن وضعه، فلم يتمكنوا لأنّه قد تم نقله بالإسعاف.

ثم بدأت القوات تحيط بمنزل الشيخ وقامت باعتقال الشباب خارج منطقة الصبيات⁽¹⁾ المحيطة ببيت الشيخ، وأخذوا يرمون علينا مسيلات الدموع ويطلقون رصاص الشوزن من فوق الصبيات، والشباب صامدون داخلها. حاول الشباب إبعاد القوات بإلقاء الحجارة على العناصر من خلف الحاجز وكل ما يقع تحت أيديهم، لكن لم يتمكنوا من فعل شيء أمام وابل المسيلات ورصاص الشوزن. صمد الجميع في الداخل وكان الكل يشجعون بعضهم البعض: لا خيار، إما الشهادة أو السجن.

سَلِّمْ نَفْسَكَ بِنْتِ رَكْه

حلّ وقت صلاة الظهر، فتناوب الشباب بين الصلاة والحراسة. في هذه الأثناء، حطّمت القوات الباب، واستطاعت اقتحام المكان وكأنها تقتحم ساحة حرب؛ كان دخولها هستيريًا، وكان العناصر يطلقون الرصاص على كل شيء يتحرك. تراجع بعض الشباب

(1) أي منطقة الحواجز الإسمنتية.

فيما واصل البعض الآخر المواجهة مثل الشهيد محمد حمدان الذي رفض الجلوس أو الانصياع إلى أوامرهم فأطلقوا النار عليه بدون تردد. كان الشهيد حمدان دائم اللوم لأخيه الشهيد مصطفى أنه تعجّل عنه بالرحيل، فقد تواعدا على الشهادة معاً، ولم يكن ليرضى بغير اللحاق بأخيه في أسرع وقت ممكن.

شاهدت أحدهم وهو يطلق رصاص الشوزن على ركبة أحد الشباب حتى سقط على الأرض غير قادر على الحركة، صاح فيهم شاب آخر بأن يتركوه، فقالوا له: «سَلِّمْ نفسك وبنتركه»، وبالفعل سَلِّم نفسه لهم، فنقلوه في سيارة مدنية وتركوا المصاب على الأرض. كان هذا الشاب من بين الذين لُفِّقَتْ لهم فيما بعد القضية التي اشتهرت بخلية اغتيال المشير. ثم أُصيب شاب آخر عند باب بيت الشيخ بطلقة في صدره، وتم تجاهله على الرغم من مطالبة الشباب بإسعافه، فكان العناصر يأمر ونهمم بالابتعاد عنه وإنزال أيديهم والانبطاح على الأرض.

كنت من بين الذين تراجعوا إلى الخلف. ابتعدنا قليلاً عن بيت الشيخ والبيت الملاصق له، كنت أختنق بسبب مسيلات الدموع، ولم يعد ينفع مع حالتي أي قناع واق. وبعد أن سيطرت القوات على بيت الشيخ، بدؤوا يقتحمون البيوت المجاورة له ويعتقلون كل الموجودين فيها.

كنت في بيت زين الدين الملاصق لبيت الشيخ، هذا البيت تم تحويله إلى وكر تعذيب، ومقرا التعذيب فيه المطبخ وغرفة النوم، هناك وقف الجلادان تركي الماجد ونجم الماجد، يتأكدان ما إذا كان كل شخص من بين المعتقلين كان مطلوباً أم لا، ثم يسألانه:

«ماذا تفعل هنا؟»، ثم يقولان له: «اذهب إلى المطبخ وقل لهم اضربوني»، وما إن يدخل إلى المطبخ، حتى يبدأ الهجوم عليه والضرب بالفؤوس وأدوات المطبخ من مقالٍ وقدرٍ وغيرها، ويُلقى به على الأرض مع الباقين، بينهم من هو مطلوب ومن هو غير مطلوب، كما كان هناك كبار في السن.

أما غرفة النوم فكان يوجد بها أدوات خيالة: حزام الخيل وعصا الخيَّال، فكانوا يستخدمونها لضرب الشباب، فيُلقي بكل من يتم إدخاله إلى الغرفة على السرير ويتم ضربه بالعصا، حتى انكسر السرير، وتم تكوين الشباب فوق السرير المكسور واستمروا في ضربهم جميعاً بالعصا والحزام.

ثم بدؤوا يأمرونا بإخراج هواتفنا وتكسيرها بأنفسنا. أعطاني أحدهم فأسأ وأمرني بكسرها تفني، لم أتردد للحظة. آخر أعطى أحد الشباب (سيخاً) وقال له: «اكسر تلفونك»، لم يقبل بذلك، فوضعوا هاتفه في المرحاض. بعض المدنيين قاموا بسرقة هواتف بعض الشباب من دون علم الضباط. بعض الشباب أدخلوهم الحمام وقالوا لكل منهم: «اقرأ الشهادة لأنني سأقتلك الآن». كانوا يلعبون بأعصاب الشباب، ثم أخرجونا وجمعوا هواتف الباقين في كيس وأخذهم تركي الماجد وقال: «بروح أبيهم في سوق المقاصيص ولن أترك لكم شيء»، وكانوا يأمرونا أن نردد شعارات مثل: «عاش الملك/ يسقط عيسى قاسم/ عاش سيدي ترامب/ عاش عمي ترامب» وهم يضربوننا، وأمرنا أن نشتم الشيخ علي سلمان والأستاذ حسن مشيمع والأستاذ عبد الوهاب حسين.

بعدها، أخرجونا من المنزل وجمعوا الشباب في منطقة واحدة وبدؤوا بتوزيعنا في باصات. عندما خرج الباص الذي نُقلت فيه إلى الشارع، هجمت عليه مجموعة من الشباب. حاول السائق تفاديهم فانفجر أحد الإطارات، فذهبوا بنا إلى مركز شرطة البديع لتبديله، ومنها إلى مبنى سجن جو حيث تم تحويل مبنى 15 إلى مبنى تحقيق وأمن دولة.

تحقيق وتعذيب

علمت أنهم أخذونا إلى مبنى سجن جو لأنني أزلت الصماد من عيني؛ كانت أيدينا مقيدة إلى الخلف، وغطّوا وجوهنا بقمصان التيسرت التي نرتديها، لكن معظمنا أزالها عن وجهه، فضربونا لكن لم يعيدوها ثانية، فكنت أرى الطريق طوال الوقت، مررنا من خلف مقر شركة ألبا، عند آبار النفط على الدورات، إلى أن وصلنا إلى سجن «جو». نزلنا من الباص، تنتظرنا فرقة من المدنيين قامت بتصميد أعيننا، ثم تولانا عناصرها بالضرب والركل طوال مسيرنا إلى الداخل. أبقونا واقفين منذ وصولنا إلى ما قبل أذان الصبح.

تم التحقيق معنا، البعض يرتدي (الكفن) وآخرون قميص تيسرت قطني عليه صورة الشيخ عيسى قاسم أو صورة الشهيد مصطفى. أخذوا يضربون مرتدي هذه القمصان ويمزقونها ويقولون لهم: «سنأخذكم إلى الغرفة السوداء». ثم راحوا يزيلون الصمادة عن أعيننا واحداً تلو الآخر، ويعرضون علينا صورة الشهيد محمد العسكري وهو غارق في دمه ويسألوننا: «من هذا؟» لم يحصلوا على جواب حتى من الشباب الذين يعرفونه، ثم

عادوا وأرونا الصورة أثناء التحقيق معنا لأنه الشهيد الوحيد الذي لم يكونوا قد عرفوا هويته بعد.

فوجئت في التحقيق بخصوص الاعتصام. كنت أتصور أنّ لديهم معلومات أكثر مما ظهر لي، وتبين أنهم لم يكونوا يعرفون أي شيء عن الكثير من الأمور التي قمتُ بها.

التعذيب كان بمعظمه نفسيًا، يصحبون الشخص إلى غرفة التعذيب، يأمره الضابط بخلع ملابسه كاملاً، ويتم تشغيل المكيف لتصير الغرفة شديدة البرودة، ثم يبدأ التعذيب والتلاعب بالنفسيات.

بقينا في مبنى 15 في سجن جو حوالي شهر كامل. استمرت التحقيقات لأيام ثم أوقفوها لاحقاً. لكنهم ظلوا ينقلوننا من غرفة إلى أخرى في المبنى ذاته في الأيام الباقية. بعد مرور 26 يوماً تقريباً، صاروا يأتون كل يوم وينادون على مجموعة من الأسماء ينقلونهم إلى سجن الحوض الجاف. وهناك، أخبرونا أنه قد تقرر توقيفنا لمدة ستة أشهر.

الفصل الرابع:

علماء عند الباب

الشيخ عبد الجليل جعفر:

طلاب الحوزات من الظل إلى الواجهة

أُمضيتُ في ساحة الاعتصام قرابة عام كامل. أقمْتُ في بيت تم تخصيصه للمشايخ. قبل اعتقال كبار المشايخ، كنت في الظل ولا يعرفني أحد. هم الذين يتصدّون لصلاة الجماعة، وأنا أقسمُ وقتي، بين فترة أفضيها مع الشباب كي أرتبط معهم، وأخرى مع المشايخ كي أتعلم منهم كيف يديرون الساحة، وكيف يديرون الوضع، وأستفيد من خبرتهم. وكنت أجمع بين الأمرين.

لكن لم تستمر الأمور بصورتها المثالية طويلاً:

في 7 يوليو/ تموز 2016، اعتُقِلَ الشيخ محمد صنفور.

في 20 يوليو/ تموز، اعتُقِلَ الشيخ سعيد العصفور.

في 30 يوليو/ تموز، اعتُقِلَ السيد مجيد المشعل.

في 3 أغسطس/ آب، اعتُقِلَ الشيخ علي الجفيري والشيخ حميدان.

في 4 أغسطس/ آب، اعتُقِلَ الشيخ محمد جواد الشهابي وتم توقيف الملا سيد علي.

في 7 أغسطس/ آب، اعتُقِلَ الشيخ فاضل الزاكي.

في 9 أغسطس/آب، اعتُقل السيد ياسين الموسوي والشيخ عزيز الخضران والشيخ منير المعتوق، والشيخ عماد الشعلة.

خلت الساحة من المشايخ وبقيت وحدي. كل من يؤم الجماعة، يتم استدعاؤه وتوقيفه. صرْتُ أمام الأمر الواقع، قال لي الشباب: إما تتقدم أو يُكسر الاعتصام، لأن عدم وجود صلاة جماعة سيُضعف الاعتصام بشكل كبير.

رُتبت جدول إمامة الصلاة مع 7 مشايخ آخرين، كي لا نلقت النظر إلى شخص بعينه، بحيث يناوب كل شيخ ليلة، أي المغرب وفجر الليلة، حتى يكون هناك تنوع في العدد وفي الأشخاص، وفي الوقت ذاته، لا تُمكن الحكومة من معرفة الشيخ الذي يصلي. يدخل الشيخ ملثماً ويخرج كذلك، وهناك رقابة موجودة في الخارج. لا أحد يعرف من يصلي في الساحة سوى مجموعة محددة وموثوقة. وبالفعل، استمرت هذه الخطة حتى اليوم الأخير من الاعتصام، وانقضت من دون استدعاء.

في بادئ الأمر، لم تكن زوجتي معي. لكن بعد اعتقال المشايخ بقيت وحيداً، فأحضرتُ زوجتي وابني البالغ من العمر عامين وسكنّا في الدراز، لم أكن أخرج ولا أدخل. ولدي كبر هناك وصار عمره ثلاث سنوات.

كان هذا دوري، أوُم صلاة الجماعة، وأرتب الجدول، باعتبار أن البقية لا يقيمون هناك بشكل دائم، وإنما يخرجون ويعودون، وفي حال لم يستطع أحدهم الدخول، كنت أغطي مكانه، بما أنني متواجد طوال الوقت. مع الأيام، قلَّ عدد المشايخ، بين من

سافر ومن بقي. فأصبحت أتصدي لصلاة الصبح وحدي طوال الأسبوع، وأتناوب على صلاة المغرب مع بعض الأشخاص.

امتحان آخر

كان عدد الشباب المرابطين هناك طوال فترة الاعتصام محدودًا ومعروفًا. صرنا أسرة واحدة ذات قلب واحد وهدف واحد. نعرف بعضنا البعض، ونسأل عن بعضنا البعض. ودائمًا نذكر أنفسنا بالتضحية والفداء والشهادة. يستدعونني إلى المجالس كي ألقى كلمات، وإلى النقاط حتّى أحمس الشباب. لمست أثرًا كبيرًا للحكايات الشيخ بهجت، كنتُ أحضرها لهم، وأشاهد كيف تشرّب أعناقهم لسماعها، يحبها الشباب كثيرًا.

يطلب الشباب أن أربط كلمتي دائمًا بالشهادة. حتّى لو كان موضوعها فقهيًا مثلاً، أجد لها مخرجًا وأربطها بالشهادة. دائمًا يحفظون أنفسهم على عناوين الشهادة.

بشكل عام، وبسبب وجود المخابرات، كان عليّ الحذر من الاختلاط المفتوح، كي لا يعرف أحد أنني أنا من يؤم الصلاة. لذلك ما كنت أذهب إلى مكان إلا بعد الاطمئنان التام لكون هؤلاء الشباب ثقة.

كانت لدي علاقة مع الشهيد أحمد جميل العصفور. اضطررت، بسبب وضع ما، أن أخرج من بيت المشايخ إلى شقة قريبة، وعملتُ والشباب على إعداد هذه الشقة. كان الشهيد يبقى معنا من الصباح إلى الليل نعمل سويًا، وكلما قلتُ له: «أحمد يكفي، تعبنا: اذهب وارتح»، يقول: «لا، يجب أن أنهي العمل».

كان شديدًا في الاحتياطات. غطّى النوافذ بأكملها بالجرائد حتى لا يظهر شيء، مع أن بعض زجاج النوافذ لا يرى من خلاله.

لدي خاطرة مع الشهيد محمد حمدان، في ليلة الهجوم الأخير، كنت جالسًا مع أحد الأشخاص، وجاء الشهيد. ناداه هذا الشخص، فسلمّ وجلس. قال محمد: «غداً لدي امتحان في الجامعة الساعة 10 صباحًا، ولا أعرف ماذا أفعل؟» كان الوقت قريبًا من الفجر، ونحن في انتظار ما سيحدث. قرر محمد تقديم الامتحان الآخر، وقد نجح فيه، وارتقى بأرفع درجة.

محاولات جسّ النبض

خلال الفترة التي تم فيها استدعاء المشايخ، تحديدًا في 19 يوليو/ تموز، كنتُ مع شخص آخر نائمين في بيت المشايخ. الساعة حوالي الرابعة عصرًا سمعنا أن هناك هجومًا. قمنا على الفور وأبدلنا ملابسنا وخرجنا. رأينا مدرعة ومجموعة سيارات جيب عند مآتم الحيدرية وقد تمت محاصرة الموجودين في داخله. ورأيت استنفار اندفاع الناس وخروجهم في وجه قوات الشغب، كل ممسك بيد الآخر، ويتقدمون أمام المدرعة، لم يكن لديهم شيء إلا قبضاتهم. تقدم الشباب في وجه المدرعات بحماس وقوة. ثم انسحبت القوات بعد قرابة 15 دقيقة. بقينا في الساحة ولبسنا الأكفان، وخرجت مسيرة تنديد بالهجوم.

في يوم 21 ديسمبر/ كانون الأول 2016، وأثناء خروجي إلى بيت أحد المشايخ، سمعت صوت حركة غريبة في الساحة وكان اثنان من الشباب يهتفان ويصرخان. كان الشيخ محمد قد أعلمني منذ الصباح بأنه قد يحدث شيء اليوم، لكنني لم ألحظ أي شيء

في الظاهر إلى أن سمعت هذه الأصوات. وضعتُ كتبي وأوراقي في السيارة، وذهبت إلى الساحة لأعرف ما حدث. ما إن وصلت، حتى رأيت قوات الشغب والمخابرات في وسط الساحة، كانوا قريبين من بيت الشيخ، وهناك مروحتان، مع إطلاق غزير للغازات المسيلة للدموع. فبدأت أهتف مع الشباب، وكنا ثلاثة فقط. في ذلك الوقت، كانت الساحة شبه خالية في الصباح بسبب الأعمال والمدارس والجامعات. دخلتُ إلى منطقة الحواجز المحيطة ببيت الشيخ، ولم يكن فيها إلا عدد قليل. أخذنا نكبر بصوت قوي كي يبدو العدد كبيراً، فهم لا يرون الداخل، واستخدمنا المكبرات. بدأ إطلاق النار، وبدأ الناس يتوافدون، وحدثت مواجهات بالحجارة، ثم رحلت القوات بعد وقت قليل.

قبل هذا الهجوم، لم يكن الشباب قد أغلقوا الشوارع الخارجية، كي لا يقدموا للسلطة ذريعة مفادها أن المعتصمين أغلقوا الشوارع وأعاقوا حركة الناس فتكون تلك حجة للهجوم. لكن بعد هذا الهجوم الذي وصلوا فيه بكل هذه السهولة إلى بيت الشيخ، أغلق الشباب الشوارع المحيطة منذ ذلك اليوم. خرجنا في مسيرة احتجاجية وكانت ضخمة جداً.

لم أكن حاضراً في الهجوم الثاني الذي وقع في 25 يناير/ كانون الثاني 2017، وراح ضحيته الشهيد مصطفى حمدان، كنت نائماً ساعة حدوثه، وعندما سمعت المكبرات وذهبتُ إلى الساحة، كانت القوات قد رحلت.

حماية الشيخ لا الاحتفاء به

بخصوص الشباب المطلوبين، قد يفكر البعض أنهم جاؤوا

إلى الاعتصام لكي يحتموا ويحصلوا على ملاذ، لكنهم لم يكونوا كذلك. كان هدفهم حماية الشيخ لا الاحتماء به. وفي يوم الهجوم الأخير، كانت هناك فرصة لهروب من رغب بالنجاة من الموت أو الاعتقال، خاصة بعد أن أحكمت القوات سيطرتها على المكان وحاصرته. كانت هناك منافذ متاحة للهروب حتى اللحظات الأخيرة، وكان وضع هؤلاء المطلوبين أصعب من الآخرين في حال تم اعتقالهم ووقعوا في يد السلطات التي تطاردتهم منذ سنوات، لكن كثيرين منهم ظلوا مرابطين عند باب الشيخ، حتى تم اعتقالهم هناك، وهم يواجهون الآن أحكامًا بالسجن لمدد طويلة جدًا.

أما شباب المضيف، فقد كانوا يعملون ليلاً نهارًا، وأنا أشعر بالخجل أمامهم. في شهر رجب، يجهزون الوجبات لغير الصائمين، والإفطار والسحور للصائمين. الإنسان يخجل أمام عمل هؤلاء.

منذ صدور الحكم ضد الشيخ، قررت الحكومة إنهاء الاعتصام، فقد صار يسبب لها حرجًا شديدًا سببه أنه يبدو وكأنها غير مسيطرة على الوضع. لقد استمر الاعتصام 11 شهرًا دون أن يرحل الشباب أو يتزعزعوا. لذلك، استدعت السلطات بعض وجهاء الدراز، وجماعة المآثم، وأبلغتهم بوجوب إنهاء الاعتصام. وكان ذلك تبريرًا للقمع بالطبع، وإلا فما دخل الوجهاء وأصحاب المآثم بالاعتصام؟ وما سلطة هؤلاء على المعتصمين؟

سرعان ما تواردت الأنباء عن النية بفض الاعتصام بالقوة. وبدأ في 22 مايو/ أيار 2017 جمع المدرعات في مراكز الشرطة

منذ الصباح. وصلت أخبار أن الهجوم سيكون فجرًا، كما هي عادة الخفافيش. انتظرنا طوال تلك الليلة، ولم يحدث شيء. صلينا الفجر جماعة، وأشرقت شمس الصباح، ولم يكن أي شيء يوحى بما سيحصل. استبعد الناس حدوث شيء في الصباح، فتوجهوا إلى أعمالهم ومدارسهم وجامعاتهم، أما نحن، فتناولنا طعام الفطور، وذهبنا للنوم. عندها، أحضروا الشاحنات وبدؤوا بإزالة الحواجز واقتحموا الدراز.

شوزن في عيني

حاصرونا عند بيت الشيخ، كانوا يتقدمون بشكل دائري، ويحيطون بنا من كل الجهات، وكلما اقتربوا أكثر، ضاقت الدائرة. الشباب قد وضعوا حواجز وأسلاك شائكة حول بيت الشيخ، وهناك فتحة صغيرة للطوارئ نعرفها نحن، بحيث نستطيع، في حال حدوث شيء، الوصول إلى بيت الشيخ للدفاع عنه والحيولة دون دخولهم بيته. حدثت مواجهات، ولم يتوقف إطلاق النار، ولا الغاز المسيل للدموع الذي كان يخنقنا بحيث لا نستطيع أن نتنفس. قررْتُ الذهاب إلى تلك الفتحة، وكان الشباب كلهم يريدون الدخول منها، بعضهم علق ثيابهم في الأسلاك الشائكة.

ما إن وصلت إلى هذه الفتحة، حتى شعرت بضربة على ظهري وسقطتُ على الأرض. كانت طلقة رصاص مطاطية، ثم طلقة أخرى في فخذي. رأيتهم يقتربون منا لا اعتقانا، فركضتُ على أمل أن أصل إلى الباب الخلفي لبيت الشيخ، علّه يكون مفتوحًا، فإذا بي أفاجأ بكتيبة قادمة أطلقت رصاص الشوزن عليّ بشكل مباشر، ودخل الشوزن في عيني اليسرى، ولم أعد أستطيع الرؤية أو فتح عيني.

فتح أحد البيوت المجاورة لبيت الشيخ الباب، ودخلتُ إليه. لم أكن قادرًا على فتح عيني، وكان الدم يخرج منها. كنا قرابة 15 شخصًا داخل البيت. بقينا هناك حتى حلول وقت الصلاة، ثيابنا ملطّخة بالدم. صليّنا فرض الظهر، وبدأت القوات تقتحم منطقة الصبّيات المحيطة ببيت الشيخ. كُنّا نستطيع رؤية ما يحدث من خلال النافذة. بعد ذلك، بدؤوا بإطلاق الشوزن ومسيلات الدموع داخل الحواجز، رأينا المواجهات بالحجارة والضرب، وسمعنا التكبيرات عبر المكبرات، إلى أن خفّ الصوت، فقلنا إن الأمر قد انتهى وإنهم دخلوا إلى بيت الشيخ.

تركونا دون اعتقال

كنت أتلوى من الألم في ظهري لشدة الضربة، التصق الجلد بثوبي، والتصق الدم به. لم أستطع الجلوس بأي طريقة. بقينا هناك واتصلوا بي وقالوا إن القوات دخلت البيت الفلاني وأخذت كل الموجودين فيه. ثم جاءني اتصال آخر، قالوا إنها هجمت. بعد ذلك، انقطع الاتصال، وانقطعنا عن العالم الخارجي، لم نعد ندري ما الذي يحدث في الخارج، إلا أن هناك اعتقالات تمت، حتى حلّ وقت المغرب.

بعد أن أخرجوا الشباب من البيوت كلها، سمعنا صوت جرس الباب، فقلنا إن الأمر انتهى وإنهم سوف يدخلون. فتحنا الأبواب كي لا يكسروها فدخلوا علينا، أجبرونا على الانبطاح أرضًا على بطوننا، وأخذوا أسلاك الكهرباء وأحزمة الشباب، وتولّوا ضربنا ورفسنا. كان الشوزن قد خرق أجساد الشباب، وعوضًا عن الرأفة بهم، انهالوا عليهم بالضرب. أحد الشباب كان مصابًا بالشوزن من رأسه إلى ظهره، فسكبوا الماء على ظهره لكي يزيدوا آلامه،

وجعلوه يتلوّى من حدثها، وانهاّلوا علينا بالضرب بأسلاك الكهرباء.

بعد ذلك، أخذوا هوياتنا وصاروا يتأكدون من المطلوبين بيننا عبر البرقيات، وطلبوا من صاحب البيت أن يتصل بمركز الشرطة ويخبرهم أن أشخاصًا اقتحموا بيته من أجل أن يأتوا لاعتقالهم. الغريب أنهم لم يفعلوا ذلك في باقي البيوت، واعتقلوا مباشرة من فيها. صاحب البيت قال لهم: «بسيطة.. عفى الله عمّا سلف»، فقالوا له: «إما أن تتصل أو نأخذك أنت»، ثم أخذوا أحد الشباب بعد أن تفحصوا بطاقته، وتركوا باقي البطاقات ورحلوا. لم نكن نعرف لماذا تركونا دون اعتقال، ولا ما إذا كانوا سيعودون. خرج صاحب البيت ليرى ما يحدث في الخارج. لم يكن هناك أحد، القوات قد رحلت، والباصات نقلت المعتقلين. عاد إلينا: «لا يوجد أحد في الساحة»، وقف الشباب حائرين لا يعرفون كيف يتصرفون. كنا خائفين من أن يباغتنا شيء.

قررنا أن نخرج اثنين اثنين، حتى تمكّنّا جميعنا من الخروج. وبدا أنّهم اكتفوا بالمئات التي اعتقلوها، فقرروا عدم اعتقالنا. خرجت مع أحد شباب الدراز، أخذني إلى شقته البعيدة قليلًا عن الساحة. أحضر لي ملابس واغتسلت، ثم اتصل بأحدهم كي يأتي ويرى حال عيني والشوزن، كانت شديدة الاحمرار وتنزف دمًا.

عند ظهيرة اليوم التالي، عاين الشباب المكان وقالوا: «بالإمكان أن تخرج بالسيارة». أحضروا لي سيارتي وغادرت، وظلّت عيني تنزف دمًا كلّما ركعت أو سجدت، وبطبيعة الحال لم يكن ممكّنًا الذهاب إلى أي مستشفى، سيرفضون معالجتني

خوفًا من محاسبتهم. لاحقًا، تمكنت من الحصول على العلاج بشكل خاص.

الشيخ جعفر سعيد:

ساحة الفداء وصناعة الشخصية

الكلام عن ساحة الفداء ذو شجون. لكن قد يكون أحد أهم الأمور هو صناعة الشخصيات التي كانت موجودة، كل واحدة من الشخصيات كانت تُصنع بقدر ما، بعضها بمستوى أقل والبعض بمستوى أكثر، لكن الأمر الذي يتفق عليه كل من التحق بالاعتصام، ممن يلتزمون بالحضور كل الوقت أو بعض الوقت، هو القول إنه «في هذا المكان، نشعر بأجواء مختلفة». الأجواء الروحية هناك مختلفة جداً، وكان أكبر درس تعلمه الشباب بشكل عملي هو الفداء والتضحية في سبيل الدين.

كلمته فيصل

منذ صغرنا، كان الشيخ بالنسبة لنا كل شيء، كذلك غالبية العوائل في الدراز خصوصاً. لقد تمّ اعتقاله في العام 2010 لمدة سبعة أشهر قبل الثورة، وكان والدي دائم الخوف عليّ من المشاركة في المسيرات. أجيبه بأنه «إذا لم يتحرك الناس الآن، تصبح التكلفة أكبر لاحقاً»، فيكون ردّه: «إذا أعطى الشيخ عيسى الأمر، يتحرك الناس». الكثيرون من كبار السن يعتبرون أن كلمة الشيخ عيسى هي الفيصل في الأمور الحاسمة.

أنهيت لتوي امتحاناتي في الحوزة في قم عندما أُسقطت جنسية الشيخ. وكنت قد حجزت للعودة في وقت لاحق، لكن

بعد سماعي الخبر، قلت لزوجتي: «يجب أن نستعجل في مسألة النزول». قدّمت تاريخ حجري ونزلتُ إلى البحرين.

بقيت في البحرين لثلاثة أشهر هي مدّة إجازتي، وكنت متردداً بشأن العودة، والواقع أنني كنتُ أريد البقاء، لكن الأهل قالوا لي: «ألا تريد أن ترجع؟» كان بعض الطلبة يقولون: «لعلّ تكليفنا الآن أن ندرس»، وأعداد المعتصمين في البداية كبيرة نسبياً. ترددت أن أخطو خطوة غير سليمة أو تتعارض مع قيادتي.

العودة إلى قم

سألت عدداً من العلماء وبعض المشايخ الكبار المتواجدين هناك، قالوا: «إن تكليفكم الآن أن تعودوا إلى هناك كي تبنوا مستقبلكم»، لم يروِ كلامهم غليلي. كذلك سألتُ عدّة أشخاص وكانوا يقولون لي أن أعود لدراستي. بعض المشايخ الذين تواجدوا في الاعتصام لم يقدّموا لي جواباً صريحاً، لم أدرِ ما السبب، هل هو الوضع الأمني وتحفظهم من أن يمسك عليهم شيء مباشر مثلاً؟ على الرغم من أنني كنت أخبرهم أنني طالب في قم، وأنه لا مشكلة عندي إذا قلتُ لي أن أبقى فأبقى. كان الأمر مبهمًا بالنسبة لي، لكن كان من المفترض أن أقرر البقاء.

سافرتُ على مضض ولم أشعر بارتياح، قلتُ لزوجتي: «لست في مكاني الصحيح». واطبْتُ على متابعة الأخبار والمستجدات بشكل يومي، وظلّت مسألة الاعتصام تؤثر جداً عليّ. ثم حدثت موجة الاعتقال بين المشايخ، شملت تقريباً أحد عشر شيخاً، فلم يبقَ أحد هناك، ثم علمتُ أن أحد المشايخ، ومعه ثلاثة آخرون، يؤمون وحدهم الجماعة، وليس هناك طلبة علم، ولا معممون. كان

الشباب يتدمرون من ذهاب طلبة الحوزة، وكان واضحاً أنه أصبح هناك فجوة. ثم حدثت مسألة اقتراب القوات من بيت الشيخ، إذ داهموا أحد البيوت القريبة لبيت الشيخ، واقتربت المدرعات منه، فحصل استنفار كبير.

الدين مهدد

بقيت في قم مدة شهر ونصف تقريباً قبل أن آخذ قراراً، قلت لزوجتي: «أتينا إلى هنا للدراسة من أجل تحقيق الدين، والآن، الدين مهدد ويجب أن نذهب». قطعْتُ دراستي ولم أخبر أحداً بقدومي إلى البحرين، طلبت من صديقي أن يُقَلِّني من المطار. تفاجأ والديّ بعودتي.

ذهبتُ مباشرة إلى الاعتصام، وجدتُ أن كل شيء قد تغير، أعداد المشاركين تقلَّصت، ألَمَني ذلك. وقفتُ أشرب الماء مع أحد حراس الشيخ، تعجب من وجودي في البحرين، فقلت له: «لم أقدر»، فقال لي: «تعال حيَّاك». كان العدد كبيراً في السابق، ولم نكن نتمكّن من دخول المجالس. لكن الآن، صارت الأعداد أقل. هناك ثمانية مجالس رئيسة تدبّ بالحياة والدروس والأنشطة، أخذني وعرفني على مجلس (السيلفي). كان ذلك اليوم الأول.

قلتُ لهم بعدها إنني أحتاج إلى بيت لتتمكن زوجتي من الحضور أحياناً، لأنني لا أريد الخروج. فتم تدبير مجلس لي، بحيث تتمكن زوجتي من المجيء من حين لآخر. ومنذ ذلك اليوم، استقرت هناك حتى يوم الهجوم الأخير. أخبرتُ عائلتي بأنني سأمرّ أحياناً للسلام عليهم. كان البيت قريباً جداً من الساحة، لكنه في الجهة الخلفية منها، وهي الجهة التي دخلت منها

السيارات المدنية في الهجوم الثاني الذي راح ضحيته الشهيد مصطفى حمدان. بعد استشهاد مصطفى، تم وضع نقاط حراسة، ما أخاف الداخلية التي اعتقدت أن هذه النقاط قد تحوي أسلحة.

تعلق الشباب الذين بقوا مرابطين في الساحة ببعضهم بشكل خاص، كما تعلّقوا بالساحة وتواجههم فيها. وصل الأمر بهم إلى حدّ محاسبة أنفسهم حتى عند خروجهم منها لقضاء حاجات معينة، حتى أنهم كانوا يسألون عند رغبتهم بالذهاب لزيارة الإمام الحسين (ع) في الأربعين: «هل أخرج أم لا؟»

اعتذرتُ عن حضور حفل زفاف أختي، لم يطعني قلبي لمغادرة الساحة. كذلك الشباب، لا يخرجون إلا للضرورة أو حاجة ملحة للعائلة، أو الزوجة كأن تكون في وضع ولادة أو مواعيد مستشفى.

الشبّات وقت الهجوم

الهجوم الأول حصل في الصباح، ولم تكن هناك نقاط حراسة في تلك الأيام، لكن كانت هناك مجموعة تناوب، وأخرى تنام، بحيث يكون هناك من يذهب إلى المكبرات، في حال حدوث أي شيء، ويكبّر كي يتجمع الباقون.

قبل حوالي نصف ساعة من الهجوم، جاءني أحد الإخوة وقال إن خبراً وصل إلى حرس بيت الشيخ، عن إنزال أعداد كبيرة من قوات الشغب والمدركات في الساحة المقابلة لمركز الشرطة، فيما يبدو أنه تجهيز للهجوم.

تم تناقل الخبر سريعاً، وجدّد الشباب وضوءهم، بحيث إن حصل أي شيء، يكونون على وضوء. وبالفعل انتشرنا، كان عددنا

حينها 37 شخصًا تقريبًا. كل شخص صار يراقب اتجاهًا محددًا. توليتُ مراقبة جهة الشارع الموصل إلى الدراز من قرية البديع، وهناك يوجد مركز الشرطة والشغب، فرأيت المدرعات قادمة بطريقة جنونية.

في اللحظة نفسها، وبفارق ثوانٍ، دخلت السيارات وسمعنا صوت الفرامل. توقفوا عند بيت الشيخ ونزلوا وأطلقوا مباشرة قنابل صوتية. رأيت أحدهم يخرج من فوق السيارة ويطلق النار. لم يكن أحد من الشباب قريبًا من جهاز الصوتيات، ليُطلق نداء التكبير.

سمع الشباب صوت الطلقات، وتراكموا باتجاه الساحة معتقدين أنه قد تمت مداهمة بيت الشيخ لاقتحامه. سمعتُ الطلق من الخلف في ساحة خمدن، فذهبتُ إلى هناك. كانوا يأتون بالسيارات إلى داخل الساحة كي لا يتقدم أحد، إذ توجد في الأمام سياراتهم ومدرعاتهم. ازداد إطلاق النار بشكل كثيف، وكذلك الغاز المسيل للدموع، وخرجت النساء من البيوت وتعالى الصراخ والصياح والبكاء. تزايدت الأعداد من داخل الدراز، فقد أحاطوا بالمنطقة كلها ولا أحد يستطيع الدخول. استغرق الأمر بعض الوقت ثم خرجت القوات، فتوافدت الحشود وصارت تكبر.

الهجوم سريع، لكنهم كانوا قرييين جدًا. بقيت في حال من الدهشة: «هم أمامك الآن، ماذا ستفعل والبيت خلفك؟» الجميع يعرفون أن الوضع لن يبقى على ما هو عليه، وأنهم سوف يهجمون في يوم من الأيام. لكن عند حصول الهجوم، تتوَلَد حالة أخرى.

أحد الإخوة داخل فناء بيت الشيخ (أي خلف الحاجز الإسمتي المحيط بالبيت) أخبرني أنه رأى أحد عناصر قوات الشغب يُدخل رأسه من خلال فتحة بين الحواجز، وحينها لم يكن قد تم وضع الباب الحديدي بعد، بل مجرد حاجز إسمتي، ما يسمح بدخول شخص. ثم أن هذا الشخص (الشغب) دخل من الفتحة ونظر إلى الشباب وضحك، ثم أخرج قنبلة صوتية وفتحها في الداخل، واقتربت المدرعات كثيرًا من الحاجز الإسمتي.

قال لي الشاب: «في هذه اللحظة شعرت أن قلبي لا ينبض بشكل طبيعي، فجلست أتأمل وأقول لِمَ هذه الحالة؟ لا يجب أن يصيبني هذا الارتباك والخوف في قلبي، أكيد هناك خطأ». هذا من الأجواء التي كانت سائدة هناك.

كثيرًا ما كان الشباب يسألوني: «كيف نكون ثابتين في وقت الهجوم؟» وإذا شعر أحدهم بالخوف، كان يقول إنه أكيد من وجود ذنب وراء ذلك. كان لمسألة التوجه العبادي ميزة خاصة من هذه الجهة. فالعبادة هي تلك التي تؤهلني أن أكون قريبًا من الله عز وجل. كثيرون كانوا يرددون: «الله يثبتنا»، وفي الواقع، كل الذين كانوا يبيتون هناك طوال هذه الفترة، ثبتوا حتى اللحظة الأخيرة.

الدم يمشي على الأرض

بعد الهجوم الثاني، ازداد حضور الناس. هناك أشخاص لم يكونوا يحضرون من الأساس، أو حضروا مرة واحدة فقط. وبعد الهجوم، تيقنوا من احتمال دخول القوات في أي وقت.

أذكر أنه، في الهجوم الثاني، معي اثنان في المجلس، وقد صار

أشبهه بمجلس طلبة. عندما لا يكون هناك طلبة، كان بعض الإخوة يأتون ويبيتون معي، ففي بعض الليالي نقوم بالحراسة وفقاً لترتيب داخلي بين الشباب. وحدث أن نمت تلك الليلة متأخراً.

جلّ ما أذكره أنني كنت على موعد مع أحد الإخوة، فأتى ونام معي، ومعني أخي الصغير. أنام عادة عند النافذة المطلّة على الساحة، فإذا سمعت أي صوت أو شعرت بشيء غريب، أخبر من معي مباشرة ونخرج. أذكر أنني استيقظتُ في تلك الليلة قبل الهجوم بخمس دقائق، وكنت أشعر بعدم الارتياح. ارتديت ملابسي، ولم يكن هناك أي صوت أبداً. أثناء سيري - بعد الحجرة هناك مرر ثم تطل على الساحة - وتوجهي إلى الباب، سمعت كلاماً باللهجة «المحرّقة». فتحتُ الباب، فرأيتُ سيارات مدنية، وأحدهم يقول «يودة.. يودة». كانوا قد أمسكوا بأحد الشباب، وهو يحاول الهرب من بين أيديهم، عدتُ مباشرة إلى المجلس وأيقظت الشباب وقلت لهم: «لقد هجموا». استنفّر الجميع وركضنا بسرعة ودخلنا إلى الساحة، وكان معظم الشباب نائمين.

عادة يكون هناك عدد أكبر، لكن هذا ما حدث في تلك الليلة بالذات. بعض الشباب في ساحة خمدن، هناك خيمة وبساط صغير قريبان إلى الشارع، لكنهم لم يلحظوا دخول القوات، فقد تسللوا بسياراتهم المدنية بشكل هادئ وبدون ضجّة.

عندما دخلتُ إلى الساحة، رأيتُ غالبية العناصر واقفين، وكأنهم مندهشون أنّه لا أحد هنا، فقد أطفؤوا أنوار الشوارع ليكون الجو أكثر إثارة للرعب، ولكي لا يُرى من هو موجود،

لكن هذا سبب التشويش لنا نحن أيضًا، لأننا لم ندر أين كانوا يتواجدون. لم يكن إطلاق النار بشكل مستمر بحيث تستطيع أن تحدد ما يحصل، هل هم هنا أم لا؟ في أي شارع؟ لم نكن نعلم!

أتذكر أنني تقدمتُ، وفي ذهني أن لا يتكرر ما حصل في المرة السابقة عندما ذهبْتُ ناحية ساحة خمدن، وتمت محاصرة بيت الشيخ ولم أتمكن من الدخول بعدها. لذلك ذهبْتُ هذه المرة مباشرة إلى داخل الحاجز عند فناء بيت الشيخ. الموجودون هم الحراس المتواجدون دائمًا مع الشيخ. هناك قرابة عشرة أشخاص. كان أحدهم قلقًا ويقول للشباب: «لا يخرج أحد من الداخل كي لا يأتوا إلى هنا، فإذا دخلوا علينا واجهناهم». كان إطلاق النار كثيفًا في الخارج. ظللنا نتابع حركة القوات ومكان تواجدهم. عرفنا أنهم دخلوا إلى بيت في الزاوية، فيه مجلس ينام فيه الشباب، واعتقلوا اثنين، أحدهما صغير في السن.

في البداية، لم نكن قد سمعنا بإصابة الشهيد مصطفى حمدان. عندما غادرت القوات، وصلنا خبر أن هناك تقريبًا عشرين سيارة جيب من قوات الشغب تدخل إلى الدراز. ظننا أن ما مرّ مجرد تمهيد، وأن الضربة القاضية آتية، لكنهم لم يدخلوا. خرجتُ من الحاجز فعلمت بوجود شخص مصاب. سألتُ عن مكانه وأشاروا لي فركضت مسرعًا ناحيته. كانوا قد أخذوا مصطفى إلى داخل أحد البيوت ليسعفوه، ورأيت دماءه على الأرض. كان لهذا المشهد وقع كبير في نفسي. ظللتُ لمدة أنظر إلى الدماء. شعرتُ بذهول، خاطبتُ نفسي: «انظر إلى نفسك، ليس الأمر فقط أنك أتيت إلى المكان وانتهى الأمر، هذا لا يعني أنك أديت تكليفك».

كان دم مصطفى يرسم خطأ غير منقطع على الأرض، تتبعته ووصلت إلى المكان الذي أدخل إليه، لكنني لم أدخل. لم يكن مسموحًا لأحد أن يسأل عن اسم أي شخص آخر، وهو أمر متعارف عليه بين الشباب. لكل واحد من المعتصمين لقب يعرف به فقط. قليلون فقط كانت أسمائهم معروفة. لم أعرف شيئًا عن حالة المصاب، والوضع الأمني لا يسمح لي بالدخول لرؤيته.

في تلك الفترة، كنّا قد درسنا دورة إسعافات أولية عسكرية متعلقة بالقوات الخاصة، عن إصابات الصدر وغيرها. سألت بعض الإخوة الذين أسعفوه عن حالته، قالوا إنها خطيرة وإنه ينزف بشدة، فالرصاصة في الرأس، ويجب أن ننقله فورًا إلى المستشفى.

طلاب الحوزات

لوجود مشايخ الدين وطلاب الحوزات دور مهم في نفوس الشباب. وأحد أهم هذه الأدوار هو صلاة الجماعة، ليس هناك برنامج طوال اليوم إلا بعد صلاة المغرب. وإذا لم تكن هناك صلاة جماعة، لن يكون هناك أي تجمع داخل الاعتصام. لقد توقفت صلاة الظهر لأن أغلب الناس في الأعمال، والطقس لم يعد يساعد. بقيت صلاة الصبح والعشاءين بشكل أساس. اثنان من طلاب الحوزة مقيمان في الاعتصام، فيما كان اثنان آخران يدخلان ويخرجان.

يميل الشباب للجلوس إلى طلاب الحوزة والمشايخ للاستفادة. بشكل عام، يهتم الشباب باستثمار أوقاتهم بما يفيد، هناك من يدرس للجامعة؛ دروس صوتية مثلًا، ومنهم من يحضر دروس شيخ معين عبر اليوتيوب، أو يتم دورات معينة.

المسائل الشرعية دائماً يسألون فيها، من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً. نتحدث عن بعض المشاكل التي تحدث؛ ليس كلّها، لكن أغلبها، وكان الإخوان يتكفلون بحل بعضها فيما بينهم. قبل جلسات محاكمة الشيخ، كانت تحدث تعبئة، ويتم إلقاء كلمات، فيزداد عدد الحضور بشكل كبير.

في العادة، لا يحظى طالب الحوزة الشاب بحضور كبير من المستمعين. لكن في تلك الفترة، كان المجلس يمتلئ بالحضور. تستغرق الكلمة حوالي ربع أو ثلث ساعة، وبعدها، تتم قراءة دعاء أو مناجاة وسط تفاعل كبير وبكاء. وكنا نبحث في إمكانية تطوير البرنامج: اقتراح مجالس محافل قرآنية مثلاً.

يجول طالب العلم بين المجالس ويحدث الشباب. مثلاً، الشيخ فلان يجول بين المجالس، فيقول له الشباب: «أنت لم تأت منذ فترة (يوم أو يومين)»، ويطلبون منه الجلوس بينهم والتحدث إليهم.

نظّمت دورة عن الخمس في أحد المجالس، سلسلة امتدت لخمس عشرة يوماً تقريباً، حضرها الشهيد أحمد جميل (أبو مصطفى)، كان متعطّشاً للمعرفة وكثير الأسئلة. كذلك نظّمت دورة لتعليم اللغة الفارسية.

اقترح أحد طلاب الحوزة إنشاء مكتبة للمطالعة. قدّم أحد المشايخ مكتبة وطاوله، وأذكر أنني كلمت الشهيد محمد حمدان بهذا الشأن، يقول إن لديه كتباً وسلسلة للشهداء، فقلت له: «أحضرها إلى المكتبة»، الجزء الأكبر من مكتبة الساحة كان من عند الشهيد محمد حمدان، والجزء الآخر من عندي.

الشهيد محمد حمدان

كان أول لقاء لي مع الشهيد محمد حمدان في جلسة في اليوم الأول الذي وصلت فيه الاعتصام. جلستُ مع بعض الإخوة (مجلس الديه)، وكان الشهيد يجلس في الأمام ويحمل في يده الهاتف يتابع أمرًا ما ويريد التواصل مع أحد. سألتُ عنه، فقبل لي: «فلان من هذه المنطقة». مع الأيام، صارت بيننا علاقة، فالمعتصمون يأتون إلى المضيف يوميًا كي يأخذوا الغداء، وهذا المضيف تابع لمجلس (السيلفي)، وهو يضم الإخوة الذين يديرون بعض أمور الاعتصام، بالإضافة إلى مسألة الطبخ، فدائمًا يأتي الشباب عندما يرون أن الوجبات وصلت.

توطدت العلاقة بيني وبين محمد حمدان شيئًا فشيئًا، كان مميزًا وخلقًا، نصوحًا وطيبًا مع الجميع. منذ البداية، كان معظم حديثه عن الشهداء، يتحدث عن بعض الكتب التي قرأها قبل مدة مثل كتاب «تراب كوشك الناعم» عن حياة الشهيد عبد الحسين برونسي، قلت له: «ما شاء الله قرأته؟ أنا قرأته أيام الثانوي»، فيجيبني إنه من أجمل الكتب التي قرأها، ثم يعدد لي ما قرأه من كتب عن الشهداء ليعرف الكتب لم أقرأها بعد ويحضرها لي. قال لي: «هل قرأت كتاب الشهيد محمود كاوه من ضمن سلسلة «سادة القافلة»؟» لم أكن قرأته، فليس من السهل الحصول على كتب الشهداء في البحرين، فهناك تحسس من إدخالها إلى المطار. قال لي: «موجود عندي وسأحضره لك». كان ذلك قبل أن يتم اقتراح تنفيذ فكرة المكتبة في الساحة.

قرأت الكتاب وأعجبني كثيرًا رغم صغر حجمه. وبالطبع، قمتُ بعد ذلك بتعريف الإخوة في (مجلس السيلفي) على هذا

الكتاب. أذكر أن أحد الشباب أخذه وقرأه، وكان شديد المزاح، فكان كلما قال للشباب شيئاً، يقول لهم: «الشهيد محمود كاوه قال هذا»، حتى صاروا يلقّبونه بـ(كاوه).

ذهبنا عدة مرات لشراء العصير من داخل الدراز وعدنا سوياً. في الصباح، وبعد أداء الصلاة، يمارس الإخوة رياضة المشي ثم يتناولون طعام الفطور، فكانا نمشي سوياً. في الواقع، كان محمد طاهراً بكل معنى الكلمة، من ابتسامته إلى كلامه، لم يكن هناك أي تكلف في مشاعره والأمور التي يقولها، ولا تشعر بوجود شيء من الازدواجية في شخصيته، فلسانه ينطق بما يشعر به قلبه، وما يعيشه من روحية ومعنويات هو نفسه الموضوع الذي يتكلم فيه.

يحب محمد المساعدة والمبادرة، حتى أن أحد الشباب في المجلس الذي ينام فيه (مجلس الديه) قال إنه بحاجة إلى غسالة، وكذلك بعض الشباب، فذهب محمد وأحضر الغسالة من بيتهم.

كان لطيفاً ومهذباً جداً في تعامله. لم يكن نهماً في تناول الطعام. وبعد استشهاد أخيه مصطفى، قلّ أكله وقلّ نومه، وراح يروض نفسه، يقوم أكثر الليل، يقرأ الكتب والأدعية، ويخصص للعبادة وقتاً أكثر.

بعد إصابة أخيه، كان يقول: «لِمَ الشهيد مصطفى فقط؟ لِمَ ليس غيره؟ لِمَ نحن لم نحصل شيئاً؟ لِمَ لم يُصَبْ غيره؟ لا بدّ أننا مخطئون، لا بد من وجود نقص لدينا».

يصوم معظم الشباب شهر رجب، بينهم محمد. تخصص طاولات أمام المضيف لتوزيع الإفطار الجماعي. كنتُ أنهي صلاة

الجماعة وأذهب إلى المضيف، فأرى الشهيد يحمل طبقين، أو يضع الطعام على الطاولة، ويأتي إليّ بابتسامته ويقول: «أحضرت لك الطعام، تعالَ معي. لا تحتاج أن تذهب إلى المضيف»، وأحياناً تكون هناك مجموعة من طلبة الحوزة في المجلس، فأفطر معهم. وعندما أراه لاحقاً، يقول لي: «بحثتُ عنك عند الإفطار ولم أجدك»، وكان ذلك يخجلني.

يقول لي: «إذا كانت لديك ثياب بحاجة إلى غسيل، أعطهم لي وأنا أغسلهم»، وكان يصرّ على أخذها وغسلها في كل مرّة.

ما بعد النطق بالحكم

في الجلسة ما قبل الأخيرة في المحكمة، قال بعض الإخوة إنه ورد في بعض الروايات أن الذبح مستحب لدفع الضرر. وصار الإخوة ينظمون هذا الموضوع، ليتم الذبح وتوزيع الذبائح على الفقراء، بنية دفع الضرر والشر عن الشيخ. ساهم الجميع، وبالأخص المعتصمون، إلى أن وصل العدد إلى 14 ذبيحة، وقد ذبحوها أمام بيت الشيخ. في هذه الجلسة، أقرّت المحكمة أن النطق بالحكم سوف يصدر في الجلسة التالية بعد أسبوعين. كان هناك احتمال بأن يتم التأجيل مرة أخرى، لكن مع اقتراب الإجازة القضائية، توقعنا صدور الحكم بحيث لا تطول المدة ثلاثة أشهر.

في عشية اليوم الذي صدر فيه الحكم، وقف أحد الإخوة (كان الجميع جالسين) وقال: «الآن بدأ الاعتصام.. الآن انتهت تلك المدة وبدأ الاعتصام الحقيقي، الآن هي المراقبة الحقيقية. لم يعد هناك مجال لأن يبقى أحد في الخارج، من لديه شيء عليه

أن ينهي أموره ومعاملاته ويحاول من اليوم أن يبقى، بحيث لا يخرج أبداً».

منذ صدور الحكم، كان الإخوان متأهين لأقصى الحدود. الجميع يستغلون الوقت ولو بمقدار استغفار، ولو بمقدار الصلاة على محمد وآل محمد، وقراءة القرآن، يشعرون أن الوقت ضيق أساساً، وكل شخص يفكر بأن الآن قد مضت هذه المدة من عمري، ويعيش الحيرة بشأن الدقائق التي مرت في حياته ولم يستغلها لذكر الله، ليس من باب الندم أو الخوف، بل يقول لنفسه إنه على الأقل أذهب وأنا بروحية واستعداد أعلى، وقرب أكثر من الله.

أذكر أنني اتصلت بالشهيد محمد في الليلة التي حدث فيها الاستنفار، واليوم الأخير بعد صدور الحكم. كنتُ مناوراً في الحراسة من منتصف الليل حتى الفجر. أذكر أن الطائرات كثفت طلعاتها، وكانت تبقى لمدة طويلة فوق الدراز. نسمع صوت طائرة من دون طيار، صوت واضح ونقي جداً، لأنه لم يكن هناك مكيفات تعمل. لم نرها لكن نسمعها فنعرف أنها واقفة فوق المكان، وقريبة من الاعتصام. وكان واضحاً أنها تبقى لتراقب المنطقة لساعات (3-4 ساعات) ثم ترحل قبيل الصباح.

كثرة المراقبة وتكثيف طلعات الهليكوبتر جعلانا نشعر بحصول أمر قريب. فطوال مدة الاعتصام، نرى طائرات هليكوبتر، وطائرة من دون طيار، لكن ليس لهذه المدة الطويلة، وبهذا الشكل الثابت فوق ساحة الاعتصام.

الليلة الأخيرة

وصلتنا الأخبار بأن أرتالاً كبيرة من القوات وصلت إلى بعض المراكز ذات المساحات الكبيرة المسوّرة مثل عالي ومقابة، وقالوا إن هذا العدد من المدرعات وسيارات الجيب قد دخل، وقليلًا ما يتجمع مثل هذا العدد في عسكر مقابة، بخلاف مراكز الشرطة الكبيرة التي تتجمع فيها أعداد كبيرة في حال كانت هناك مداهمة لإحدى القرى. ظلوا يتجمعون منذ العصر، كانت تصلنا بعض التسجيلات المصورة على الطريق السريع -تصوير عابر- يظهر أعداد سيارات الجيب والمدرعات. بعدها صار الأمر واضحًا. شعر الجميع أن ساعة الصفر قد حانت.

بدأ الشباب بتخليص متعلقاتهم، من لديه أموال يريد إيصالها، وبعضهم أودع الأجهزة الإلكترونية الثمينة عند أصحاب البيوت للاحتفاظ بها بحيث يرسلونها إلى منزله في حال حصل شيء له. كان كل شخص يرسل أغراضه، أو يوزعها.

عندما دخلت إلى المجلس الذي أقيم فيه، قلت لمجموعة المشايخ بعد أن أخبرتهم بالوضع: «يا إخوان الظاهر أنّ الهجوم سيقع الليلة». استبعدوا الأمر. لم يلبث أن وصل الخبر إلى الجميع: «يا جماعة تجهزوا.. الذي يقدر يأتي فليأت، والذي يقدر أن يتصل بأحد فليتصل كي يحضروا، يجب أن يأتي الجميع إلى الدراز».

أذكر أنه كان معي حاسوبي المحمول وبعض الحاجيات، فأمتتها لصاحب البيت وطلبت منه الاحتفاظ بها. كذلك من لديه مبالغ مالية أمّنها لصاحب البيت: «إذا حدث شيء، أرسلوهم

إلى فلان وهو يتصرف». حتّى أن بعضهم، ممن عليه خمس أو دين لشخص، قال: «أعطوه لفلان هذا من حقه». أغلب الإخوان اتصلوا بزوجاتهم وعوائلهم. اتصلتُ بزوجتي. لم تكن تعلم بوجود وصية مصوّرة لي عند أُمي. قلتُ لها «إذا حدث شيء، خذوها من عند أُمي وأعطوها لفلان».

زادت حرارة الأخبار، وعند حوالي الساعة 11 ليلاً، استنفر الجميع، حتّى أن الشباب لم يتناولوا الطعام كي لا يحتاجوا إلى الحمام وقت الهجوم، ومن يريد قضاء حاجته، يقضيها بسرعة ثم يتوضأ. اغتسل الشباب غسل الشهادة، أصبح الوضع حامياً جداً.

عند حوالي الساعة التاسعة، اتصلت بالشهيد محمد أطلب منه المجيء، كنتُ قد بحثت عنه ولم أجده. اتصلتُ به مرتين فلم يرد، سألتُ عنه فقالوا لي إنه في الخارج، فقلت لنفسي إنه ينتظر هذه اللحظة، والأكد أنه لا يريد أن يفوت هذه الفرصة. بعد ساعتين أو ثلاث أتى الشهيد. وسمعت بعدها من الإخوة أنه ذهب كي يعدّل وصيته، وأنه كان يعدلها عندما اتصلت به؛ نقلاً عن والدته التي رآته في تلك الليلة، خرج لأجل هذا الأمر، وعاد في وقت متأخر من الليل.

عدتُ إلى المجلس، أغلب الموجودين في المجلس قالوا إنهم سوف يختبرون الوضع في الخارج. هناك، توزّع الشباب على نقاط المراقبة، خاصة تلك القريبة من أول مكان لدخول المدرعات وسيارات الجيب، فكان التمرّكز فيها أكبر، الجميع في حالة تأهب وجهوزية تامة. في الوقت نفسه، هناك مجموعة كبيرة عند بيت الشيخ، انشغلوا بالدعاء والمناجاة، بتوجه خاص في تلك

الليلة. عند الساعة 11 ليلاً، صدحت مكبرات الصوت بالتكبيرات، حتّى أنهم في بعض المساجد حسب ما أذكر كانوا يكبرون في الوقت نفسه. كثيرون من أهل الدراز أتوا، حتّى أن بعضهم بدا عليه وكأنه استيقظ من نومه لتوه. بعضهم كبار في السن، والبعض الآخر لم أرهم حتّى في الاعتصام، لكنهم حضروا في تلك الليلة، كان هناك عدد كبير، لكن لم يحدث شيء حتى الفجر. أدى الناس الصلاة بحضور كبير جداً.

بعد الصلاة، قرأ الناس الأدعية. صار وقت الفطور. أعدّوا الفطور. لكن أغلب الناس لم تكن لديهم شهية. تناولوا شيئاً بسيطاً. كانت نفوسهم متجهة إلى أمر آخر.

النّهار الأخير

بعد صلاة الفجر، غالبية الشباب باتوا متعبين. كثيرون ذهبوا ليستريحوا تحت المظلات الموجودة قرب بيت الشيخ، وبقيت مجموعة أخرى للحراسة. في المجلس، ارتاح الإخوة قليلاً، وقالوا لي: «إذا حدث شيء أو سمعت أي شيء، أيقظنا فوراً».

بعد 45 دقيقة تقريباً، غفوت من التعب، حتى أيقظني صديقي وقال: «الظاهر هناك شيء، هناك حركة مريبة». قمْتُ وسألت أحد الإخوة فقال إن هناك أعداداً كبيرة من القوات عند أحد الحواجز ومعهم سيارة رافعة، لكنهم لم يفعلوا شيء بعد.

بعد دقائق، وصلنا خبر بأنهم يزيلون الحواجز (التي وضعوها سابقاً) لفتح الطريق وإدخال المدرعات. فتحو الطريق وبدأ دخول القوات. بدأ التكبير عبر مكبرات الصوت، وصار الجميع يركضون، كل إلى النقطة التي يريد أن يتواجد فيها. تم الطلب

بأن لا يتواجد الشباب في مكان معين، وأن يتوزعوا كي لا تدخل القوات مباشرة ناحية بيت الشيخ.

قبل أن تبدأ التكميرات، رأيت الشهيد محمد حمدان يمشي عكس اتجاهي. ابتسم واحتضنني على الفور، أذكر أنني قلت له: «إذا أنت وصلت قبلي، اذكرني عند أهل البيت وادع لي بالشفاء والرحمة»، فابتسم وقال: «وأنت كذلك إن شاء الله»، ثم أكمل كل منا طريقه.

دخلت القوات من عدة مداخل، كنا في جهة ساحة خمدن. سمعنا إطلاق النار من جهة ثانية. أذكر أن أحد الشباب قال لي: «انظر إلى السماء كيف هي». نظرت وقلت: «ماذا فيها؟» قال: «انظر إلى الحمام الموجود على غير عادة سبحان الله». كانت هناك مجموعة من الحمام تطير فقط حول منطقة الاعتصام بشكل غريب، حتى لتكاد تشعر أنها معك.

ما هي إلا لحظات، وتقدمت القوات باتجاه ساحة خمدن. في بادئ الأمر، كان إطلاق النار يتم من المدرعات. ارتدى الشباب أقنعة ضد الغاز المسيل للدموع كان قد تم توزيعها. لم يتحرك أحد، حتى وصول مجموعة المشاة بتنظيم عال، فكانوا يدخلون في الوقت نفسه، دخلت ثلاثة فرق إلى ساحة خمدن، وحصل إطلاق نار، ولم يكن في الهواء، بل موجهًا، كنت أرى الطلقات تمر بالقرب مني، على مستوى الوجه. استخدموا أيضًا الغاز المسيل للدموع والقنابل الصوتية.

رأيت الشباب خلفنا ناحية المدرسة ملتحمين مع القوات. تراجع عدد منهم لأنهم تلقوا ضربات في رؤوسهم، لا أدري

إن كان هناك شوزن في وجوههم أو أي شيء، لكن المواجهة بشكل مباشر، وللأسف، لا يدرك الكثيرون مدى شجاعة الشباب وبسالتهم هناك. كانت مواجهة بطولية، فأنت تدري أنك أمام خيارين إما الاعتقال أو القتل، وأنهم أمامك في كل الجهات. وواضح عند الجميع أنه لا مهرب، ومع ذلك، استبسلوا في المواجهة. اشتد إطلاق النار عليهم، والمجموعتان تقتربان من بعضهما البعض وتلتحمان.

تأذى بعض الذين كان في الساحة وتراجعوا، والذين لم يتحمّلوا الغاز المسيل للدموع، عادوا مختقين، وبقينا نحن واقفين. بعدها، رأيتُ في الخلف مجموعة تجري في الشارع عند بيت الشيخ، وبدأ أن مجموعة تدخل بيت الشيخ، فقلت للإخوان معي: «فلنرجع صوب بيت الشيخ».

عدنا إلى الشارع المؤدي إلى بيت الشيخ وكان أشبه بغيمة من مسيلات الدموع. مشينا مدة دقيقة، ولم يكن باستطاعتي رؤية شيء بسبب كثافة الغاز. وعندما دخلنا في هذا الشارع، لم أعد أرى شيئاً بسبب الحرارة، أفتح عينيّ فلا أتمكن من رؤية شيء لكن سمعت صوت الإخوان يدخلون إلى بيت ناحيتنا؛ فقلت: «أدخل معهم وآخذ نفس وأعود». عندما دخلتُ، سمعتُ صوت البرقيات على الباب، الطلقات النارية والشوزن، وهم يحاولون الدخول بشكل سريع، وفي الوقت ذاته، يتواصل إطلاق نار بشكل عنيف.

تمركزت مجموعة كبيرة من القوات عند الباب، انتظرنا في الداخل أن يتعدوا لنتمكن من الخروج، لم يكن هناك باب آخر

نخرج منه. فذهبتُ إلى غرفة الدرج؛ بها نافذة تطلُّ على بيت الشيخ وعلى الشارع الذي تتواجد القوات فيه.

ما إن تقتحم القوات شارع أو ممر حتى تبدأ بالطلق الهستيري في كل الاتجاهات، لا يهم ما إذا كان هناك أحد أم لا، الطلق ليس موجهاً إلى الأعلى في الهواء، بل هو أفقي على مستوى الوجوه، والإصابات بلا حصر.

داخل محيط بيت الشيخ

بقيت أنظر من النافذة، فرأيتهم حاصروا المربع أمام بيت الشيخ وسقط بيدهم. كان الشباب محاصرين داخل منطقة الحواجز الإسمتية. وعناصر قوات الشغب يحاولون النظر إلى داخل الحاجز لتحديد عدد المتواجدين، بعضهم يضع السلاح فوق الحاجز ويطلق النار على الشباب في الداخل. رأيتُ هناك الشهيد أحمد العصفور والشهيد حمدان، وبعض الإخوة المعتقلين الذين أفرجوا عنهم فيما بعد، بعضهم ملطّخ بالدماء والبعض الآخر ينزف. وفي الداخل، الشباب بين حالي كروفر، وعندما أصبحوا محاصرين بالكامل لم يعد أمامهم خيار آخر. الشباب المرابطون في محيط بيت الشيخ أبرز مصداق للبطولة، لم يزل لهم شيء وبقوا حتى الرمق الأخير، مجموعة في الأرض ومجموعة أخرى فوق السطح، يعلمون أن الموت يحاصرهم من كل الجهات، وأنه عند دخول القوات، سيكون الانتقام وخيمًا. مع ذلك، ظلّوا يواجهون القوات المدججة بالسلاح بكل استطاعتهم حتى يمنعوها من الوصول إلى الشيخ.

حاولت القوات فتح الباب فلم يتمكنوا. استمر الأمر قرابة

ساعة ونصف. أذن الشباب في الداخل لصلاة الظهر. وقفت مجموعة تصلي ومجموعة تحرس. في هذه الأثناء، أوقفت القوات إطلاق النار. ذهبت للصلاة ثم عدت للنافذة، وما إن أنهى الشباب الصلاة حتى عادت القوات لإطلاق النار قبل أن يتمكنوا من كسر الباب واقتحام المكان.

بين الباب وبيت الشيخ، مسافة غير صغيرة. في بادئ الأمر، دخل ثلاثة عناصر. اثنان يحملان درعاً، والثالث الشوزن. بدأ إطلاق النار مباشرة وبشراسة في حركة عسكرية سريعة جداً، ثم دخل عنصر آخر وخلفه فرقة كاملة، كلهم يحملون الشوزن. وكانت الطلقات غزيرة.

واجههم الشباب بعقيدة «أواجه حتى آخر نفس عندي»، وبسبب كثافة إطلاق مسيلات الدموع، تحول المكان كله إلى سحابة بيضاء، ولم أعد أستطيع تمييز الأعداد. أحد الشباب الذين كانوا يواجهون القوات ببسالة، أطلقوا النار عليه، ثم سقط وأحاط به عناصر القوات، ولم أعد أراه. أظن أنه الشهيد أحمد جميل.

مجموعة أخرى من القوات تلقي القنابل الصوتية حتى أحكمت سيطرتها على المكان والشباب. حاصرتهم في زاوية، لم أتمكن من رؤية ما حدث فيها.

كيف نجوت؟

بقينا أكثر من 9 أشخاص في البيت الذي دخلنا إليه حتى الساعة الخامسة مساءً تقريباً. من الواضح أنهم لم يعلموا بوجود أحد داخل هذا البيت وإلا لكانوا اعتقلونا. فقد دخلوا إلى عدة بيوت حولنا، لكنهم لم يأتوا إلينا. اتصلت بالوالدة من هاتف أحد

الموجودين، وقلت لها: «سجلي عندك، فلان وفلان اعتقلوهم، سجلي أسماءهم ولا تقومي بنشر شيء الآن». وعندما تأخر الوقت ولم أر أسماءهم بين الناجين، تأكدت أنه تم اعتقالهم.

وصلنا أيضًا أنه تم اعتقال ابن صاحب البيت الذي نتواجد فيه. كنّا نفكر أنه يجب أن نذهب إلى البيت الموجود خلفنا، لأن هذا البيت خطير جدًا، وهو نقطة تمركزهم. أحد الإخوة اقترح أن نخرج من الخلف، لكن بدلًا من أن ينجينا ذلك، أوقعنا في أيديهم. فعندما خرج هذا الأخ من الباب الخلفي، كانت هناك بعض الطيور، وعندما مرّ بجانبها أصدرت أصواتًا. وفي هذه الأثناء، كانت القوات تمشي أمام البيت، فالتفتوا مباشرة.

طُرق باب البيت، قلتُ: «إما أنها الشرطة أو أنه أحد الشباب هرب ويريد أن يدخل». لم نلبث أن سمعنا صوتهم: «بطل الباب.. بطل الباب». كانوا يصرخون بقوة ويقومون برفس الباب. الباب حديدي، فلم يتمكنوا من كسره. صاحب البيت قال: «لن أفتح لهم»، فخافت زوجته وقالت له: «افتح الباب، ماذا سيفعلون!» قال: «لن أفتح لهم». لكن بعد أن زاد الركل، أقفل علينا الحجرة وفتح لهم، وكان هناك البعض في الصلاة. بالنسبة لي، لم أشعر بأي خوف أو تردد. وبدأت أقرأ آية الكرسي، وقلت: «سواء أكنت في الداخل أو الخارج ما يكتبه الله سوف يكون. المهم أن نكون في المكان الذي يرضي الله فقط». سمعنا أصواتهم في الخارج يصيحون بوجه صاحب البيت ويسبون ويشتمون، وبين الشباب طفل صغير، كانت صاحبة البيت تقول لهم: «هذا ولدي لا تخيفوه»، ولم تسمح لهم بأخذه. وفي الصلاة أيضًا كبار في

السن دخلوا معنا، لم يأخذوهم أيضًا. اعتقلوا فقط أحد الشباب من الصلاة.

كانت الحجرة مقفولة من الخارج، ونحن أربعة أشخاص في داخلها، ثم سمعنا صوت الباب يفتح، كان صاحب البيت قد ترك المفتاح في الباب، ففتحت القواب، ودخل شخص ضخم ومعه مسدس فردي. جميعهم مقنعون. دخل وكأنه وجد كنزًا ثمينًا، ومباشرة قال للذين معه: «هنا يوجد غنيمة، صيد» وكان فرحًا.

كنت جالسًا على الأرض، رأيته يقترب مني، وعرفت أنه ما إن يصل إليّ، سيعاجلني بالضرب، فوقفت مباشرة كي لا أتلقي الرفسة على وجهي أو رأسي. وقفت أنظر إليه، فقال لي: «نزل رأسك». بقيت أنظر إليه. كان معي شخص كبير فسألوه: «أنت ماذا تفعل هنا؟» فقال: «أنا لا أدري»، قالوا له: «أنت تكذب علينا»، لكنهم لم يضربوه. أحد الشباب إلى يساري أخذوه مباشرة. ثم أتى شخص آخر وقال لي: «ماذا تفعل هنا؟»

وجدت نفسي أمام خيارين، هل أقول له: أنا أتيت من أجل الشيخ؟ أو أقول أي شيء يخرجني من هذا الموضوع؟ في ذلك الوقت كان الموضوع قد انتهى، واقتحم بيت الشيخ، حتى أنني رأيت الكوماندوز بعيني على سطح بيت الشيخ، وكانوا بالرشاشات.

أجبتة: «أنا بيتي هنا، مستأجر وبيتي خلف هذا البيت الذي نحن فيه»، فقال لي: «وكيف وصلت إلى هنا؟» وكان يضربني ويركلني، فقلت له: «سمعت أصوات وصراخ في الخارج، فخرجت لأرى ما يحدث، ولم أتمكن من الرجوع إلى البيت فجئت إلى هنا».

مشى قليلاً وأنا لا أدري ماذا سوف يحصل، لم يقل لي تعال، لم يقل أي شيء، ثم ذهب إلى عنصر آخر، وسمعتهم يتكلمون: «الظاهر أن هذا ليس لديه علاقة بالموضوع»، لا أدري إن كان قد رأى هيئتي أو أي شيء، فأتى آخر وقال لي: «أين هو بيتكم الذي تقول إنك تسكن فيه؟» فقلت له: «في الخلف، إذا أردت أن أدلك آخذك إليه هناك». فخرجت معهم من هذا البيت، ولم يكن هناك أحد، الشوارع خالية، والأرض ملأى بالحجارة وطلقات الشوزن، فأخذتهم إلى البيت وكان يهددني: «إذا هربت سوف أطلق النار عليك مباشرة» حتى أنه كان يسمعني صوت مسدسه. وصلنا إلى البيت، ودخلت. كان الباب الخارجي مفتوحاً، والباب الداخلي مقفولاً.

فكر بالتعاون معنا

عندما حصل الهجوم، دخل صاحب الغرفة (جزاه الله خيرًا)، وأزال كل شيء، لولا ذلك لحصلت مشكلة أخرى. عندما رأى الباب مقفلاً، قال للضابط الذي معه: «اكسر الباب»، فرفسه الأخير وكُسر، وفي الرفسة الثانية، فُتح الباب. ثم دخلوا مباشرةً بأسلحتهم. كانوا يخافون أن يكون هناك أحد. بقي معي عنصر من قوات الشغب، ودخل الباقون يفتشون المكان. فتشوا البيت كاملاً والغرفة التي كنا فيها، كان لدينا غرفتان وحمام، صاحب البيت أبقاهم لنا، دخلوا وفتشوا المكان، وعندما عادوا أتى إلي شخص وضع يده عليّ ورفعني إلى الحائط، وقال: «أتكذب علينا؟!»

كنتُ أعرف من الاعتقال السابق أن هذا هو أسلوبهم في جعل الشخص يخاف ويرتبك. وكان يصرخ بعصية: «أتكذب علينا! نحن تعاوننا معك...». فسكت، وأخذ يضربني على بطني

وصدري، ونحن من الصبح بلا ماء ولا طعام. فقلت لهم: «بماذا كذبتُ عليكم؟ لم أرتبك أبداً، وساعدني ذلك. قلت له: «أنا لم أكذب عليك بشيء، أنا قلت لك أنني مستأجر هنا».

قال لي: «نحن رأينا نساء فوق» (كانت مجموعة كبيرة من النساء هربن إلى هذا البيت). قال لي: «ومن هم الموجودين فوق؟» قلت له: «فوق يسكن صاحب البيت، وأنا مستأجر هاتين الغرفتين منه». فتشوا كثيراً لكن لم يجدوا أي شيء مشبوه بنظرهم، لم يكن هناك غير الكتب، فطلب الضابط من عناصر الشغب أن يذهبوا ويقفوا عند الباب.

سألني: «هل أنت قارئ أو خطيب؟» قلت له: «لا لست خطيباً». قال: «أنت ملتزم؟» سكتُ هنا، فماذا أقول لهذا؟ ثم سألني: «أين تدرس؟» قلت: «في الجامعة»، قال: «كم معدلك؟» قلت: «3.6». اخترعت له رواية وقصة عن مكان سكني ودراستي، شتمني بكلام بذيء كما هي عادة جميع منتسبي الداخلية، ثم قال لي: «أين تعمل؟» قلت له: «لا أعمل من الجامعة إلى البيت وليس لدي شيء آخر». فقال: «أليس لديك عمل آخر غير الجامعة؟» قلت: «أعطي دروساً خصوصية وأذهب إلى بعض الرحلات السياحية كقائد حملة». فقال: «أليس لديك عمل مستقل آخر؟» قلت: «لا» قال: «أنا أوفر لك عملاً مستقلاً». قلت: «أنا لا أريد أن أعمل معكم».

كنت أعرف أنه يريد تجنيدي (جواسيس ومخابرات)، قلت له: «أنا لا أريد أن أعمل معكم». عندها خرج عن طوره وبدأ يضربني بشدة على صدري ووجهي، حتى أن عناصر الشغب في الخارج

سمعوا الصوت فاعتقدوا أنَّ شيئاً ما حدث، وفتحوا الباب بسرعة، فقال لهم: «ابقوا في الخارج».

ثم أوقف الضرب، وقال لي: «نحن إلى الآن لم نفعل لك شيئاً، لكن سنعطيك المجال لكي تفكر وتكون تحت حمايتنا ولا أحد يقدر أن يكلمك. أي مكان تريد أن تصل إليه، باستطاعتنا أن نوصلك. تريد الآن أن نخرجك؟ لا أحد باستطاعته أن يكلمك أو أي شيء، نخرجك إلى المكان الذي تريده، وأعطنا رقم هاتفك كي نتواصل معك». كررت: «أنا لا أريد أن أعمل في هذا الأمر». قال لي: «فكر»، وأخذ رقمي الشخصي وخرج من دون أن يتفحصه.

عندما خرجوا، ذهبْتُ إلى صاحب البيت، وطلبتُ منه أن يتدبّر أمر خروجي مع إحدى النساء في سيارتها، لأن هذا أقل شبهة. خرجت معي إحدى النساء وأوصلتني إلى البيت، فاتصلت بوالدي على الفور وطلبت منه أن يشتري لي تذكرة سفر كي أخرج من البحرين. عدتُ مباشرة إلى قم.

الشيخ حبيب علي:

الروح المعنوية العالية في ساحة الفداء

وصلتُ إلى البحرين في شهر يناير / كانون الثاني 2017، أي بعد ستة أشهر من بدء الاعتصام. بمجرد وصولي، ذهبتُ إلى الدراز للقاء الشيخ. عندما وصلت، كان المكان مغلقاً، والشرطة منتشرة على طول الشارع، لا أحد يستطيع الدخول. دخلتُ خلسة، الناس كانوا يهتفون، والمعالم ما زالت غير واضحة بالنسبة لي. ذهبتُ مرتدياً «القحفية» فقال لي الشيخ محمد علي (ابن الشيخ عيسى قاسم) إذا رأوك سوف يعرفون أنك طالب علم، فخلعتها، والتقيت بالشيخ. كنتُ أريد الانكباب على قدميه من الاشتياق، لكن الشيخ بدعابته ومزاحه لم يترك لنا مجالاً، وكانت المشاعر تفيض.

البقاء مع الفقيه أولى

أسقطت جنسية الشيخ في اليوم ذاته الذي سافرت فيه إلى قم. غادرتُ البحرين صباحاً وأسقطت جنسيته مساءً. وصلتُ إلى قم مساءً، وتفاجأت بالطلاب يلبسون الأكفان. سألتهم: «ماذا حدث؟» فأخبروني.

نزلتُ إلى الحسينية مباشرة من المطار. وهناك أقيمت فعاليات وهتافات احتجاجية. في تلك الفترة كانت لدي مهمة السفر إلى الهند من أجل التبليغ لمدة شهر تقريباً، سافرتُ إلى الهند، لكنني شخصتُ تكليفي بكون وجودي في البحرين إلى جوار الشيخ هو الأوجب الآن.

كانت لدي بعض المتابعات والتكاليف التي يجب أن أنجزها قبل نزولي إلى البحرين، خصوصاً في ما يخص عملي، فكانت لدي بعض الوثائق التي أعمل عليها ولم أكن قد أنهيتها، إلى أن تمّ توظيف موظف آخر فصار الأمر ممكناً، لم أطق البقاء في قم والأوضاع على ما هي عليه في البحرين. كلّمت القائمين على الدار عن نيتي في العودة إلى البحرين وقلت لهم إنني لا أستطيع الاحتمال.

حصل الهجوم الأول أثناء وجودي في قم. وانتشر فيديو لأنشودة حماسية يظهر فيها الشباب وهم يواجهون القوات دفاعاً عن الشيخ خلال الهجوم الأول، كان الشيخ قاسم يقول دائماً إن الأنشودة تصنع شهيداً وتعطي روحية. أريتُ هذه الأنشودة لزوجتي وقلت لها: «شاهدي الشباب يحامون عن الشيخ وأنا جالس هنا في قم». باركت ذهابي، وقطعت تذكري ونزلت إلى البحرين، تركتُ الأطفال مع العائلة لارتباطهم بالمدارس.

كانت الساحة بحاجة إلى طلاب علوم دينية. وهذا هو المحفز الأكبر لنزولي إلى البحرين. عندما دخلت إلى الشيخ يوم وصولي قال لي: «لماذا أنت هنا في البحرين؟ الآن وقت دراسة». هو يعرف أنني مسافر إلى الهند، وكان قد قدّم لي توصيات حول ما يتوجب عليّ القيام به هناك. أجبته: «التكليف أن نبقي معك هنا». فقال: «ولدي الشيخ محمد علي أقول له سافر ولكن لا يرضى»، فقلت له: «البقاء معك أولى»، دار بيننا كلام ثم خرجت.

داخل الدراز وخارجها

لا أتوقع أنه مرّ على البحرين، أو من الصعب جداً أن يمرّ

على البحرين أجواء مماثلة لتلك التي شهدتها ساحة الفداء، معنى الرباط الحقيقي كان موجوداً، الناس عزل إلا من قضيتهم. كنت أقول للإخوة الذين خلعوا عباءتهم إننا في مكان تتنزل فيه ومضات إلهية. الناس هناك أصحاب بصيرة وقلب نقي، ولديهم وضوح في التكليف. لمسنا معنى الإخلاص الحقيقي عندهم. كانوا يخجلوننا. لا يكفي أن تكون طالب علم، الأهم أن يتمتع الإنسان بصفاء ويكون قريباً لله عز وجل. كنت أخجل عند رؤيتي الشباب والنساء والعجائز في المسيرات التي تخرج في الدراز.

توجد مشاهد لا تذهب من ذهني، تخرج المسيرات وتحيط بيت الشيخ، ففي البيوت المجاورة والمحاذية لبيت الشيخ يوجد رجال كبار في السن لا يستطيعون المشي، فهؤلاء يقفون عند أبواب بيوتهم ويسلمون على الناس كنوع من المشاركة. هذا المنظر مبكراً جداً.

لا أنسى تلك الليلة عندما هطل المطر بغزارة غير معهودة في البحرين. كانت ليلة جمعة، والناس يجلسون في الساحة تحت السماء، يستمعون دعاء كميل دون أن يوقفهم المطر، أو يجعلهم يغادرون أماكنهم.

ولا أنسى أيضاً مشهداً رأيته في الفترة التي انتشر فيها البعوض، خرجت في إحدى المرات من بيت الشيخ، ورأيت الشباب نائمين في العراء عند عتبة الباب، وكان البعوض يحوم فوق رؤوسهم. هذه المناظر مؤثرة جداً.

طبعاً الأجواء داخل الدراز تختلف عنها خارجها. في الخارج، هناك هموم أخرى واهتمامات وانشغالات مختلفة. نعود إلى

الدراز، فتعود المعنويات والأجواء الروحية جميعها، داخل الدراز الهمّ هو فداء الشيخ والشهادة، والكلام كله عن هذا، في الخارج الأمور تختلف.

بعد إعدام الشهداء السميع ومشيمع والسنيكيس في 15 يناير/ كانون الثاني 2017، سُرب خبر أنه سيتم الهجوم على الدراز، وأنّه سوف يُتخذ إجراء بحق الشيخ، فتمت الدعوة إلى مسيرة الأكفان في كل البحرين. الآلاف توافدوا إلى الدراز مرتدين أكفانهم، وفي تلك الليلة تلوّنت الدراز كلها باللون الأبيض، في مشهد مؤثر جدًّا.

ذات مرّة جلسنا نتابع خطابًا للسيد حسن نصرالله تكلم فيه عن المرابطين في ساحة الفداء، كنا نسمعه مباشرة ونحن هناك في المجلس، فقال إنه ما وجدنا في التاريخ لمدة عام قائدًا محاصرًا ويحرسه شعبه. هذه الكلمة كان لها بالغ الأثر في الحضور، فترقرقت دموعهم وفاضت عيونهم من شدة التأثر.

طلاب العلوم الدينية

تفاوت تواجد طلاب العلوم الدينية في الاعتصام، كان البعض مقيمًا هناك طوال الوقت، والبعض الآخر كثير التواجد، وآخرون يتواجدون في الأوقات المفصلية.

كان ثلاثة من طلبة العلوم الدينية مقيمين في الاعتصام واحد منهم تم اعتقاله، ثم أُفْرِج عنه لاحقًا في البحرين. هذا الشيخ عقد قرانه في ساحة الاعتصام، وقال لزوجته: «أنا لن أعمل أي مظاهر فرح ما دام الشيخ في الحصار»، وغادر زوجته التي كان لتوه قد عقد قرانه عليها وأتى إلى الساحة. بل إنه حتّى في اليوم الذي

اعتُقِلَ فيه، كان أول سؤال له عن الشيخ، قبل أن يسأل عن زوجته. وفي أثناء جلسة لطلاب العلوم الدينية مع الشيخ عيسى قاسم (ندخل عليه كل أسبوعين)، سألنا: «أين هو المعرس الجديد؟» فقالوا له: «فلان».

غالبية طلاب العلوم الدينية يتواجدون في الدراز ليوم أو اثنين أو ثلاثة. يصلّون الجماعة، ثم لديهم التزامات في مناطقهم فيذهبون لتأديتها ويعودون. آخرون يتواجدون في المواقف المفصلية؛ أي ليالي المحاكمات، والمسيرات، وإذا دخلنا على الشيخ يأتون.

نتواجد في مجلس غير معروف خاص بنا، أخفيناها حتى لا يتم استهدافه. تقام في هذا المجلس دروس دينية، أما الكتب فقد كانت متوفرة لدينا، إذ كانت لدينا مكتبة كبيرة في المجلس، فصاحب البيت شخص قارئ ولديه ثقافة حوزوية عالية.

كنتُ أقل الموجودين دورًا، لكن هناك تكييفين: الأول صلاة الجماعة وفق التوزيع بين المشايخ الموجودين، والثاني تدريس طلاب العلوم الدينية. وزّعت مهامهم بين الدراز وخارجها. في الدراز، قدّمت للإخوة دورة عن الخمس.

تم استدعائي للتحقيق في مركز الشرطة أثناء تأبين الشهيد الصدر، كان ذلك خلال فترة الاعتصام، لكنهم لم يسألوني عنه. فقد كنّا نذهب إلى الدراز من غير عمامة، وإذا وقفنا للصلاة نتلثم، بحيث لا يعرفون من هو إمام الجماعة. إمامة الصلاة في ذلك المكان مسؤولية عظيمة وأمانة ثقيلة.

أنا على خطي أخي

تربطني بالشهيد أحمد جميل علاقة شخصية قبل اعتصام الدراز، يعطيني أشرطة دروس الشيخ عيسى قاسم. كنت ذاهباً لأوصل شيئاً للشيخ فرأيتُه ضمن حرسه، قال لي: «تفضل واشرب الشاي». يحدث أن يطلب الشيخ شيئاً، فيتم إحضاره، مثلاً، يطلب بعض الكتب خلال فترة الاعتصام من أجل القراءة والتحقيق. يكتب الشيخ أسماء الكتب وأحضرها له من المكتبات من خارج الدراز، أو أطلبها من قم عبر بعض الإخوة. ويحدث أن يطلب أحياناً أيضاً بعض الأدوية، وقد طلب ذات مرة عكازاً. أثناء ترددي على بيت الشيخ، كنت أجد الشهيد أحمد جميل هناك دائماً.

في ليلة الهجوم الذي أسفر عن إصابة الشهيد مصطفى حمدان، كنا نائمين ولم ندرِ ما الذي حدث. ذهبنا فيما بعد ورأينا الدم على الأرض. في يوم شهادته، كنا في الدراز. صلينا فريضتي الظهر والعصر يوم الجمعة، ثم أعلن أن الشهيد مصطفى حمدان انتقل إلى رحمة الله، وضجت الناس. خرجنا من جامع الدراز إلى بيت الشيخ لنخبره. بعدها التقت والدته الشهيد وأخوه بالشيخ، وقد وثق هذا اللقاء بالصور والفيديو، جلس الشهيد محمد بجانب الشيخ، وكانت أجواء لا تُنسى.

تعرفتُ على الشهيد محمد حمدان بعد استشهاد أخيه مصطفى. كنت أوثق ما يحدث، فطلبتُ الجلوس معه، وقد زار مجلسنا وتحدثنا لأربع ساعات كاملة عن أخيه وعائلتهم وارتباطهم بالشيخ، ولو كنت أعلم أنه سوف يستشهد، لعمقت علاقتي به أكثر. محمد شاب شفاف، ذو وجه متورد ومنير، كان واضحاً أنه ليس من أهل الدنيا، وقد حسم أمره باتجاه الشهادة. يقول: «أخي

سبقني وأنا على طريقه، ونحن تعاهدنا عند السيدة زينب (ع) بأننا فداء للشيخ ونستشهد في هذا الطريق». فلتعلم منهم إنصافاً.

سبقني الهجوم

لم أكن في البحرين في يوم الهجوم الأخير، كنت ذاهباً لإحضار عائلتي، وقد أجّلت ذهابي أكثر من مرة بسبب محاكمات الشيخ إلى أن انتهت المدارس في قم، فقلت آخذ العائلة وأعود. لقد حجزت للعودة الأربعاء 24 مايو/ أيار 2017، وحدث الهجوم الثلاثاء، أي قبل عودتي بيوم، ولعل ذلك بسبب ذنوبي. كلما أتذكر ذلك اليوم أتحسر، وأحاول تناسي هذا الأمر. الله عز وجل أدرى بالمصلحة، لكنها حسرة في نفسي.

عندما وصلت إلى البحرين في اليوم التالي ذهبت لزيارة الشيخ. دخلنا إلى الدراز. التقينا بالشيخ محمد علي، قال لنا إن الوالد الشيخ يسلم عليكم، ويخشى أن يتم استدعاؤكم وأن تتعرضوا للتحقيق بعد خروجكم من عنده، وأنه من أجل سلامتكم لا يستطيع أن يراكم، فلم نلتقِ بسماحته آنذاك.

الشيخ فاضل علي:

الشهداء سقطوا مقبلين لا مدبرين

ساحة الفداء ساحة واجب وتكليف، لا يمكن للإنسان التخلي عن هذا الأمر مهما تعددت الأسباب والعوارض والأعذار. من ناحية أخرى، فإن الأجواء الروحية هناك تجعلك تشعر بأن هذا المكان هو الموضع الذي يريدك الله أن تكون فيه.

لم أكن مقيمًا في الساحة، لدي ارتباط بصلاة جماعة، كنت أشارك في بعض الأيام، وأنام هناك في بعض الليالي لكن ليس بشكل دائم. كنت أخبر والدي في البداية أنني ذاهب إلى هناك، لكن بعد ذلك صرت أذهب من دون إخباره لخوفه عليّ. والدتي لم تكن ممانعة، وزوجتي لديها مخاوف، كونها في فترة الحمل وتنتظر مولودًا، وهي قلقة بشأن ما يمكن حصوله، فكنت دائمًا بحاجة إلى مناقشتها وتحفيزها وتذكيرها بأهمية الموضوع، وبأن الإنسان لا يقدر الإنسان أن يتخلى عن واجبه.

دوري في الساحة كان عبارة عن ملء فراغ، إن صحَّ التعبير، فالساحة بحاجة إلى أدوار لا يؤديها إلا طلاب العلم، وبسبب النقص في عدد المشايخ بعد اعتقال نسبة كبيرة منهم، صرنا نؤم الجماعة في الفرائض بحسب التوزيع الذي كان موجودًا، ونقوم بإلقاء الكلمات في المناسبات، ونقدّم بعض الدروس الدينية.

بسبب إمامي بالأمور التقنية، ولكوني خريجًا في هندسة

الكمبيوتر، كنت أُعطي بعض الملاحظات الأمنية والتقنية، وقدّمت دورة مختصرة لبعض الإعلاميين والإخوة الموجودين في الساحة، تناولنا فيها النواحي الأمنية. تم تقديمها في المجلس الذي أتواجد فيه وحضرها بعض المشايخ. الفئة المستهدفة الأهم هي مجموعة الشباب الحركيين والإعلاميين.

جو الساحة يختلف عن الخارج، ففي الخارج هناك شباب يتفاوت توجههم واستعدادهم لتلقي الدروس، في الخارج كانت لدينا دروس دينية في المساجد، كنّا (نجرجر) الطلاب كي يحضروا ونشجعهم من خلال أمور تحفيزية، لكن هنا الشباب هم أنفسهم يطلبون الدرس ويلحّون عليه. كانت الدوافع لديهم ذاتية وكذلك الحوافز، ولديهم قابلية روحية قوية للاستقبال والعطاء. كل من يحضر في الساحة يشعر بالتأثر بشكل ملموس ومحسوس.

مشاهد من الملحمة

يوم الاقتحام الأخير، لم أخطط لأكون في المنطقة المحصورة صوب بيت الشيخ، لكن بسبب تسارع الأحداث ودموية الهجوم، اضطررت أن أدخل. كان واضحًا أن هناك أشخاصًا ذاهبون إلى الشهادة، وكانت هناك مشاهد مؤثرة.

أحد المشاهد لأحد الشباب المطلوبين، محكوم في قضايا كثيرة، لم يكن مجروحًا وباستطاعته الهرب عندما أوشكت القوات على اقتحام الحواجز والوصول إلى بيت الشيخ، لكنه بقي هناك حتى كُسر الباب وتم الاقتحام. كان لديه الكثير من الوقت ليهرب، البعض قد هرب بالفعل في اللحظات الأخيرة وخرجوا عن طريق بيت طلبة العلوم الدينية، لكنه أصر على البقاء، على

الرغم من معرفته بأنها مسألة وقت فقط ويقع في أيديهم، وكان يدرك أن وضعه سيكون صعباً.

من جهة ثانية، هناك عدة أشخاص مثل محمد علي، والشهيد محمد كاظم مثلاً. هناك عبارة قالها الشهيد محمد كاظم وقت الصلاة ما تزال عالقة في ذهني: «نحن هنا موقفنا موقف صلاة وجهاد ودفاع»، فالبعض راح يؤدي الصلاة، والبعض الآخر وقف يراقب ويدافع.

محمد علي كان في قمة الحماس، وبشكل ملحوظ جداً، وكان المحرّك للجماهير في تلك المنطقة، وبطبيعة الحال كان بعضهم متعباً ومنهكاً، وتنفسه ضعيف بسبب الاختناق، لكن محمداً كان يعمل مثل الدينامو ويشحذ طاقة الجميع حتى آخر اللحظات وآخر الأنفاس.

عندما حلّ وقت الصلاة، كان بعض الشباب مصابين بجراح، ودمهم ينزف، لكن ذلك لم يؤخرهم عن الصلاة، كانوا يتوضؤون ويطهّرون أنفسهم ويستعدون للصلاة، بعضهم كانت الدماء تلطّخ ثيابه بالكامل، فكانوا يخلعونها ويطهّرون أنفسهم بما توفر ويسألون كيف تكون الصلاة صحيحة، ليؤدوها في تلك اللحظات.

مشهد آخر في البيت الملاصق لبيت الشيخ، كان يوجد فيه الشهيد محمد زين الدين، وكنا نستطيع الدخول إلى هذا البيت من خلال فتحة. دخلت لأنني كنت أريد أن ارتاح بسبب ضيق التنفس، فرأيت الشهيد موجوداً هناك. كان مغطى، وكان الشباب متجمعين حوله.

السقوط مقبلين لا مدبرين

المشهد الأخير خاص بالخمسة الذين ذهبوا للشهادة، لقد سقطوا جميعهم مقبلين لا مدبرين، وكانوا في وضع الإقدام لا الفرار. جميع إصابات الشهداء كانت في صدورهم لا في ظهورهم. لقد ذهب هؤلاء إلى الشهادة بكل وعي وإصرار. لقد سقط الشهيدان محمد الساري ومحمد زين الدين في الساحة، وسقط الشهداء أحمد جميل ومحمد العكري ومحمد حمدان عند باب بيت الشيخ. كان باستطاعة كل هؤلاء أن ينجوا بحياتهم في أي وقت، أو يغادروا المكان، أو يتعدوا عن المنطقة.

بعد أن اقتحمت القوات حواجز بيت الشيخ، وضربوا الشباب وسيطروا على كل شيء، هدأت أصوات الشباب. كنا في البيت المجاور مع مجموعة من المصابين، نتظر إما أن يأتوا ويعتقلوننا وإما أن نجد لنا مهرباً. في تلك اللحظات، لم نكن نبدو بمظهر طلاب العلم، البعض يعرفون ذلك، لكن من لا يعرف لا نخبره. كان الشباب المتواجدون يلومون أنفسهم وكان لديهم تساؤل كبير: «لم نصرهم.. لم نُصّب معهم.. لم نُعتَقَل معهم.. هل نحن مقصرون؟ هل هناك خلل فينا؟ هل هي ذنوبنا التي حرمتنا؟»

فكنا نجيبهم: «لقد أدبتم الدور الذي عليكم ولم تقصروا، لكن، قد يكون لكم ترتيب آخر، في وقت آخر».

الفصل الخامس:

شهداء الباب الأخير

الشهيد محمد كاظم زين الدين:

رائحة العطر الأخير

أنْ تنكّر ذاتك بحيث لا يعرفك أحد إلا بعد ذهابك، ذلك أكثر ما يعبر عن الشهيد محمد كاظم زين الدين، فهو من الذين أمضوا حياتهم يعملون بصوت خفيض، وحضور مغمور، وإيمان ثابت. لم يعرف البحرينيون محمد كاظم قبل يوم شهادته، لكن المواقف تعرف أهلها.

في يوم الاقتحام الأخير، وفيما الساحة غارقة وسط غيمة من دخان، وقد خارت قوى الشباب المحيطين ببيت الشيخ بعد ساعات من المواجهة والإصابات بطلقات الشوزن والاختناقات، حلّ وقت صلاة الظهر، فتحرّر الشباب كيف يقومون للصلاة ويتركون الباب الأخير في مرمى القوّات، دوى في المكان صوت الشهيد قوياً كما لم يعهدوه من قبل: «نحن هنا موقفنا موقف صلاة وجهاد ودفاع»، فكان أن تناوب الشباب بين قائم يصلي وحارس يترقب.

هدوء وعنفوان

هو ابن الدراز، جدّه الخطيب الحسيني والشاعر الملا علي بن الملا ناصر زين الدين أحد رواد المنبر في البحرين. متزوج ولديه 3 أولاد. قضى حياته جاداً ومجدداً في الدراسة والعمل وخاصة لناحية الالتزام الديني. أنهى تعليمه الجامعي فحاز على بكالوريوس الحاسوب، وعمل مهندساً ومبرمجاً للحاسوب

والشبكات الإلكترونية في إحدى المؤسسات المصرفية، وساهم في عدد من المشاريع العلمية والتطويرية، كما بُعث من قبل الشركة التي يعمل فيها إلى عدد من الدول بينها الكويت ونرويجي وعمان وليبيا والعراق.

آمن أن قيمة الإنسان ما يعطيه وما يفعله، لا ما يقوله. تربى على عشق شيخ الدراز الذي يعتبره رمزاً دينياً ووطنياً له، عشق الموت دونه. «له حضور شديد الهدوء، وتواضع جمّ، وابتسامة دائمة»، هكذا يصفه كل من يعرفه، ومن رآه في اعتصام الدراز. قد لا يصدّق من يرى هدوء زين الدين ما فيه من حرارة العنفوان الثائر والمتوقّد، لكن الذين عاشروه يعرفون ذلك.

مثل سرّ عميق

هكذا يصفه كل من عرفه. لقد عطّل حياة عائلته وبذل طاقته كلّها فداء للشيخ، بكل ما لديه من حب وشعور بالمسؤولية، تاركاً كل الأمور الأخرى وراء ظهره. لم يكن أحد يعرف عنه ذلك.

كان الشهيد كتومًا، قليل الكلام وكبير الفعل. طوال الاعتصام لم يسمع أحد صوته، لكن الجميع شهد فعله.

رابط في الساحة طوال فترة الاعتصام. كان يخرج إلى عمله صباحًا، ليعود مساء إليها. كان وضعه الوظيفي مريحًا، وراتبه معزّيًا، وكان محبوبًا في عائلته، الأقرب إلى والده ووالدته بين إخوته، والأشد حنانًا عليهم. كان كل شيء في حياته مستقرًا ومنظمًا، لكنه آثر الفداء، فلطالما كان عنفوان قلبه ينبض ضد الخضوع والاستسلام.

الشهيد الأول

بهذا العنفوان خطَّ الشهيد نهايته، فكان أول من سقط دفاعاً عند الباب الأخير. لم تمهله طلقات الرصاص ليرفع يده الغزلاء في وجه القوات ويصدّها عن التقدّم نحو الباب. باغتته طلقات الشوزن واخترقت قلبه ورثته اليمنى، فتسببت بنزيف وفشل في عضلة القلب. تلقفه الشباب من بين وابل الرصاص والغازات التي غمرت الساحة، تعذر عليهم نقله إلى المستشفى وقد حوصرت المنطقة بأكملها، فنقلوه إلى أحد المنازل القريبة، حاولوا إسعافه وأجروا له تنفساً اصطناعياً فعاد له تنفسه، لكن حالته كانت حرجة. المنطقة في الخارج مليئة بالغازات ومسيلات الدموع، وكانوا بحاجة قصوى لنقله إلى المستشفى، فأخرجهم الشباب وقالوا للقوات: «الرجل يموت خذوه للإسعاف»، لكنهم لم يكثرثوا، بل كثفوا إطلاق الغاز المسيل للدموع، وظل الشهيد ملقى على الأرض وزاد اختناق، فلما رأى الشباب ذلك خرجوا إليه مرة أخرى، وأعادوا إدخاله إلى البيت محاولين إنعاشه، لكن الوقت كان قد فات.

تناقلت وسائل التواصل المجتمعي صورته كأول شهيد سقط في ذلك اليوم. كانت والدته السبعينية حينها محاصرة مع مجموعة من النساء في أحد البيوت، لم تكن تستطيع الخروج بسبب الجيوش المسلحة في الخارج والطلقات. وعندما انتشر خبر سقوط الشهيد الأول وقيل أن اسمه محمد كاظم محسن، صرخت وضربت على صدرها: «هذا ولدي». وعندما رأت الصورة في هاتف إحداهن، تأكدت أنه هو. انهارت. اتصلت بابنها محمود وصرخت به: «ماذا حدث لأخيك؟» قال لها: «لا شيء. أين أنت؟ ساتي لآخذك».

قالت له: «لا تخرج. سيقتلونك، أنا سأتي إلى البيت». وضعت عباءتها على رأسها وتوجهت نحو الباب، حاولت النسوة منعها بسبب خطورة الوضع في الخارج، فكان جوابها: «سأخرج ولو قتلوني، لقد قتلوا ولدي، فليقتلوني أنا أيضاً».

خرجت معها إحدى قريباتها، ومشتا بين البيوت في الأزقة وكأنهما وسط معركة حقيقية، وحين وصلتا إلى البيت، كان محاطاً بالقوات بالكامل.

رائحة العطر

بحسرة ولوعة تقول والددة الشهيد: «لا تفارقني أبداً صورته، بعينه المفتوحة، وفمه المفتوح».

يتهدج صوتها وهي تتحدث عن ابنها: «ابني الحنون، عطوف عليّ وعلى والده وجميع إخوته. كلما عاد من المدرسة إلى البيت، أتى ليحتضني أولاً. بعد الغداء، كان يفتح حقيبته وينشر كتبه ودفاتره، وينهي واجباته ثم يخرج للعب مع أقرانه. اعتمد على نفسه، وكان متفوقاً طوال سنوات دراسته، وهو من دخل الجامعة من بين أبنائي».

تكمل: «كان يذهب إلى الاعتصام بشكل يومي، وكنتُ أنا كذلك أواظب على الحضور. في ليلته الأخيرة، زارني في البيت وسلم علي، ثم ذهب لزيارة أخته. أانا مودّعا، احتضني كعادته، فعلق عطره في ثوبي، وبقيت هذه الرائحة عالقة في أنفي. حتى اليوم لا تفارقني كما لا تفارقني صورته. ما زلتُ أحتفظ في الثلاجة بعلبة عصير كان قد أعطاها لي ذات مرّة عندما زرته في بيته. آه.. لا حسرة تعادل حسرة فقد الابن».

«لا شيء ينسيني محمد كاظم، ولا شيء يخفف عني لوعة فراقه. هو الأوسط بين إخوته، لكنه كان يحنو على الكبير منهم والصغير، لا يكاد أحد يطلب شيئاً حتى يأتي له به».

«لقد انكسر والده بعد شهادته كسرًا لم يُجبر منه. كان قبلها يخرج إلى الجامع مشيًا على الأقدام، الآن لا يخرج من البيت، يقول: «لا أستطيع أن أسلي نفسي عنه، لقد كان بالنسبة لي ولدًا وأخًا ورفيقًا وسلوى، لقد فقدت الحنون الوصول»».

هكذا غادر الشهيد محمد كاظم عائلته، وترك عطر حبه وحنانه وعطائه عالقا في أنف كل الذين عايشوه وعرفوه، لكن لم يتسنّ لعائلته أن تشم عطره الأخير، عطر الشهادة، إذ لم تتمكن من توديعه ودفنه. فبعد استشهاد، احتجزت السلطات جثمانه مع جثامين شهداء ذلك اليوم، لم تُسلمها لعوائلهم، ثم قامت بدفنهم قسرًا من دون علم أهاليهم في 26 مايو/ أيار 2017، بعد 4 أيام من احتجاز الجثامين الطاهرة في المستشفى العسكري.

الشهيد محمد الساري..

وهل أوثق من سبب بينك وبين الله؟

من أكثر المشاهد التي تركت أثرها في ذاكرتي عند اقتحام الدراز في 23 مايو/ أيار 2015، كان مشهد سقوط الشهيد محمد الساري. لا يمكنني نسيانه لفرط بسالته وعنفوانه، أراه يعيد نفسه أمام عيني بين الحين والآخر.

هكذا سقط

استشهد الساري قبل اقتحام القوات منطقة الصبيات، أو ما نسميه بمحيط بيت الشيخ. هناك، وقف شامخاً، محاولاً ردها عن التقدّم. كانت أصوات التكبيرات والطبول عالية جداً، والأجواء صاخبة كأننا في حرب، الساحة مغلقة تماماً بالغازات المسيلة للدموع، لم نكن نستطيع التنفس أو التحرك. سقطتُ وأربعة شباب فوق بعضنا البعض من شدة الاختناق، قبل أن نحتمي بأحد الحواجز الإسمنتية عند بيت الشيخ. ترنحنا خلال سقوطنا، وكنا نسعل من شدة الاختناق، وأعينا ميزاب من الدمع. بقينا على هذا الحال لفترة من الزمن، نحتمي بالحاجز من الطلقات، لا نرى حولنا إلا سحباً من الغاز الأبيض التي تغطي المكان بأكمله. وحين بدأت السحابة تنقشع تدريجياً، رأيت ذلك المشهد، كخيال أبيض.

كانت القوات تتقدّم في الساحة نحو الحواجز ببطء. فجأة، خرج محمد الساري من وسط سحابة الدخان، كان

يمسك درعًا بلاستيكيًا طوله قرابة متر ونصف وعرضه متر (كان الشباب قد أعدّوا بعض الدروع للحماية من الطلقات، بعضها بلاستيكي وبعضها معدني). رأيته يتقدّم في وجه القوات بشجاعة نادرة، برأس أرفع من سماء، وثبات أصمد من وتد، يمدّ الدرع أمامه بيده اليمنى، يحاول صدّ القوات عن الاستمرار في التقدّم، كأن الدرع سيفه الذي يشهره في وجوههم ليصرخ بهم: «تراجعوا!!!»

كان وحيدًا في هذا المشهد، وحيدًا تمامًا، ومع ذلك لم تشنّ قدمه، ولم تهتز يده الممدودة بين سحب الموت، مشهد مهيب لا يمكنني أن أفيه حقّه في الوصف. وما هي إلا لحظات، حتى ترنح ذلك الدرع الثابت، صار الساري يقع على الأرض ويقوم، لا أعرف كيف حدث هذا، ومن أي جهة أتته تلك الطلقة الغادرة الفاجرة، ربما اقتنصته من أحد جانبيه، وعندما مال درعه وانكشف بعض جسده، صاروا يطلقون النار عليه من دون توقف. بدأ يتراجع، رأيته وقد ضعفت قواه، فيما هم يتقدمون نحوه ويواصلون، تراجع قرابة خمسة أمتار، حتى انهارت قوّته بالكامل وسقط أرضًا، هنا فقط، تركته القوات وأكملت اقتحامها، على الفور تراكض الشباب نحوه وسحبوه إلى منطقة غير مكشوفة (منطقة البئر) وحاولوا إسعافه، لكن لم يتمكنوا من فعل أي شيء.

هكذا سقط الشهيد محمد الساري، وهكذا روى لنا أحد مرابطي الدراز وأحد معتقلي ذلك اليوم، حكاية استشهاد. هذا المشهد لم تره (فاطمة السميع) زوجة الشهيد الساري، ولم تعرف كيف عاش محمد لحظاته الأخيرة، وهو ينازع بعيدًا عنها، لم تتمكن فاطمة من الوصول إليه، ولا رؤيته، ولا توديعه بنظرة

أخيرة. لم تره فاطمة على فراش غيابه، ولا ممدوداً فوق المغتسل، ولا حتى وهو ينزل إلى بيته الأخير، سيظلّ موته يشكّل الفراغ غير المكتوب في حياتها معه.

غليان لا يهدأ

فاطمة السميع: لا شيء يمكن وصفه بأنه عادي في حياتي مع الشهيد محمد الساري، لا شيء على الإطلاق. إليكم بعض المفارقات:

(1) إصابته الأولى في فبراير/ شباط 2011، وحصلت قبل أيام من موعد عقد قراننا المفترض.

(2) تم عقد قراننا بعد يوم واحد من الإفراج عنه في 2013، بعد أن أمضى عامين في السجن، ولم أتمكن من الاختلاء به لمدة أسبوعين كاملين بسبب المهنيين.

(3) استشهد بعد شهر واحد من انتقالنا للعيش في البيت الذي حرص على بنائه كاملاً بنفسه.

(4) عندما عرف بحبّي لمدينة المحرّق، قال لي: «إذا انتصرنا سأشتري لك بيت هناك»، وعندما استشهد دُفن هناك لا اختياراً منه أو منّا، بل فرضت قوات الأمن علينا ذلك، وصار بيته في المحرّق مزاراً لي.

لم أُمضِ أي لحظة معه بشكل طبيعي، كل حياتنا كانت عبارة عن مفارقات.

الشهادة وحدها كانت تشغل تهادّجاته وطموحه في الحياة، إما نصر يستحقه الوطن أو شهادة نستحقّها، لم يفتر غليانه يوماً،

ولم تخدم الشعلة التي في داخله، لم توقفها القنبلة الصوتية التي انفجرت عند يده في يوم 14 فبراير/ شباط 2011، ولا رصاصة الجيش التي اخترقت صدره وخرجت من ظهره في 18 فبراير/ شباط 2011، ولا بقاءه بين الحياة والموت لأشهر وسط المعاناة والتعذيب في المستشفى، ولا سجنه الذي دخله ملقى على فراش المرض لمدة عامين، لم يقل يوماً: «اكتفيت». قالها فقط يوم سقوطه الأخير وهو يقبل الأرض مودعاً: «الآن اكتفيت، سأمضي للسماء وكفى».

لم أعش معه حباً خالصاً، ولا خطوبة مؤججة، ولا زواجاً مريحاً. كانت السياسة شريكتي الأصعب، ومنافستي التي تنجح دائماً في اختطافه مني. كلانا من مواليد العام نفسه 1989، منذ أول جلسة جمعتنا للتعارف في نهاية العام 2010، كان مهتماً بالتعرف إلى خطي السياسي، وحريصاً على أن تكون اهتماماتنا مشتركة. كنت بالفعل ناشطة سياسياً، وأحرص على التواجد في أي فعالية سياسية، كان ذلك مطلباً لديه في شريكة عمره، فهو بحاجة إلى زوجة تشبهه وتتفهم الخط الذي اختاره لنفسه، ويمكنها أن تحتل ثمن هذا الخيار.

منذ لقائي الأول به وجدت فيه شخصاً مختلفاً. أحببت إيمانه وصدقه ونقاؤه. أحببت حتى غليان الثورة في داخله، وطموحه بوطن يحتضن أبناءه، لكنني أعترف أنني لم أتوقع أن يكون معجوناً بالسياسة إلى كل هذا الحد الذي تبين لي فيما بعد. كان دائماً يقول لي: «البحرين لها مستقبل عظيم، وأبناؤنا سيعيشون أفضل مما نعيشه، لكن لا بدّ من تضحيات».

عندما تعارفنا، كان قد حصل لتوه على وظيفة في شركة المؤيد، فلديه دبلوم في الهندسة الكهربائية. قال لي إنه بحاجة إلى ثلاثة أشهر كي يتمكن من تثبيت نفسه، والحصول على قرض من الشركة يساعده في تكاليف حفل عقد قراننا، وكنت حينها ما أزال أدرس في الجامعة فقبلت. لكن لم تكد تنقضي الأشهر الثلاثة إلا وقد اشتعلت ثورة 14 فبراير، وكان هو من أبرز الحاشدين لها، لم أخذ أمر تحشيد الثورة على محمل الجد، لكنه قال لي: «هذه المرة ستكون مختلفة وسترين». إنه الشهر ذاته الذي كان مقررًا عقد قراننا فيه، وكان قد ربّ أموره مع الشركة لاستلام القرض، لكنه مضى في خطة أخرى كليًا.

رصاص الجيش

في صباح 14 فبراير/ شباط، اشترى محمد علمًا كبيرًا، وعلقه على عصا كبيرة، وخرج في سيارته فاتحًا نافذتها وملوّحًا بالعلم في الشوارع وهو يضرب بيده الثانية على بوق سيارته ويصيح في الناس: «إنها الثورة يا شباب، هيا قوموا هيا أخرجوا». وكداعية، قطع جميع القرى على شارع البديع، وهو يلوّح بعلمه ويزعق ببوق سيارته ويحشد الناس في الشوارع للخروج.

عند العصر، خرجت مسيرة من الدراز وكان هو في صفوفها الأولى، تقدّمت القوات للقمع وظلّ ثابتًا لا يتحرّك. هكذا كان دائمًا، لا تهتزّ له قدم أمام القوات، لديه شجاعة استثنائية في الثبات أمامها، شجاعة تجعله مرميً لرصاصها، فكان أن رموا عليه قنبلة صوتية أصابته في يده اليمنى، لكنها كانت إصابة بسيطة تمت معالجتها في اليوم نفسه.

تسارعت الأحداث بسقوط الشهداء، حرص على التواجد في التشييع والمغتسل، ثم بدأ توجه الشباب إلى دوار اللؤلؤة وكان من أول المتواجدين، بقي معتصماً حتى فجر الخميس الغادر 17 فبراير/ شباط، واقتحام القوات للدوار وقمعهم المعتصمين. بعد اشتداد القمع فرّ الشباب إلى البيوت القريبة في منطقة البرهامة، كان محمد بينهم، استضافتهم البيوت حتى الصباح وخرجوا بعدها. في اليوم التالي، 18 فبراير/ شباط، خرج مع جماهير الشباب التي وقفت في وجه الجيوش المحاصرة للدوار، ظلّ واقفاً في الصفوف الأمامية رافعاً علمه الكبير، وبالثبات ذاته الذي عُرف به. اخترقت رصاصة الجيش الأولى رأس الشهيد رضا بوحמיד، واخرقت الرصاصة الثانية صدر محمد وخرجت من ظهره.

كنت يومها في المسيرة ذاتها. اتصل بي عند الساعة الثالثة ظهراً ولم أرد. عندما سمعت صوت رصاص الجيش يدوي في المكان، وضعت يدي على قلبي وأصابني إحساس غريب. رفعت هاتفي مباشرة واتصلت به، لم يكن هناك ردّ، كررت الاتصال مرات ومرات دون جواب، تأكدت أنه أصيب. بقيت في حالة هستيرية: لا أعرف ماذا أفعل، ليس لديّ سيارة وأنا لم أكن أقود حينها، أردت الذهاب إلى السلمانية لكن لا أحد معي. لجأت إلى مسجد في السنايس وظللت أصلي وأدعو وأكرر اتصالي به من دون جواب، كنت وحدي في المسجد والناس في الخارج في حراك عظيم، حلّ موعد صلاة المغرب، فأديتها ثم غادرت المسجد وذهبت إلى بيت جدي وهناك رأيت خالتي وطلبت منها أخذني فوراً إلى السلمانية.

عند مدخل الطوارئ، أوقفني رجل الأمن وقال لي: «غير مسموح الدخول»، قلت له: «أخي هنا»، سألتني عن اسمه فقلت: «محمد علي إبراهيم»، ذهب وتأكد من الاسم وعاد ليخبرني: «للتو تم نقله إلى العناية المركزة». كانت المستشفى مלאى بالناس والإصابات، والكل في حالة ذهول وغضب عارم. صعدت إلى العناية المركزة وسألت عنه فقالوا: «تعبان، ادعي له». دخلت إليه في الغرفة ورأيت أجهزة التنفس موضوعة عليه، وقفت ناحية رأسه وناديت: «محمد». تفاجأت به وقد فتح عينيه ونظر إلي وشعرت أنه يكلمني بعينه. قلت له: «أنا معك، لن أتركك». بقيت في السلمانية طوال الليل. أخبرت عائلتي أنني لن أعود إلى البيت. كانت المستشفى طوارئ كلها، وهناك الشهيد رضا بوحמיד، بعدها غاب كلياً عن الوعي، وأدخلوه عند الفجر في عملية عاجلة وأخرجوه منها ظهراً.

المحاولة الأخيرة

كانت حالته حرجة جداً، ودقات قلبه ضعيفة وفي هبوط مستمر، قال أحد الأطباء يائساً: «إنه في وضع الموت، لن يعود إلى الحياة»، وقال الدكتور صادق عبدالله: «سأقوم بمحاولة أخيرة». كانت مجازفة غير مضمونة، لكن لم يكن هناك خيار آخر، إما هذا، أو الموت المحتّم. لا أعرف تماماً ما هي الحركة التي عملها الطبيب صادق، أعتقد أنه كانت هناك سوائل محتبسة وقام بفتح شيء ما في جسمه، وكانت المفاجأة التي تنفس لها الجميع الصعداء، بدأ محمد يعود للحياة وبدأت دقات قلبه تنتظم. قال لي الطبيب بعدها: «ما حدث كان معجزة».

اخترقت رصاصة الجيش صدر محمد على مسافة أقل من 1

سم من القلب، اخترقت رثته وكسرت اثنين من أضلعه، وخرجت من موضع قريب من العمود الفقري، لو أنها أصابت قلبه لمات فوراً، ولو أنها أصابت عموده الفقري، لأمضى بقية حياته مشلولاً، لكن لم يرد الله له الشهادة في ذلك اليوم، يومه مدّخر.

ظلمت أذهب لزيارته، أتفقده وأغادر. ولأننا لم نرتبط بعقد زواج بعد، لم أتمكن من الذهاب في أي وقت. كنتُ أحياناً أذهب إلى السلمانية مشياً من الدوار عندما لا أجد من يوصلني. الممرضات سألنني عن صلتي به فقلت لهم: «خطيئته»، فقالوا لي: «اتركي رقم هاتفك لكي نتصل بك عندما يلزم الأمر». قلّ بعدها ذهابي بسبب تواجد الأهل، أذهب في الأوقات التي لا يكون فيها أحد.

غبت عنه لأيام، فاتصلت بي الممرضات وقلن لي إنه متعب نفسياً، وإنه بحاجة إلى دعم نفسي ليقوى، صرن يتصلن بي لكي أكلمه في بعض الأحيان عندما لا يلتزم بشرب الدواء مثلاً، كان بحاجة إلى طاقة نفسية ودعم يعينه على الصمود ضد الموت والإصرار على البقاء.

تقرر نقله إلى فرنسا على حساب وزارة الصحة لإجراء عملية دقيقة جداً، وكان يوم سفره المقرر هو ذاته الذي تم فيه الهجوم على الدوار واقتحام مستشفى السلمانية، وتلك مفارقة أخرى، قال الأطباء للجيش: «لدينا حالة حرجة وبحاجة إلى السفر به فوراً». لم يكتروا، في اليوم التالي، نُقل مع بقية المصابين إلى الطابق السادس، على الرغم من تأكيد الأطباء حاجته للعناية الخاصة. الجميع كانوا قلقين على حياة الساري، ويحاولون

قدر الإمكان تجنبه الأذى، لكن لم يتمكنوا من فعل شيء أمام السيطرة الكاملة لقوات الأمن على المستشفى. تعرض للتعذيب النفسي والجسدي وانتكست حالته الصحية، وصارت حاجته إلى إجراء العملية فوراً مسألة حياة أو موت، ما اضطر الدكتور صادق عبدالله إلى إجراء العملية بنفسه من خلال التنسيق عبر الهاتف مع الطبيب الذي كان سيجريها في فرنسا. ظل الأخير يتابع معه إجراء العملية الدقيقة خطوة بخطوة، استغرقت 8 ساعات كاملة، وبعد مشقة وقلق شديدين، نجحت العملية الدقيقة بفضل الله، وبفضل عناية الدكتور صادق الذي أرسله الله ملاكاً حارساً لمحمد، وكان يدين له بحياته.

سألت محمد لاحقاً: «كيف شعرت عندما أصبت بالرصاصة في صدرك؟» أجابني: «هل تصديق أنني لم أشعر بشيء؟ فقط قلت يا علي، ثم شعرت بحرارة الدم على ثيابي، وبشكل لا شعوري، لم أسقط العلم من يدي، وعندما نzf دمي وخارت قواي صرت غير قادر على فتح عيني أو الكلام، لكنني كنت أسمع الأصوات حولي».

المستشفى العسكري

بعد أسبوعين نقلت القوات محمد إلى المستشفى العسكري، وهناك تعرض لأسوأ أشكال الإهانة والتعذيب وأقساها على الإطلاق، بخلاف الأطباء والممرضين في مستشفى السلمانية، الذين كانت قلوبهم تحترق من أجل معالجة المصابين. تم تصميم عيونه وتوثيق أرجله طوال مدة تواجده في المستشفى العسكري، وكانوا ينكلون به ويضربونه على الجرح الذي لم يندمل بعد. هل قلت العسكر هم من كانوا يفعلون ذلك؟ لا بل الجميع بمن فيهم

الأطباء والممرضين لا فرق، كان ذلك أشدّ ما تعرّض له محمد وقد وثّق شهادته في تقرير لجنة تقصي الحقائق.

منذ الهجوم وسيطرة الجيش على مستشفى السلمانية، انقطع كل تواصل بيننا وبينه. تم نقله بعدها إلى مركز شرطة النعيم وهو في حالة يرثى لها، لم يكن يستطيع الكلام أو الحركة. ولولا أن أرسل الله له شاباً من رفقاء الزنزانة احتووه وتولوه بالرعاية، منهم الصحفي فيصل هيات، لما عرفنا أي مصير كان سيمنّيه. حوّل إلى المحاكمة العسكرية، وفي 6 يونيو/ حزيران، عُرض على المحكمة العسكرية، وحُكِم عليه بالسجن ثلاث سنوات بتهمة التجمهر والتحريض على كراهية النظام وغيرها، تم تخفيفها لاحقاً إلى عامين.

بعد ثلاثة أشهر من انقطاع أي وسيلة تواصل بيني وبينه، جاءني اتصاله من السجن. كان صوته ضعيفاً، لم أتمكن من تمييزه أول الأمر، قال لي: «أنا زين لا تحتيني»، ثم سألتني: «هل تستطيعين انتظاري عامين حتى أخرج؟»، قلت له: «لن أجد أفضل منك وسأنتظرك». يسميني (أم علي)، اختار لي هذا الاسم قبل زواجنا، لم أسمع يوماً يناديني باسمي، فاطمة، بعد زواجنا قلت له: «خاطري أسمع اسمي على لسانك».

خطوبة غير عادية

جاءتني بعدها اتصالات أخرى لكن قصيرة، أحياناً، كان يطلب مني تسجيل بعض الرسائل الصوتية التي يسرّبها لنشرها، ذات يوم، سألتني: «أم علي.. هل توافقين أن نعقد زواجنا وأنا في السجن؟» كان قد بقي لانقضاء مدة سجنه حينها عام أو أقل، لم أعطه جواباً

فوراً. فكرت بالأمر ملياً، ثم قلت له في اتصال لاحق: «أفضل الانتظار لحين خروجك».

قبل انتهاء محكوميته بفترة، اتفق مع عائلته أن يجهّزوا لعقد زواجنا بعد خروجه من السجن مباشرة، وبالفعل هذا ما حصل. أُفْرِج عنه في 7 أبريل/ نيسان، وتم عقد قراننا يوم 8 أبريل/ نيسان. لم يكن هناك حفل، فقط أتى الشيخ إلى البيت وتم كل شيء. أما هو، فقد تم تجهيز حفل استقباله في مأتم سار، وهناك تم عقد قرانه ليصير الحفل حفلين.

انتصر بالشهادة

لم أعش فترة الخطوبة التي تعيشها أي فتاة، ألم أقل لكم: لم يكن هناك شيء طبيعي في حياتنا معاً! كان محمد مشغولاً طوال اليوم مع وفود المهنيين من الشباب والأهالي ورجال الدين وعوائل الشهداء. على مدى أسبوعين كاملين، لم أختل به ولم أراه إلا عند موعد تناول الطعام. قلت له بعدها: «محمد، أريد أن نخرج معاً». سألني: «أين تريدان أن آخذك؟» قلت له: «أخذني إلى المحرق فأنا أحبها كثيراً». أخذني عند (بحر الغوص). كنت أتأمل البحر بفرح حين قال لي: «لا تفرحي كثيراً، فأنا لن أبقى لك، أنت تعرفين إلى أين سيأخذني طريقي، إما سجن أو شهادة». كانت تلك المرة الأولى التي نخرج فيها بعد عقد قراننا، نظرت إليه وقلت له: «محمد، أقول لي هذا في أول مرة نخرج فيها معاً؟»، تأثرت كثيراً وبكيت، فقال محاولاً تهدئتي: «لا، لا، أنا أمزح معك فقط، لا تخافي لن أتركك، أنا هنا معك»، كنت أعلم أن الحقيقة هي ما قاله أولاً. ثم سألني: «هل تحبين المحرق كثيراً؟» قلت له: «أحب المحرق وبحر المحرق»، قال لي: «إذا

انتصرنا، سأشتري لك بيتًا هنا، بيتًا يطل على البحر». ضحكنا. لم أكن أعرف أنه سيتنصر بالشهادة، وأن بيته الأخير سيصبح في المحرّق فعلاً.

لم نخرج كما يفعل المخطوبون حديثًا، وهم يبحثون عن الخصوصية في الأماكن والأجواء الرومانسية. كل برامجنّا كانت حيث الشأن العام، حيث لا خصوصية إلا للحدث: أنشطة سياسية، وحضور مسيرات، وزيارات لعوائل شهداء، ومشاركات في تجمعات جماهيرية، وصلاة جماعة، وهكذا. لم أعش خطوبتي مثل أي فتاة، كنت أقرب لرفيقة درب. بعد الزواج، توظّفت والتزمت بالعمل فتأثرت مشاركتي في الأنشطة السياسية، وفي الحقيقة، كنت أشعر بالحاجة إلى بعض الاستقرار والهدوء، فكان يقول لي ممازحًا: «لقد بعّت القضية».

كان دوام عملي ينتهي عند الرابعة مساءً، أعود إلى البيت متعبة ومنهكة، تسبب ذلك بمشكلة بعض الشيء. ألح علي محمد بترك عملي وكنت أرفض، كان يقول لي: «لا حاجة لك للعمل، أنت مسؤولة مني بالكامل وأنا أتحمّل كل احتياجاتك». وبالفعل لم أكن أصرف شيئًا من راتبي، حتى إذا اشتريت لنفسي شيئًا مثل زجاجة عطر أو ما شابه، كنت أجد ثمنها في اليوم التالي في حقيبتني، كان محمد يضعه فيها، وخلال اعتصام الدراز لم يكن يغيب عن البيت إلا بعد أن يضع مبلغًا من المال في محفظتي.

بعد انتهاء محكومية محمد في السجن، لم يحصل على وظيفة بسبب سجل البصمات. ففتح حسابًا في الإنستغرام، كان يبيع عبره الساعات والعطور وغيرها. أكثر ما كان يزعجه هو اعتقاد

بعض معارفه والمقربين أنني أعيّل البيت براتبتي، كان ذلك يؤذيه جداً نفسياً.

ورغم كل مشاركاته ومساهماته السياسية ونشاطه في التجهيز للفعاليات المختلفة، كان يكره بشدة الظهور في الصور، ويتحاشى الكاميرات خوفاً من أن يكون في عمله رياء أو حب للظهور. كان شديد الحرص على أن يجعل كل ما يقوم به بنية خالصة لله فقط، حتى الرياضة يعملها من من أجل تقوية جسده من أجل العمل لله.

ليتني مكانه

كان عقد خطوبتي بلا حفل كما أخبرتكم، حضر الشيخ في اليوم التالي للإفراج عنه وتم عقد القران في أبريل/ نيسان 2013، قررنا الزواج بعدها بـ 5 شهور. قلت لمحمد: «أريد حفل عرس هذه المرة»، لم يكن لديه إمكانية مادية لكنه تدبّر الأمر بما يكفي، كانت لي حفلي، حتى حفل عرسنا كان مختلفاً، وضع فيه النغمة السياسية الشهيرة (تن تن تن) ومعها (يسقط...)، بعض المدعوات خفن وغادرن القاعة.

تمنيت عليه أن يسافر خلال شهر العسل، قال لي: «أريد ذلك لكنني لا أملك المال»، قلت له: «حتى لو أخذتني إلى الأحساء لأيام فقط، سأكون سعيدة»، فكان ذلك، ذهبنا بالسيارة إلى الأحساء وبقينا فيها أسبوعاً وكانت تلك أياماً جميلة جداً، لكن حتى خلالها، لم يتوقف عن متابعة أخبار البحرين لحظة بلحظة.

كلّما حضرنا تشييع أحد الشهداء، كان يقول لي: «ليتني مكانه»،

و كنت أرد عليه بالقول: «محمد، لماذا تقول ذلك وتتعبنى نفسياً؟»
يجيبني: «لتعرفي أن الشهادة قدرتي، هذه الدنيا ليست لي».

في يوم إنجابي لطفلتنا أبرار، في 25 فبراير/ شباط 2015،
صودف أنه موعد محاكمة الأمين الشيخ علي سلمان، لم يحضر
معني عند الولادة، قال لي: «سأذهب إلى المسيرة وآتيك». لم
يكن يقدم أي حدث خاص به على حدث سياسي هام، الحدث
العائلي ليس أولوية أمام أي آخر يتعلّق بالدين والوطن، لا رباط
عند محمد أوثق من سبب بينه وبين الله.

تعلّق محمد كثيرًا بأبرار، خصوصاً أن حملي بـ(علي) جاء بعد
6 أشهر من إنجابي لها، فكان هو من يعتني بها ويقوم بإطعامها
وتدبّر أمورها. هو الذي اختار أسماء أبنائنا، اختارها لهم مذ
كان في السجن، وقال لي: «سيكون لدينا أبرار وعلي»، وهذا ما
حصل.

اعتصام الدراز

في الساعة الحادية عشرة صباحاً، من اليوم الرابع عشر من
شهر رمضان، كنا نستعد للاحتفال ليلاً بالمولد والقرقاعون. كنت
في أيام الحمل الأخيرة، قبل إنجابي لطفلنا علي، كنا ذاهبين معاً
لشراء فستان لأبرار عندما وصل خبر سحب جنسية الشيخ عيسى
قاسم. وعلى الفور، غير محمد مساره وأوصلني إلى بيت والدي
وذهب إلى الدراز. قلت له: «سأتي معك». قال لي: «لا يمكنك
الذهاب وأنت بهذا الحال».

كان من أوائل الحضور، أمضى اليوم كله هناك. عاد إلى
البيت في اليوم الثاني، بدل ملابسه، وعاد إلى الدراز. داوم على

هذا الحال كل يوم. كنت أشعر بالتوتر لأنني على وشك الولادة، وأخشى أن يأتيني الطلق، وهو ليس معي. بعد أيام، أوصلني إلى موعد في المستشفى وهناك أخبروني أنني في وضع ولادة، فنقلني إلى مستشفى جدحفص للولادة وقال لي: «سأوصلك وأذهب»، قلت له: «ستركني وأنا في هذا الوضع، وقد أحتاجك». قال: «لن يصيبك شيء لا تقلقي معك والدتك والأهل». ووضعت طفلنا علي من دون أن يكون معي أيضًا. كان ذلك في 21 رمضان بعد أسبوع واحد من بدء الاعتصام، ليلاً، يوافق استشهاد الإمام علي (ع). في اليوم التالي، لم يزرنني أحد بسبب الوفاة، وحتى هو لم يأت. شعرت بانكسار.

فاجأني بعد أشهر: «سنبنى بيتاً لنا في سار»، كان ذلك في شهر ديسمبر/ كانون الأول 2016، لم تكن لدينا ميزانية للبناء، فظننت أنه يمزح. بعد أسبوع، كنا نجلس إلى مائدة الغداء مع العائلة يوم الجمعة عندما قال لي: «أكملي تناول غداءك وتعال معي». اصطحبني للخارج وقال لي: «ما رأيك أن يكون بيتنا هنا؟» قلت له: «بناء البيت صعب». حمل عصا بيده وبدأ يشير لي: «هنا ستكون غرفة نومنا، وهذه غرفة نوم أخرى، وهنا الصالة، أنت تحبين الصالة كبيرة وأنا سأعملها لك». ضحكنا، ثم شاركته تصميم ذلك البيت الصغير.

بعد أسبوع، تفاجأت به وهو يحضر معدات البناء وأدواته ويبدأ الحفر بنفسه، قسّم الأرض وبدأ يضع الأساس. ظلّ لأشهر متواصلة يعمل في البناء بلا تعب أو كلل ويقول لي: «أريدك أن تسكني بيتاً من صنع يدي». كان يعمل طوال النهار في البناء، ويذهب إلى الاعتصام ليلاً. أنهى البناء في وقت قياسي، صار

البيت جاهزاً خلال أشهر، حتى الكهرباء والجبس والصبغة وكل التفاصيل، أنجزها بنفسه، لا أعرف كيف تمكن من فعل كل ذلك بنفسه في هذا الوقت القياسي، كان يقول لي: «أريد أن أطمئن عليكم من بعدي».

وعندما اطمأن علينا رحل. انتقلنا إلى البيت في 24 أبريل/ نيسان 2017، وغادرنا هو إلى الأبد بعد شهر في 23 مايو/ أيار 2017، ذهب بعد أن اطمأن لكونه لن يتركنا لعوز المكان، لم يُمهّلنا القدر لنحظى معاً بذكريات مشتركة في هذا البيت، لكن يكفي أن كل شيء فيه معجون برائحة عرقه وتعبه وحبّه، وكلمته التي تتردد في داخلي: «أريدك أن تسكني بيتاً من صنع يدي»، إنه معنا فيه، أثراً بعد أثر.

كان مهتماً بأن يكون البيت بكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة على ذوقي وبما يريحني. ليس بالمكان الكبير بل هو أقرب إلى شقة، لكن تفاصيله تكفي لدفع قلبي. كان يسألني كل يوم: «هل أنت مرتاحة من المكان؟» يكررها كل حين، كان يقول لي: «أنت التي ستعيشين في هذا المكان فأريد أن يكون كلّ وفق ذوقك وهواك»، قلت له ذات مرّة: «أشعر أنه مكاني الذي أريده». أسعده ذلك كثيراً.

اليوم الأخير

عندما انتشر خبر تجهّز القوات لاقتحام الدراز في مساء 22 مايو/ أيار 2017، كان محمّد معي في الشقة ينجز أموراً متعلقة بالكهرباء والإضاءة. كانت الأسلاك ممدودة من السقف وهو يعمل، وعندما انتشر الخبر قام مباشرة بلف الأسلاك، ووضعها

في صندوق لضمان الأمن، وأبدل ملابسه على الفور وهم بالخروج. على غير عادته في كل مرة قبل الذهاب، هذه المرة لم يضع نقوداً في محفظتي ولم يوصني كما كان يفعل كل مرة، خرج بغاية الاستعجال، قلت له: «تعال، لا تذهب لوحذك سأوصلك». قال: «والأطفال؟»، قلت: «نائمين سأوصلك وأعود»، قال لي: «أنت مكانك هنا، أنا سأذهب». وبدون شعور مني أمسكت بيده بطريقة لم أفعلها من قبل: «محمد لا تذهب لوحذك، سأوصلك أنا»، عند الباب سمعت صوت إخوته، فاطمأنيت. قال لي: «لا تحتاتين، برجع». جلست على الكرسي جامدة على غير عادتي، بعد أقل من 5 دقائق، عاد وقبّل رأسي ووضع بعض هواتفه في البيت وقال: «لا تنسين الشيخ من الدعاء» ثم خرج. هل كانت عودته شهيداً هي ما قصده عندما قال لي: «برجع»؟!

لم أغف في تلك الليلة. اتصلت به في الصباح، لكنه لم يرد. لم يكن يحب عادة الردّ على مكالماتي أمام الشباب، ردّ عليّ بالواتس أب: «أنا بخير.. القوات قريبة». سألته: «هل أستطيع الدخول؟» قال: «المنافذ مفتوحة». بعدها تلقيت منه الرسالة الصوتية التي انتشرت، وكان يدعو فيها الشباب لتلبية نداء الشيخ.

خُرْمنا من وداعه

عندما وصل خبر سقوط الشهيد الأول (زين الدين)، كنت أريد الاتصال به للاطمئنان على وضعه، لكنني كنت أعرف أنه لن يرد، بعدها رأيت إحدى الصور المنتشرة ولفتني في جانب بعيد منها بعض الشباب يحملون أحدهم. عرفت فوراً أنه محمد، اتصلت مباشرة بهاتفه، أجاب أحد الشباب، فسألته: «وين محمد؟» قال: «لا تحتاتين، هو بخير». قلت له بصوت عالٍ: «لا تكذب عليّ،

أنا أعرف أنه ليس بخير، وأعرف أن إصابته خطيرة وأعلم أنه سيستشهد». قال: «سيكون بخير». قلت له: «أريد أن أكلمه الآن، دعني أودعه». قال: «نقلوه إلى المستشفى الآن». أقفلت الهاتف، واتصلت بأختي للمكوث مع أطفالي، وذهبت إلى السلمانية بعد أن أخبرت عائلة محمد. جاء والده معي. قلت لوالدتي: «شكله محمد راح». لا أعرف كيف احتملت ذلك اليوم.

ذهبت إلى السلمانية، أعطيتهم الاسم فأنكروا أن يكون لديهم أي معلومات عنه، كانوا يكذبون بوجوه مفضوحة ومرتبكة، ثم قالوا لنا: «اذهبوا إلى العسكري ربما هناك». ذهبنا، وهناك أعطيناهم الاسم فدخل أحدهم إلى غرفة ثم خرج بوجه مقلوب، قال لعمي: «ما عندنا أحد بهذا الاسم، أعطنا رقم تلفونك ورح نتصل»، ثم قال: «روحوا السلمانية يمكن عندهم خبر». عدنا إلى السلمانية بلا فائدة، ومنها إلى العسكري مرة ثانية من دون أن نحظى بأي إجابة.

تأكدت من استشهاد الساعة الحادية عشر ليلاً بعد أن تم نشر الأسماء. لم تكن لدي ذرة شك، حتى عندما ظهر البيان الرسمي المتضمن أسماء الشهداء، لم أصدَم. كل شيء في حياتي مع محمد كان تمهيداً لذلك اليوم، لم يترك لي محمد مساحة صدمة من ذهابه شهيداً، كل ما في الأمر أني لم أتوقع أن يحصل الأمر بهذه السرعة.

النار التي لا تنطفئ في داخلي هي أنني لم أره، ولم أودعه، وحتى صور إصابته لم أرها: وقوعه واستشهاده، وحاله بعد السقوط، والتفاصيل الصغيرة في لحظاته الأخيرة، حتى أنني لم

أعشُ صدمة أن أراه فوق سرير الموت، ولا فوق المغتسل. حُرْمنا
حتى من رؤيته في بياضه الأخير، لم نُنْزَلْهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَمْ نُهْلِ
عَلَيْهِ تَرَابَ الْحَبِّ.

فراغٌ كبير في هذا الوداع يا محمد، فراغ لا يملؤه شيء غير
امتلائي بكل حكايتنا غير العادية، وبوثاق حبك الذي مضيت فيه
من دون هوادة، «وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله؟!»
لقد قلتها لي منذ يومنا الأول: «ليس واثقي إلى هذه الأرض يا
صغيرتي، بل إلى السماء»، وقد آمنتُ أن أسبابك حق.

أبو آلاء..

هكذا استشهد محمد الساري

في يوم الهجوم، أبدى الشباب ثباتًا بطوليًا واستثنائيًا. بعضهم كانوا مطلوبين على خلفية قضايا سياسية أخرى تصل أحكامها إلى عشرات السنوات. أحدهم من الدراز، مجموع أحكامه يصل إلى 50 سنة، وهو مطارد منذ 7 سنوات، وعندما صار الهجوم أمرًا لا مفر منه، كان هناك مجال كبير للتفرق. أمرت القوات بذلك وفتحت المجال لمن أراد الخروج، وقد فعلها البعض، لكن معظم الشباب رفضوا الخروج، وبعض المطلوبين أصروا على البقاء حتى آخر لحظة، من بينهم هذا المطارد، فكان الشباب يقولون له: «أنت محكوم بـ 50 سنة، وإذا اعتقلوك لن تخرج منها، فانفذ بجلدك الآن»، فكان جوابه: «لم آت هنا عامًا كاملاً لكي أهرب هذا اليوم، سيصلون إليّ اليوم أو غدًا، هنا أو في مكان آخر، وأنا أختار أن يكون اعتقالي في هذا الموقف».

كنت ضمن أول مجموعة تم اعتقالها قبل اقتحام القوات لمنطقة الصييات. وقفنا على شكل صفوف وشكلنا درعًا بشريًا، فيما كانوا هم يتقدمون نحونا في صفوف أيضًا، وكُنّا نتقدم نحوهم لنصدّهم عن الوصول إلى منطقة بيت الشيخ. كانوا يحملون الأسلحة والرشاشات والشوزن ومسيلات الدموع، وكُنّا نحمل أجسادنا، وبعضنا يحمل دروعًا بلاستيكية.

حاولت القوات في أول الأمر تفادي تقدمنا وتراجعوا للخلف قليلاً، فتقدمنا نحوهم أكثر بهدف إبعادهم، لكنهم بدؤوا يطلقون مسيلات الدموع ورصاص الشوزن على أرجلنا. جاءت طلقة صوب رجلي مباشرة، فقفزت مبتعداً ثم رجعت. كانوا يطلقون المسيلات والرصاص بكثافة كبيرة جداً حتى شعرنا أننا أمام موت محقق، أحاطوا بنا وأمرونا بالجلوس على الأرض، ثم راحوا يرشون علينا رذاذ الفلفل الحارق، فجلسنا على الأرض لكي نحتمي أنفسنا من طلقاتهم الهستيرية التي أغرقت المكان.

عبر سحابة الغازات الخانقة التي غطت المكان، رأيت شاباً ملقى على الأرض، وقد انسدت إحدى رجليه وارتفعت الأخرى، كان ذلك هو الشهيد محمد الساري. اعترتني قشعريرة في بدني كله وقمت إليه من فوري، حاول الشباب منعي من القيام لكنني صرخت: «سيموووت». ذهبت إليه؛ كانت رجله اليمنى مهشمة بالكامل ومقسومة بالنصف، والدماء تسيل بغزارة من خاصرته اليسرى، حاولت الضغط لإيقاف النزيف دون جدوى، وكانت القوات تمر إلى جانبي، وترى الشهيد على الأرض ولا تحرك ساكناً. بعد ذلك، لحقت بي مجموعة من الشباب، وقمنا بربط رجله اليمنى وحاولنا تحريكه من المكان الذي كان غارقاً بالغازات المسيلة للدموع.

لقد سقط على مسافة 20 متراً تقريباً من منطقة الصبيات. لم أستطع تمييز مكان إصابته، حملناه وأدخلناه إلى أحد المنازل وباشرنا بإسعافه. نزعنا قميصه وملابسه، كي لا يعيق شيء تنفسه، وربطنا رجله المهشمة بقميصه. حاولنا إيقاف النزيف في رجله وخاصرته، فلم نتمكن من ذلك، وكانت استجابته متفاوتة، فكان

يغيب عن الوعي ثم يفيق قليلاً بعد عمل التنفس الصناعي له، وكان كلما يفيق يردد: «السلام عليك يا أبا عبد الله الحسين»، وكان يكرر: «عطشان.. عطشان». لكنني خشيت أن لا تكون حالته تسمح بشرب الماء، فكنت أقول له: «تصبر»، وأكتفي بترطيب فمه، أحضر الشباب (نايلون التغليف) وقاموا بلف بطنه وخصره في محاولة لإيقاف النزيف لكن حتى ذلك لم يُفد بشيء.

اتصلنا بالإسعاف الذي لم يستطع الدخول خلال أكثر من ساعة ونصف، إذ لم تسمح له القوات بذلك. كنا نتواصل معه حتى يؤس من الوصول، وقال لنا: «أخرجوه لي»، أحضرنا لوحاً وضعنا عليه الساري وخرجنا به. كنا ستة أشخاص تقريباً. تفاجأنا بوجود القوات أمامنا: «إلى أين؟» قلنا لهم: «سيموت». قالوا: «اتركوه».

وضعناه على الأرض، وبقينا واقفين حوله، والقوات تحيط بنا. كان ينزف أمام أعينهم من دون أن يحركوا ساكناً. صرخت فيهم: «ألا تخافون الله؟ سيموت. أسعفوه». فقال لي أحدهم باستهزاء: «اعمل له تنفس صناعي»، فظللت أقوم بذلك، وهو بين الغيوبة واليقظة، حتى تلاشى نبضه كلياً، ولم يعد يُبدي أي استجابة.

وصلت بعدها سيارة إسعاف، كان المسعفان آسيويان، أحدهما فيليپيني والآخر هندي، استغرقا وقتاً حتى أحضرا الأجهزة لإنعاشه، كانت روحه خلالها قد فاضت ولم يعد أي شيء يجدي.

الاعتقال والتعذيب

نُقل الشهيد في الإسعاف. بعدها مباشرة، تمت محاصرتنا من قبل القوات. كانت ثيابي غارقة في دم الشهيد فنزعت قميصي

وألقيته في الطريق، فصرخ بي الشرطي: جيبه (أحضره)، وكأنه دليل جريمة، ثم اقتادوني مع سبعة أشخاص آخرين إلى مركز شرطة البديع قرابة الساعة الحادية عشرة صباحًا. بهذا كنا المجموعة الأولى التي تم اعتقالها. في المركز، قال الضابط للشرطة: «اعملوا لهم إفادة»، سألوه: عن ماذا؟ فقال: «شهود على وفاة محمد الساري». كانت المعاملة جيدة ولم نتعرض لأي ضرب أو إهانات.

لم نكن نعرف ماذا يحدث في الخارج آنذاك، عصرًا، أتت مجموعة أخرى من القوات. اصطحبونا إلى مركز شرطة مدينة حمد. وفي اليوم التالي، أخذونا إلى القلعة لإنجاز إجراءات الاعتقال وفحص الدم والوزن وغيرها. هناك، رأيت شابًا بحرينيًا معتقلًا على ذمة قضية أخرى، وأخبرنا أنه خلال فض الاعتصام (وقع 7 شهداء وجرحى بالآلاف) ومئات المعتقلين، وكان ذلك خبرًا صادمًا لنا بطبيعة الحال، لأننا لا نعرف ما الذي حدث بعد اعتقالنا. كنا نعتقد أن الساري هو الشهيد الوحيد.

أعادونا في اليوم التالي إلى مركز شرطة البديع، لكن طريقة التعامل تغيرت بالكامل، تم تقييدنا وتصميد أعيننا وضربنا وركلنا وتهديدنا وإهانتنا من دون أن نعرف سبب هذا التحول في المعاملة.

ثم بدأت مرحلة التحقيقات، أخذونا أول الأمر إلى العدلية، وتلقينا الضرب والركل والإهانات ونحن مقيدون ومصمدين. كانوا يأمرونا بخلع ملابسنا، ويجلسونا في غرفة مكيفة شديدة البرودة. وفي اليوم الثالث، نقلونا إلى مبنى التحقيقات في سجن جو.

وضعوننا في زنزانة بها ثمانية أسرة فقط، لكنها كانت مكتظة بالسجناء، وصل عدداً معهم إلى 24 نزيلًا، فكان كل سجينين ينامان على سرير، فيما ينام الباقون على الأرض. بقينا مكدسين فوق بعضنا البعض، ومعظم الشباب مجروحين ومضروبين وملطخين بالدماء بسبب الإصابات التي لم تكف إدارة السجن فظل العناصر يقتحمون الزنزانة في أي وقت، وينادون على مجموعة من الأسماء ويخرجونهم ويقومون بتعذيبهم وضربهم ثم يعيدونهم بدمائهم. كنا نسمع صوت الصراخ من الغرفة الثانية عبر فتحات التهوية المركزية، فنعيش رعب الأصوات طوال الوقت.

يبدأ التعذيب يوميًا بعد صلاة الإفطار (شهر رمضان)، وبعد انتهائهم من صلاة العشاءين، كانوا يقتحمون علينا الزنزانة فيما نكون قد بدأنا لتونا بتناول إفطارنا، فينادون على مجموعة من الأسماء يأخذونهم لوجبة التعذيب بدلًا من وجبة الإفطار. لكن التحرش الجنسي كان أصعب ما تعرضنا له وأقساه.

التحرش الجنسي

أحد الصبية، وعمره لا يتجاوز 16 عامًا، عاد من التعذيب في حال يرثى لها، وظل منطويًا وكثيرًا. لم يتحرك من مكانه لفترة، عندما تحدثت معه محاولًا إخراجه من تلك الحالة، صار يبيكي، ثم أخبرني أنهم قاموا بتعريته من ملابسه وتحرشوا به جنسيًا، فكنت أحاول تهدئته، قلت له: «إنهم يريدون كسر ك وهزيمتك من الداخل وإهانتك لكي تقرر لهم بما يريدون وعليك أن تكون قويًا ولا تنهزم نفسيًا فهذا ما يريدونه».

بعد ذلك، أخذوني وراحوا يحققون معي بتهمة قتل الشهيد

الساري. لمرات ثلاث، ظلوا يحققون معي: «كيف قتلتموه وبماذا ضربتموه؟» وكنت أنفي ذلك. قلت لهم: «الشرطة كانوا يصورون ما يحدث والتصوير لديكم ويمكنكم رؤية من قام بقتله». بعدها، صرخ أحدهم: «هذا لن يعترف. خذوه إلى الغرفة السوداء». فأدخلوني إلى غرفة أخرى مقيدًا ومصمد العينين، وطلبوا مني الاعتراف، وواصلت إنكار التهمة. كنت أرتمي ثوبًا، فخلعوه عني، وبقيت فقط بملابسي الداخلية. قالوا لي: «هل تعترف أم نعتدي عليك؟» لم أجبه، فألقاني أحدهم على الأرض على بطني، وأحضر عصا ووضعها في الخلف، وتحرش بي وظل يهددني بما سيفعله بي. كل الضرب والتعذيب لا يعادل ذل ومهانة تلك اللحظة، ثم أخذوا يحققون معي عن ذهابي إلى الدراز حتى أخرجوني وأعادوني إلى الزنانة، بكيت كثيرًا لأنني تذكرت ذلك الصبي الذي أخبرني عن تحرشهم به، وتخيلت كيف أنهم فعلوا به الشيء ذاته، وكيف تحمل ذلك على غضاضة عمره. وما إن عدت إلى الزنانة حتى ذهبت إليه وأنا أبكي، وتسامحت منه، إذ لم أكن قد استوعبت حجم الأذى النفسي الذي عاشه حينها، حتى قام الشباب بتهديتي والتخفيف عني.

الشهيد أحمد جميل العصفور: لن أغادر الباب إلا جثة هامدة

أن تعيش حياة منذورة للشهادة، هذا ما يمكن أن نخترل به حياة الشهيد أحمد جميل العصفور (34 عامًا). لم تكن بدايته مع الشيخ عيسى قاسم، فقبل ذلك، كان مرافقًا دائمًا للشيخ علي سلمان بهدف حراسته وحمايته، لم يكن يغادره قيد أنملة، لكنه كان يتجنب الظهور معه في الصور. تنقل عنه أخته ربما قوله: «لا أريد أن يحرمني شيء من وجودي برفقة الشيخ وحراسته، أو أن أدخل السجن بسبب شيء تافه كظهور في صورة مثلاً».

بعد اعتقال الشيخ علي سلمان، بكى أحمد كما لم يفعل من قبل، حتى قالت له زوجته طيبة: «يا ترى هل ستبكي علي بكل هذا القدر لو مُتُّ؟» أراد فداء الشيخ بنفسه، لكن السجن كان أكبر منه .

بعد إسقاط جنسية الشيخ عيسى قاسم، كان أحد الحراس الشخصيين للشيخ. صار يلزم باب بيت الشيخ لا يغادره إلا إلى العمل. كانت حياته رهينة هذا الباب، إنه الباب الأخير الذي باقتحامه يُهتَك آخر خط أحمر يتعلّق بالوجود الشيعي في البحرين. ظلّ الشهيد مرابطاً وفي عقيدته: «لن أغادر هذا الباب إلا جثة هامدة».

لم يكن ينقص حياة أحمد شيء من عوامل الاستقرار. فهو

شاب جامعي يعمل مبرمجًا للكمبيوتر في أحد أشهر البنوك براتب مجزٍ، متزوج ولديه أربعة أبناء، وكان ينتظر مولوده الخامس بعد شهرين. لكن كل ذلك لم يكن المصير الذي يتمناه لنفسه. وكان، عندما تطلب منه زوجته الحامل في شهرها السابع قضاء وقت أطول مع أطفاله، يجيبها: «لا أريدهم أن يعتادوا على وجودي في حياتهم فأنا راحل. غيابي الطويل سيجعل الأمر أسهل بالنسبة لي ولهم».

فليدخلوا على جثتنا

أخته الأقرب إليه ريماء، تحكي لنا عنه: «أحمد كتوم جدًّا، فهو ليس من النوع الذي يعبر عن مشاعره أو يُفصح عن أحاسيسه بسهولة. وفيما يتعلّق بنشاطه السياسي والديني، فهي أسرار لا يبوح بها لأحد. ولأنني أسكن في الدراز، جعل الأمر فرصة رؤيتي له أكثر من غيري خلال فترة الاعتصام. كان يأتيني البيت بشكل شبه يومي، يستحم ويغير ملابسه ثم يعود للاعتصام، أحيانًا كنت أقوم أنا بنقل ثيابه له هناك، وحين يتعثر دخوله إلى الدراز، أقوم بإدخاله».

كان أحمد شخصًا حذرًا جدًّا، لا يكتب أي شيء في رسائله عبر الهاتف، وكان كلامه محسوبًا بالحرف. عندما اعتُقل الشيخ علي سلمان تأثر كثيرًا. لا أذكر أنه بكى طوال حياته كما فعل حينها، وصدرت عنه ردات فعل أوشك أن يُعتقل بسببها، لكن وصية الشيخ لهم بالصبر والسلامة جعلته يضبط غضبه وهيجانه. كان مرافقًا دائمًا للشيخ، وعلاقته قوية به. بعد إسقاط جنسية الشيخ عيسى قاسم وبدء الاعتصام في الدراز، تكفّل الشباب بتأمين حراسته الشخصية. كان أحمد ملازمًا لباب بيت الشيخ،

لا يسمح بدخول أي شخص إلا بعد تدقيق شديد. ومن المواقف الطريفة أنه لم يسمح بدخول إحدى قريبات الشيخ.

بشكل يومي، كان ينهي عمله ويذهب مباشرة إلى الاعتصام، ويبقى هناك حتى صباح اليوم التالي. إخواني كانوا عندما يشتاقون له، يذهبون لرؤيته هناك. كلما سألتهم عما كان يقوم به هناك أو الشباب الذين معه، أو طبيعة تواصله مع الشيخ ووضع الشيخ الصحي وغير ذلك من التفاصيل، كان يجيني: «ليس شأنك». أسأله: «حسناً ماذا تأكلون وكيف تنامون؟» فيكون جوابه: «نأكل زين وننام زين». كان هذه إجاباته فقط.

نحن من عائلة لا تهتم بالسياسة. حاول والداي بحكم عاطفتهم الضغط عليه ليكف عن المشاركة في الاعتصام، ويعود إلى بيته وأبنائه وزوجته الحامل. كانا يقولان له: «يوجد من يمكن أن يسد مكانك هناك، لكن في بيتك لا أحد يقوم مقامك». لم يكن أحمد يقبل ذلك الكلام أو يستجيب له بأي شكل من الأشكال. اختلف عن والديّ بقدرتي على كتم الناحية العاطفية عندي، لهذا كنت قريبة منه. لم يكن أحمد يتقبل أي رد فعل عاطفي، فإما يغير الموضوع مباشرة أو يغادر.

بعد قتل الشهيد مصطفى، رحت أعبر له عن قلقي الشديد وأسأله عن الاحتياطات التي اتخذوها لمنع تكرار ما حدث. كانت المرة الأولى التي أراني فيها صوراً لما يشبه الخندق، تم حفره عند الناحية التي اقتحمت القوات الساحة منها، وهي تقع عند جهة مدرسة الدراز الإعدادية للبنات، بطبيعة الحال لم تكن عميقة لكنها تكفي لإعاقة سرعة الهجوم. كان لدى أحمد إصرار

كبير على المواجهة السلمية وعدم اللجوء إلى العنف، فذلك هو منهج الشيخ على سلمان الذي يتمثله.

أنا لن أعود

كانت المرة الأخيرة التي أوصلته فيها إلى الساحة قبل يومين من استشهاد. جاء إلى البيت واستحم وغيّر ملابسه. كانت مؤشرات الهجوم وشيكة، وكان هناك ضغط على رجالات المنطقة لإقناعهم بفض الاعتصام طوعاً وإلا ستتدخل السلطة وتفرض بالقوة. سألته: «ماذا ستفعلون الآن؟» فكان جوابه: «فليدخلوا على جشنا، إذا حدث ودخلوا بيت الشيخ، فاعرفي أن أخاك إما شهيد أو معتقل».

في الأسبوع الأخير قبل استشهاد، جاءني ليفطر عندي في البيت، وكان ذلك في أواخر شهر شعبان. لم أكن صائمة، لكنه أصر على أن أتناول طعام الإفطار معه. كان مرحاً جداً، ثم جاء أخي الآخر وتحدث معه عن ضرورة امتلاكه لبيت لأبنائه الأربعة، مع قدوم الطفل الخامس، فأجابه أحمد: «أنا خلاص بيتي جاهز ومساحته متر بمترين».

في زيارته الأخيرة، أظهر لي عاطفة لم أعتدها منه. أوصى أولادي وأوصاني بزوجه. كان قد أحضر لها هدية وقال لي: «اطلبي منها أن تسامحني». كرر ذلك مراراً.

في يوم الهجوم، اتصل بزوجه واتصل بي مراراً. كان يوصينا بعدم الخروج، وأوصى زوجته بأن لا تجزع في حال حدوث شيء له. أوصاها أيضاً بإخراج مبلغ من الخمس عليه، فانهارت. عندما اتصل بي بعدها، لمته وأخبرته أن وضع زوجته حساس وهي لا تحتمل هذا الكلام. قلت له: «أي شيء يحدث كلمني أنا، ولا

تتصل بطيبة»، فأجابني بانكسار ظاهر وتأثر واضح: «كنت أريد فقط السلام عليها».

خرجتُ من البيت، رأيت الأعداد الهائلة التي تحاصر المنطقة وأيقنتُ أن الأمر حقيقي. كان آخر اتصال له بي عند الساعة 10:40. قال لي: «خيّة ترى حاصرونا خلاص»، قلت له: «أنا في الخارج أحاول أن أجد مدخلاً لآتيك»، فقال: «لا تأتِ، انتهى الأمر أنا لن أعود». فقلت له: «بل ستعود إن شاء الله»، فانفعل قائلاً: «لقد أفهمتك كل شيء قبل الآن»، ثم أوصاني بزوجته وأولاده وطلب مني أن أطلب من الجميع أن يسامحوه، وأقفل الهاتف.

بقيتُ في الشارع لمدة ثلاثة ساعات أحاولُ الدخول، حتى وصلت عند الواحدة ظهرًا قرب بيت الشيخ. منعتني القوات المدججة من التقدم، ولم نكن نعرف ماذا يحدث في الداخل. لا نعرف في أي ساعة بالتحديد سقط أحمد شهيدًا، لكن نرجح أن سقوطه كان قبل صلاة الظهر لأنه لم يكن بين المصلين.

أحد الشباب الذين أفرج عنهم لاحقًا أخبرنا أن أحمد أصيب في منطقة الصدر أو قرب البطن عند باب بيت الشيخ. قال لنا إنه لم يستشهد مباشرة، بل ظل ينزف تقريبًا لمدة ثلاث ساعات، وهو ملقى على الأرض. أخبرنا الشباب أنهم، بعد محاصرة الساحة بالكامل من قبل القوات، دخلوا إلى المنطقة المحصورة بين بيت الشيخ والحواجز الاسمنتية، لكن أحمد رفض الدخول، ثم توجه نحو القوات وقال لهم: «ارجعوا.. ما إليكم مكان هنيء.. ما إليكم أحد هنيء»، وقبل أن يكمل جملته، أطلقت القوات النار عليه، فوقع على الأرض، لكنه ظل جالسًا مكانه يقاوم الموت،

شدة النزف أنهكته، حتى ألقى ظهره على الأرض، وظل ينزف حتى فارق الحياة، فيما كانت القوات تتقدم وتحاصر الحواجز الإسمنتية بالكامل.

لن نعطيكم بيدنا

السيد جميل والد الشهيد: «لم نعرف باستشهاد أحمد إلا من خلال التلفزيون، قبل ذلك، لم نكن نملك خبراً مؤكداً عنه. لكن اختفائه وعدم اتصاله في ذلك اليوم كان مؤشراً على أن مكروهاً أصابه. أحسستُ بذلك، لكنني حاولت التماسك. في اليوم التالي، اتصلت بي ابنتي، وكنت لتوي خارجاً من المستشفى في زيارة والدتي (رحمة الله عليها) مع أخواتي. سمعت البكاء، قلت لها: أحمد استشهد؟ قالت: أجل. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، وارتفع صياح أخواتي.

بعد أكثر من يوم، اتصلوا بي للتعرف عليه. قلت لهم: «الآن ابني استشهد ونريد أخذ جثمانه»، فقالوا لي: «سنعطيكم إياه، فقط تعالوا للتعرف عليه والتوقيع على أوراقه». ذهبتُ ومعني آباء باقي الشهداء، وكنا حريصين على أن نظهر أقوياء صلبين كي لا نسمح لهم بالشماتة بنا، نادونا واحداً وراء الآخر، وأخرجوا جثمان ابني من الثلاجة، وكشفوا لي عن وجهه. وعدونا أنهم سيعطونا جثامينهم بعد أن نوقع، فلم نتودع منهم بما يكفي، ولم نعانقهم بما يطفئ حريق قلوبنا عليهم. لكنهم أخذوا توقيعنا، ثم غدروا بنا وأخبرونا بأنهم هم الذين سيتكفلون بالدفن، ومن كل عائلة، يُسمح بوجود الأب وواحد من الإخوة فقط.

بطبيعة الحال، رفضت ذلك وأصررتُ على بقية آباء الشهداء

بأن يرفضوا دفن أبنائهم بالخفاء. قلت لهم إنني ما كنت لأوقع على الأوراق لو علمت بهذه اللعبة، وأصررت أنه «إن لم تعطونا أبنائنا لن نحضر الدفن». قالوا بلا مبالاة: «سندفنه بدونكم». قلت لهم: «أنتم غير مأذونين في ذلك ولا يحق لكم». لكنهم لم يكثرثوا لذلك، ودفنوه من دون حضورنا في مقبرة المحرق. اليوم، لسنا متأكدين تمامًا أن القبر الذي نزوره هو قبر ابنا بالفعل أم غيره من الشهداء. كما أننا لم نستلم شهادة الوفاة إلا بعد أكثر من عام، إذ كانوا يريدون تمرير لعبة أخرى علينا، لكننا، والحمد لله، لم نتمكن منها.

عندما اتصلوا بنا لاستلام شهادات الوفاة، قررنا بأننا لن نذهب كلنا مرة واحدة، لكي لا يغدروا بنا كما فعلوا في المرة السابقة. ذهب أخو الشهيد العسكري، واستلم إفادة الوفاة ووقع على الأوراق ثم خرج. أثناء خروجه، فتح الورقة، فوجد فيها أن الدفن تم بإذن الأهالي. عاد أدراجه مسرعًا، وطلب الورقة الأصلية، وقال لهم إنه نسي شيئًا يريد التأكد منه، فقالوا له لديك نسختك، قال لهم إنه يريد أن يرى النسخة الأخرى التي وقع عليها. وما إن أعطوها له حتى مزقها بالكامل ورماها في وجوههم وقال لهم: «تريدون أن تخذعوا العالم بأننا أعطيناكم الإذن بدفن أبنائنا، لا والله لن نعطيكم بيدنا». وهكذا امتنع باقي الآباء عن استلام تلك الإفادة إلى أن استخرجها المحامون، استمر الأمر قرابة عام كامل.

لم يكن ينقص أحمد شيء، لم يسبق له أن كان مطلوبًا، ولم يدخل إلى مركز شرطة في حياته. قلت ذلك للضابط الذي جلسنا معه، فكان يقول لي: «لماذا ذهب إلى هناك إذًا؟» فأجبت: «ليس هذا هو السؤال. بل السؤال هو هل كل من ذهب هناك يُقتل؟

ولماذا يُطلق عليه الرصاص في أحشائه، لماذا لا يُطلق عليه في رجله مثلاً؟»

مشروع معتقل أو شهيد

طيبة زوجة الشهيد: «كنت في الشهر السابع من الحمل، وكنت أعاني من التعب والإجهاد. وفيما كان يهيئني لرحيله، وأنا أرفض ذلك وأبكي، كان يحاول تغيير الموضوع، وصار يتفادى فتحه أمامي كي لا أتعب وأنهار.

في الفترة الأخيرة، صرت لا أراه إلا نادراً، وكلما قلت له ابقَ مع أبنائك، هم بحاجة إليك، كان يقول لي: «أنا رايح رايح ما أبغي الجهال يتعودون عليّ، أحسن ليهم وأحسن لي». كان يكررها دومًا. كنت أبكي. وكان يؤكد لي في أيامه الأخيرة: «أنا مشروع معتقل أو شهيد، لن أكون هنا مرة أخرى».

منذ زواجنا، اعتدتُ على كثرة انشغاله ومرافقته للشيخ، وبعدها حصل الاعتصام في الساحة. لكن في الأيام الأخيرة صار غيابه أكثر، وإذا اشتكت كثرة غيابه وأبدت انزعاجي، كان يقول لي: «الشيخ أغلى مني ومنك ومن أولادي». كان يختزل الإجابات، وكلما سألته عن شيء يقول: «لا أستطيع إخبارك بشيء، وهذا أفضل لكم ولي».

في الليلة الأخيرة اتصل بي، وكنت متعبة جداً ونائمة. سألته: «هل هناك أمر ضروري؟» قال لي: «لا شيء، فقط أردت الاطمئنان عليك». ثم سلّم علي وأغلق الهاتف. الآن أشعر بالندم الشديد لأنني لم أتحدث معه مطوّلاً تلك الليلة.

في يوم استشهاده، اتصل بي وكنت حينها في العمل، فاتصل بأختي الأقرب لي وأوصاها بالاعتناء بي، ثم اتصل بأخته وأوصاها أيضًا. لم أتوقع أبدًا أن يستشهد، كان أقصى ما تصورته في عقلي هو الاعتقال. كانت وصيته لي الاعتناء بنفسه وبالأولاد وعدم الجزع في حال تعرض لمكروه. أعطاني مبلغ الخمس الخاص به وقال لي: «أخرجيه في التاريخ المحدد».

ذاهب للدراز يا أمي

والدة الشهيد: «لم يكن يكرر مثلها، ولم أكن أخشى مثلها: «أنا شهيد يا أمي». أحمد ابني شاب مؤمن يحترم والديه، لم يرفع يومًا صوته علينا، وكان كريمًا معي. بقيت لفترة طويلة لا أصدق أنه استشهد، وما زلت حتى اليوم لا أصدق أنني لم ألقه وأشمه وأضمه وأقبله، ولم أودعه الوداع الأخير إلى مثواه. عندما أجلس إلى قبره اليوم، لا أعلم إذا كان هو حقًا المدفون فيه، أم أن فيه أحدًا غيره. أزور قبره كل أسبوع، ولا أنقطع عن زيارته أبدًا. سيارته الواقفة عند باب البيت تجعلني أرغب في الصراخ، كان يأتي من العمل كل يوم ويقول لي: «أنا ذاهب للدراز يا أمي»، فادعوه بالتيسير.

في الليلة الأخيرة، خرج بعد أن نظف سيارته وسيارة زوجته، وقال سأذهب إلى الاعتصام بسيارة زوجتي. كنت أقف حينها عند باب المجلس، أشعر بالأسف لأنني لم أحضنه حينها ولم أتودع منه. ليس لي في هذه الحياة إلا الأمل بأن أراه ولو لساعة، أودعه فيها وأقول له: «سامحني إذا أخطأت بحقك بأي شكل من الأشكال».

ملائكة الحمد:

الشهيدان مصطفى ومحمد

في أحداث 2011، أثناء اعتصام دوار اللؤلؤة، رأى ابني محمد في المنام امرأة جليلة القدر يشع منها النور، قدمت له قميصين، لكن لم يكن هو من استلمهما، بل أخته الصغرى. سألنا رجل دين عن تفسير هذا الحلم، فقال لنا: «لو كان هو من أخذ القميصين لكان استشهد». مرّت السنوات، ونسينا موضوع الحلم. ويبدو أنّ أوّان شهادته لم يكن قد حان آنذاك، فقد أدّخرت له لوقت أعظم.

تذكّر والدة الشهيدين محمد ومصطفى، وتروي لنا سيرة ابنهما المتعطّشين للشهادة. تكمل:

عندما استشهد مصطفى، قال لي محمد: «أنا الذي رأيت الحلم، فكيف يستشهد أخي؟»

وعندما قرأ وصيّة مصطفى، انكسر كثيراً وقال: «كيف لم يذكرني أخي في وصيّته؟»

لم أتمكن من إجابته حينذاك.

عند لحاق محمد بأخيه بعد أقل من شهرين، وبعد أن سُمح لنا بالذهاب إلى المقبرة، جلست عند قبره، وقلت له: «الآن أستطيع إجابتك على السؤالين:

لم يذكر أخوك في وصيّته لأنّك أول من يلحق به.

أما عن حلمك بالشهادة، فقد كانا قميصين وليس قميصًا واحدًا. الأول له، والثاني لك».

بين استشهاد مصطفى (18 عامًا) واستشهاد محمد (22 عامًا) شهران إلا يومًا واحدًا. ارتدى مصطفى قميص شهادته في 24 مارس/ آذار، وارتدى محمد قميص شهادته في 23 مايو/ أيار 2017.

كان كلما دخل عليّ يحدث عن الشهادة، وكنتُ ألمح بريق عيونه: «أنا ماضٍ على خطى أخِي يا أمي..»

يومان وأكون عندك!

أتى إليّ مصطفى وقال: «أمي، سحبوا جنسية الشيخ». قلت: «وماذا ستفعل أنت؟» قال: «سأذهب». قلت: «ماذا ستفعل إن ذهبت؟» قال: «إذا أنا ذهبت، وغيري ذهب، واجتمعت الحشود عند بيت الشيخ، ستمكن من حماية الشيخ إذا هجموا عليه في أي وقت». ثم أضاف: «يومان وأكون عندك». فقلت له: «في أمان الله يا حبيبي».

ذهب مصطفى ومر اليوم الأول.. الثاني.. الثالث..

في اليوم الرابع، دخل علي محمد، وقال: «سوف أذهب إلى الدراز»، فقلت: «وماذا ستفعل هناك؟» قال: «سأذهب مع الشباب المعتصمين لنحمي الشيخ». قلت: «فليكن الله معك». وقال لي كأخيه: «يومان وأكون عندك». فقلت له: «في أمان الله يا حبيبي».

ومنذ خروجهما، لم يعودا إليّ ليكونا عندي، اختارا أن يكونا عند الله، فصار لكل منهما يوم عنده، وقميص صدق.

عباءة الشيخ

عاد مصطفى بعد أسبوع، لا ليكون عندي، بل ليحزم حقيته الصغيرة على ظهره. سلّم علي واحتضنني وقبّل يدي، وقال لي إنّه قرّر البقاء في الدراز: «ليس لي جلوس هنا، هل نقعد في بيوتنا والشيخ مهدهد؟» صار يأتي إلى البيت مرة كل 3 أسابيع، وكذلك محمد. قد يجلس معي محمد لساعة أو ساعتين، أو يتناول معي وجبة الغداء، لكن مصطفى لم يكن يفعل. يجلس لدقائق ثم يقفز من مكانه: «أخاف أن يحدث شيء للشيخ». روحه كانت معلقة بالشيخ.

كان يقول لي: «إذا الشيخ لا سمح الله حدث له شيء، وعباءة الشيخ طاحت، طاحت معها كرامتنا وأعراضنا».

كان هو الذي قال للشباب إنه لا يصح أن ننام جميعاً في الوقت ذاته، واقترح فكرة المناوبة بأن ينام البعض والبعض الآخر يقوم بالحراسة فيما لو حدث هجوم مباغت، كان يأخذ دائماً مناوبة الصباح.

ذات مرة، جاءني مصطفى وهو مريض. لم يكن يستطيع الوقوف من شدة التعب، ودرجة حرارته مرتفعة، أحضره أخوه محمد، ثم أخذه إلى المستشفى على الكرسي المتحرك وهناك وُضع له مغذٍ. عندما عاد تناول أدويته ونام، وما إن استيقظ، حتى قام من سريره للذهاب إلى الاعتصام. صرخت فيه: «مصطفى، أين تذهب؟ أنت مريض». طالعني بابتسامة: «هناك سأكون أفضل حالاً». ودّعني وخرج.

اختار اسمه في الإنستغرام: «المنتظرون»، وقد حصل على ما

كان ينتظره. لا أنسى عندما قال لي مرّة مَمازحًا: «سوف أتلقي رصاصة هنا في رأسي وأسقط شهيدًا». آه يا مصطفى، والله، إن الموضوع الذي وضع إصبعه عليه، هو ذاته الذي اخترقته الرصاصة الغاشمة!

الأجواء الروحانية

كنت أذهب إليهم في بعض الأوقات. بطريقة ما أدخل الدراز، أخذ محمد إلى الجامعة وأعيد بعد انتهائه منها. لم يكن سهلاً الدخول إلى الدراز والخروج منها. كانا يدخلان عبر (الزرائق) وطرق متعبة. تعرّضا أكثر من مرّة لإصابات، في إحدى المرات رأيت في رجل مصطفى ضربة، سألته عنها فقال إن الشرطة قد لاحقته وهو خارج من الدراز عبر أحد الزرائق، فغيّر مساره وقفز على جدار حديث البناء، به أسياخ أصابت رجله، فوقع على الأرض.

وفي إحدى المرات، أتى محمد وكان مبللاً بالماء. أتى عن طريق البحر، وكان يقول: «برًا وبحرًا نحن فداء للشيخ». هذه المشقّة لم تثنهما - كما غيرهما من الشباب - عن الذهاب إلى الدراز والبقاء فيها. كانا يريان أن هذا تكليف شرعي لا يمكن التهاون به. كانا يقولان لي: «نحن هناك في الجنة».

لم يناما في البيت منذ خروجهما. كنت أسأله: «أين تنامون حبيبي؟» يجيب: «أمي المجالس كثيرة». يفتح أهالي الدراز مجالس بيوتهم القريبة للمعتصمين، يخبرني محمد ومصطفى عن الأجواء الروحانية التي يعيشونها هناك، يقولان لي: «نحن الشباب نطبخ الفطور والغداء والعشاء، وأحيانًا البيوت المجاورة

تقدم الطعام». في كل مرّة يأتي محمد، يأخذ معه شيئاً من عندي ويذهب به إلى الساحة. أخذ غسّالتي، والغاز الصغير، والمكواة، والمبخر، ودلّات الشاي والكؤوس الخاصة بي، جميعها أخذها معه، فكنّت أقول له مـمازحة: «هل أنت متزوج وتقوم بنقل أغراضي؟» وكان يضحك بشدّة، بل أخذ حتى الصابون وغسول الشعر الخاص بي. كان يضحك ويقول لي: «ما دمتُ هنا، أخذ معي القليل من الأغراض». كان محمد يقول لي: «نحن الشباب نتفق فيما بيننا، عندما أخذت الغسالة أخذتها للشباب الموجودين هناك». أحدهم يغسل الثياب وأحدهم يطويها، وآخر يطبخ وواحد يذهب لشراء الحاجيات. كانت الأعمال مقسّمة بينهم، حتّى إنني عندما ذهبت لزيارتهم، لم أكن أتخيل الوضع هكذا. لقد ذهبت إلى هناك 5 أو 6 مرات، وكنت أشمّ رائحة غريبة، فعلاً كنت أسأل: «محمد هل وضعتم بخوراً أو عطرًا؟» كان يضحك ويقول: «لا».

مصطفى.. الحزن الأخير

قبل ثلاثة أيام من إصابته، أتى إليّ مصطفى. كان مصاباً بالشوزن عند حاجبه، قلت له: «ماما، حبيبي اذهب للمستشفى»، ضحك وقال: «هل تخيفنا هذه؟» ثم كشف عن صدره، كان هناك أيضاً حوالي 4 أو 5 خرطوشات شوزن. دخل كي يأخذ مصروفه كالعادة. لكنه في هذه المرة طلب مصروف الأسبوع الذي يليه أيضاً. قلت له مستنكرة: «مصطفى!!» فكان يضحك بشدّة، ويقول: «ألا تريدان أن نتصدّق؟» ثم احتضنني وقبّل رأسي ويدي، وقال لي: «في أمان الله يا أماه»، قلت له: «إلى أين يا حبيبي؟» فأشار بيده مودعاً. قلت له: «طوال هذه الفترة لم أطلب منك شيئاً، ابقَ معي الليلة فقط». قال: «سامحيني يا أمي، الشيخ أولى،

سوف يأتون ولا بدّ من أن أكون هناك». قلت له: «حسنًا، اجلس معي فقط ساعة لا أكثر، فأنا مشتاقة جدًا لك». ابتسم وحضنني وقال: «سوف آتيك، أعدك أنني سوف آتي». خطى خطوتين، ثم عاد وهو يضحك وأعطاني هاتفه الذي حطّمته طلقات الشوزن، ثم خطى خطوتين مرة أخرى وعاد ثانية، وحضنني مرة أخرى، كان عناقًا غريبًا داخلني معه شعور غريب، لا أستطيع أن أصفه، لكن هذا لم يكن من عادة مصطفى، كان مزوِّحًا حتى في حضنه. ودّعني وجميع الأهل ثم خرج. اتصل بي في اليوم نفسه، وكذلك في اليوم الثاني.

بشكل عام، كان مصطفى يتّصل بي كل يوم، يسألني عن أحوالي وأخباري، ثم يذكرني ويقول لي: «أماه، نحن لدينا تكليف، وهذا التكليف على أرواحنا»، فكنت أقول له ممازحة: «أنت تنصر الشيخ؟ أنت؟». وكان يضحك ويقول لي: «والله إن اقتربوا من الشيخ على روعي».

الإصابة في 26 يناير/كانون الثاني 2017

قبل استشهاد مصطفى بفترة قليلة، تكرّرت عندي حالة غريبة من الاختناق، لم أشعر بها من قبل. الحالة نفسها أصابتنني ليلة تعرّض مصطفى للإصابة. شعرت بالاختناق حوالي الساعة العاشرة مساءً، لم أكن أستطيع التنفّس. فصرت أتوسل بالله وأهل البيت وأقول: «أمانتكم أولادي، لديّ أولادي وأريد أن أريهم، لا أريد أن يحدث لهم أي مكروه». في هذه الفترة لم أتمكن من التنفّس بالرغم من أنني غادرت الغرفة وخرجت إلى السطح. بقيتُ في هذه الحالة من الاختناق والخوف والوجل.

غفت عيني وأنا جالسة على الكرسي ربما ثلث ساعة، أيقظني ابني عمار الذي دخل عليّ وقال: «هجموا على الدراز بالرصاص الحيّ»، فقلت: «يا زهراء بأمانة الله وأمانتك أولادي، اتصل، اتصل...»

اتصلت بمصطفى عدّة مرات لم يُجب، اتصلت بمحمد كذلك لم يجب. صرت كالمجنونة لا أدري ماذا أفعل، قررت أن أذهب إلى الدراز، بينما أنا كذلك رنّ الهاتف كان المتّصل محمد، رفعت السماعة: «محمد...» جاءني الردّ: «خالة، أنا لست محمد». قلت: «أين محمد؟ هل هو بخير؟» قال: «محمد بخير، لكن مصطفى تعرّض لإصابة سطحية وأخذناه إلى المستشفى الدولي». كان ذلك قرابة الواحدة والنصف فجرًا. قلت في نفسي إما استشهد أو حالته خطيرة. لأنه لو كانت الإصابة سطحية كما قال، لما كانوا أخرجوه من الدراز، كانوا سيسعفونه ويعالجونه هناك.

كان محمد حينها مع أخيه، هو الذي أسعفه مع أحد الشباب، فقد تدرّب محمد على الإسعافات الأولية وصار مسعفًا. الإسعاف رفض الذهاب إلى الدراز رفضًا باتًا. فأخذ محمد أخاه، وقال: «أخرج مع أخي على روعي».

ذهبت إلى المستشفى الدولي بسيارتي ومعني عمّار. سألت: «أين المصاب؟» فقالوا لي: «في هذه الغرفة». كان المنظر فظيعة لا أستطيع وصفه. شاب ممدد على سرير أبيض، لكن السرير تحول للأسف إلى بركة دم، وكان الدم يصبّ على الأرض. صرْتُ أصرخ: «مصطفى.. مصطفى.. ماما حبيبي»، كان يحاول أن

يرمش بعينه فقط، ثم فتحها، وحاول تحريك شفتيه لكنه لم يقوَ على إجابتي. التقت عيني بعينه، أحسست أنه يودّعني.

مصطفى لا يتنازل ولا يركع. دائماً كان يقول: «كرامتي فوق كل شيء». في تلك الليلة، أخبرني الشباب أنه عندما صار الهجوم ظلّ يركض بلا هواده حتى وصل إلى بيت الشيخ. كان هناك إطلاق رصاص غير طبيعي وصفوه بأنه مثل زخ المطر. ظلّ مصطفى يركض والشباب يقولون له: «ارجع». اختبأ الثلاثة الذين كانوا معه خلف إحدى السيارات وبقي واقفاً. أحد الشباب أخبرني: «كنتُ معه واحتميت بالجدار وصرخت مصطفى مصطفى فلم يجب. سمعته يقول: «الله أكبر، هيهات منّا الذلة، لن نركع إلا لله»». يقول الشاب: «غاب مصطفى عن عيني لشوان، دققت النظر أبحث عنه فلم أجده. عندما انجلى الغبار رأيتُه غارقاً في دمه، لكن لم نميز أين مكان الإصابة تحديداً، كان ينزف من كل الجهات، حملته فنظر إليّ وابتسم ابتسامة عريضة، تشعّ، لا يمكنني أن أنساها، وكأنه يقول وصلت إلى مرادي. احتضنناه وأخذناه. أردنا أن نعرف مكان الإصابة فلم نتمكن، لأن الدم كان يخرج من كل مكان؛ من الأنف، والفم والأذنين. في النهاية، اكتشف الشباب أن هناك رصاصاً حياً في رأسه، فأسعفوه.

الذين كانوا معه أخبروني أن مصطفى كان قد نام لتوّه حين حصل الهجوم. مصطفى المرح الشقي الحيوي، لم أكن أعلم أنه كان يصلي صلاة الليل. قال لشخص هناك: «أريدك أن تعلمني صلاة الليل». سأله: «لماذا؟» قال: «أنا سمعت أن الذي يصلي صلاة الليل ويطلب طلباً، فإن الله يعطيه مراده، وأنا أطلب الشهادة»، وواظب بعدها على صلاة الليل، وكان يفصّل أن يؤديها

بينه وبين الله، فإذا كان معه أحد، لا يصلي. في الليلة التي أصيب بها، أخبر صديقه أنه يرغب بأن يكون لوحده، سألته: «لماذا؟» فقال: «هذه الليلة أرغب بالاختلاء مع ربي، ولا أريد أن يداخلها الرياء أو أي شيء آخر». قضى ليلته في الصلاة، ولم يكذب ينام حتى صار الهجوم، فاستيقظ وخرج.

حين يكون جواب العلاج : لا أقدر

رفض المستشفى الدولي علاج مصطفى رفضاً قاطعاً. قالوا: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً». كنت أتوسل إليهم: «فقط أوقفوا النزيف». رجع الممرض البحريني وقال: «لا أقدر أن أفعل شيء، لا يوجد أطباء». اختفى جميع الأطباء، لم نر معه غير ممرضة أجنبية. قلت له: «الإسعاف يقف خارجاً، انقلوه للسلمانية»، قال: «لا نقدر أن نحرك الإسعاف»، فقلت له: «لماذا؟ هذا شاب عمره 18 سنة ينزف». قال محمد: «حسناً، فقط ساعدني كي أحمله إلى سيارتي وسأقوم أنا بنقله إلى السلمانية». قال: «لا أقدر!!!» حمله محمد في حضنه وكأنه طفل صغير، والحسرة في قلبه والغصة في عينه. قال له: «فلتدع الممرضة تأتي معنا على الأقل»، قال: «لا نقدر».

كان منظره مريعاً. ليس هناك أم يمكنها أن تتحمل رؤية ابنها بهذا المنظر، والله كأنها نافورة دم في رأسه؛ الأنف، الفم، الأذنان كان يخرج منها دم، لحيته كانت منتفخة، أنفه غير طبيعي. لم أستطع أن أضعه في حضني في السيارة، لم أكن قادرة على تحمل هذا المنظر، وضعه عمّار على رجله، وقاد محمد السيارة إلى طوارئ السلمانية، وبقيت أنا في حالة من الذهول والصدمة.

في السلمانية، سألونا عنه فقلنا: «طلقة في الرأس». أحضروا

السرير، وكلما تحرك السرير مشى الدم وراءه على الأرض. ليست فقط أرض مستشفى السلمانية التي تشهد بذلك، بل أرض مستشفى «الدولي» الذي رفض علاجه تشهد أيضاً.

أدخلوه إلى غرفة الإنعاش، قلت لهم: «أوقفوا النزيف». حاولوا أن يسعفوه، وأدخلوه. بعد أقل من نصف ساعة، جاءت الشرطة، قالوا لي: «هل أنت أم المصاب؟» قلت: «نعم». قالوا: «ههه سوف يموت!»

الموقف الذي هزني أكثر كان عند مجيء شرطي ومدني يحملان بيدهما (هفكري). أشار الشرطي بيده: «أين المصاب؟» قلت لهم: «حرام عليكم، لا حول له ولا قوة». دخلوا إليه، وعندما شاهدوا حالته خرجوا. بعد ربع ساعة تقريباً، كنت أتمنى على الممرضة أن أراه، سمحت لي فدخلت. تفاجأت أنهم لم يفعلوا له شيئاً. ذهبت أتوسل الطبيب: «دكتور الله يخليك، الذي تريده أنا مستعدة، فقط أوقف نزيف ابني». سكت، ولم يجب، وعاد إلى مكتبه كأن شيئاً لم يحدث.

لم يختلف شيء، فالذي أمر المستشفى الدولي بعدم معالجة مصطفى، وجه الأوامر ذاتها لمستشفى السلمانية. بعد دقائق، أتت ممرضة واكتفت بسحب الدم. في المستشفى الدولي، اكتفوا بأخذ النبض، وفي مستشفى السلمانية، تفرّجوا عليه.

عند الساعة الثالثة فجراً، جاء ما يقرب من 40-50 شرطياً ومدنياً وعنصر مخابرات؛ حققوا معي وأنا أقول لهم: «حالة ولدي الآن كذا»، لكنهم لم يكثرثوا للأمر. ظلوا يسألوني: «إلى أين ذهب؟ ولم سمحت له؟ ومتى خرج؟ ومن الذي ضربه؟»

قلت له: «أتسألني وكأنني أنا من أطلق عليه، إذا كانت الرصاصة في الرأس، نحن ليس لدينا أسلحة». ظلوا يحققون معي قرابة ساعتين في الغرفة خارج مستشفى السلمانية، وقالوا لي: «إن لم تتكلمي سوف نسجنك». هددوا كذلك ولدي عمار الصغير. كان محمد قد ذهب لركن السيارة بعد أن أنزلنا، وعندما رأيت الشرطة اتصلت به وقلت له: «اخرج ولا تعد، أنا خسرت واحد ولا أريد أن أخسر الآخر». فخرج من فوره وعاد إلى الدراز.

6 ساعات نزيف و8 أكياس دم

بقيت واقفة في الخارج مع الشرطة حتى الساعة الخامسة والرابع. في هذا الوقت رأيتهم ينقلون مصطفى إلى قسم الأشعة. قلت لهم: «أريد أن أذهب معكم، قالوا لي لا يمكنك». كانت معي إحدى صديقاتي سمعت الخبر وأتتني، خرجنا ولم نستدل، مشينا على أثر دم مصطفى إلى الأشعة. كان الدم علامتنا إلى مصطفى، عند باب قسم الأشعة، توقف الدم. جلسنا ننتظر. خرج الدكتور فسألته عن وضعه، قال: «لا أستطيع إخبارك بشيء قبل أن أرى التقرير». عند الساعة السابعة إلا ربع، ناداني الدكتور: «الحالة طارئة إذا لم توقعي على الأوراق؛ مصطفى يمكن أن يتوفى بعد ساعة: كسر في الجمجمة، نزيف تحت الجمجمة، كسر في الحنك، كسر في الأنف»، وقال أشياء أخرى كثيرة... فنظرت إليه وقلت له: «الآن صارت الحالة طارئة؟! من الساعة الثالثة وأنا أتمنى عليك». لقد تركوا ابني ينزف أكثر من 6 ساعات من دون الاكتراث لحياته. وقّعت الأوراق وأخذوه إلى غرفة العمليات، جلستُ على الأرض أمسح دم ولدي بيدي، وأصرخ: «حرام

عليكم، خلص دم ولدي». كان شعورًا مهينًا. لم أشعر بعدها بنفسِي، أغمي علي وأفقت لأجد نفسي على السرير.

صرخت: «أين ولدي؟» قالوا لي: «في العمليات». بقي فيها من السابعة صباحًا إلى الواحدة ظهرًا. احتاج 8 أكياس دم، وأجروا له عملية لكسر الأنف، ثم أخرجوه. سألت الدكتور عن حاله، فقال: «لا أقدر أن أجيب الآن عن أي شيء، نريد أن ندخله الأشعة الآن». أدخلوه ثم أخرجوه، رأيته في منظر غير طبيعي، أزالوا عظم الجمجمة ووضعوا له أنابيب للتنظيف، كان منظرًا رهيبًا. ناداني الدكتور: «مع الأسف، مصطفى لن يعيش. من الممكن أن يقاوم أشهرًا قليلة، لأنه شاب وقوي، لكن لن يبقى طويلًا».

دخل مصطفى في حالة غيبوبة، دماغه قطعة سوداء لا تعمل، لأن الدم نzf منه كثيرًا، الدكتور كان يقول: «يبدو أنه نzf كثيرًا». شاب أصيب قبل الساعة الواحدة، وظلّ ينzf حتى السابعة، والدكتور بكل وقاحة يقول: «يبدو أنه نzf!»

الشهادة: 24 مارس/آذار 2017

بعد عشرة أيام، بدأت حالة مصطفى تتدهور، ارتفعت حرارته، أصيب بفيروس في غرفة العناية! انتفخ رأسه من الجهتين، كنت أسأل الطبيب ويقول لي إنه أمر طبيعي. بعد عشرين يومًا، صرت أرى مخه أمام عيني، كان رأس مصطفى مفتوحًا إلى نصفين، كان دماغه يخرج، فيكتفون بتخييط المكان الذي خرج منه فقط، وأسأل الدكتور: «إلى متى؟» فيقول: «هذا أمر طبيعي، دماغه متوقف»، ويخرج.

كانت هناك ممرضات (في قسم العناية) لا أنسى فضلهن إلى

يوم القيامة، كنّ ملائكة رحمة بالفعل، كنت أرى حنانهن، وكنت أرى خلاف ذلك عند آخرين.

ظل مصطفى يعيش على الأجهزة، لسانه تقشر بالكامل، عيونه كانت حمراء ومليئة بالالتهابات، وكان جسمه يتقشر. لم يكن أحد يعلم عنه شيئاً، كنت آخذ له مرهماً وزيوتاً، ظلّ طوال هذه الفترة كلّها يعاني، إلى ما قبل استشهاده بفترة. كانوا يسألونني: «لِمَ الأجهزة؟» فكنْتُ أقول: «ما دام هناك نفس من رب العالمين، لا تزيلوها». لا أستطيع أن أزيل الأجهزة عن ولدي.

في 17 مارس / آذار، تفاجأت بحارس الأمن يقول لي: «من يرغب بإلقاء النظرة الأخيرة على ابنك فليأت. الزيارة مفتوحة». ذهبت إلى الدكتور فطاطاً رأسه وقال الكلام ذاته.

رأيت تغيرات كثيرة بدت على وجهه وألوانه، عرفت أنها أيامه الأخيرة. طلبت من الممرضات اللاتي، كنّ يتعاملن معي باحترام، مع رجاء خاص: «أعلم أن ولدي سيفارق الحياة خلال هذين اليومين، رجائي إذا وجدتموه يحتضر اتصلوا بي أي ساعة من الليل كانت، لا أريد أن يفارق الحياة إلا وأنا عند رأسه». احتضنتني الممرضة وكتبت الملاحظة ووعدتني. هذا كان يوم الخميس. بقيت معه إلى الساعة التاسعة والنصف، ثم خرجت عند الساعة العاشرة. لم أستطع العودة إلى البيت، كانت السماء تبرق وتمطر، كنت ألاحظ أنه حدث أكثر من مرّة أنه كلما سقط المطر، سقط شهيد. وقفت عند السيارة، ورفعت يديّ إلى السماء أخاطب ربي.

عدتُ إلى البيت واتصلت بالمستشفى فقالوا لي: «الحرارة

انخفضت لكنه متعب». كذلك في الصباح، أخبروني أن الأوكسجين انخفض عنده من 100 إلى 8.

كنت عنده في الساعة العاشرة صباحًا، نبضه كان منخفضًا جدًا، في العشرين. فسألت الممرضة: «ما به مصطفى؟» فخفضت رأسها وقالت لي: «تعبان». أخرجت هاتفني والتقطت له صورة، وكذلك فيديو، وأرسلتها لأخيه محمد. قلت له: «أخوك لن يكمل الأسبوع ولا حتى عشرة أيام، أخوك اليوم سوف يفارقنا، صورته كي لا يضيع حقه».

لفت انتباهي أنهم أزالوا حتى المغذي، فقلت للدكتور: «كم بقي لديه؟ قل لي»، فأجابني: «لا أقدر أن أقول لك، الأعمار بيد الله». سألت كل الممرضات: «حسب عملكن، كم يبقى؟» فقالت لي إحداهن: «إذا بقي اليوم لن يبقى إلى الغد».

دخلتُ وفي يدي القرآن، قرأت سورتي ياسين والصفات، وأغلقت القرآن وذهبت إلى الأجهزة. أذكر جيدًا ما قاله الدكتور حينها، أن أعضاءه توقفت جميعها، وحده القلب كان لا زال يعمل، ومنتظر كي يتوقف، وأنا أقرأ القرآن. أنهيتُ الآية والتفتت إليه، نبضات القلب 136.....126... وبدأت تنخفض إلى أن برز خط مستقيم على شاشة الجهاز. أخبرت الممرضات فأتين، خط على الشاشة، وانتهى كل شيء. لم أعد في وعيي، لم يُغم عليّ، لكن «خلص ولدي راح، ولدي استشهد» ورحت أصرخ. أمسكتني الممرضات، وحاولن تهدئتي. لم أع إلا على صوت الممرض يقول لي: «أم مصطفى ارتفعت نبضات ابنك، انظري 80»، قلت له: «نعم ارتفعت كي أودعه، مصطفى يفارق الآن». دخلت إليه،

وحضنته، أمسكته من رأسه وضممته وشممته، وتكلمت معه. قلت له: «أنا أدري أنك مفارق الآن، وأنا كما وعدتك لن أذهب إلى أن ترتقي شهيداً، سوف أصلي عند رأسك». وفعلاً، صليت. كنتُ في الركعة الثالثة من الفرض الأول، حين تراكضوا يحاولون إنعاشه، كانت عيني عليهم وكنتُ أسمع الصوت، ولم أقطع الفرض. أكملت صلاتي، والتفتتُ؛ كان قلبه قد توقف، ومستوى الأوكسجين خمسة. أخرجنوني، ثم خرج الدكتور وقال لي: «عظم الله أجرك بمصطفى».

في عين الله... فداء للفقيه

طوال فترة الاعتصام، كان محمد مع أخيه، وعندما استشهد مصطفى، جاءني محمد أيام العزاء، وقال لي: «سأبقى معك خلال أيام التعزية، وبعدها اسمحي لي يا أمي بالذهاب». بقي معي عشرة أيام، وكان يكتفي بكلمة واحدة: «في عين الله، فداءً للفقيه». خلال هذه الأيام لم يفتأ يحدثني عن الشهادة، ويهدئ روعي بأسلوبه وحنانه، اعتبره ولدي وأخي وصديقي، أنا أعامل أولادي على أنهم إخواني وأصدقائي. كنت أعلم كل صغيرة وكبيرة عنهم.

كان محمد مطلوباً. بعد إصابة مصطفى، لم أره لشهر كامل. كنت أتألم كثيراً، أنا أم، أحد أولادي مصاب والآخر مطلوب، فكنت أتصل به وأبكي وأقول له: «محمد لا أقدر أن أبقى بهذا الوضع، لا أقدر أن أتحمل، أريد رؤيتك». لذلك، قام محمد بترتيب طريقة لي للدخول إلى الدراز. أوقفت سيارتي في مكان محدد كما أخبرني، ووقفت عند أحد المنافذ التي كانوا

يستخدمونها، وهناك كان بعض الشباب بانتظاري، ومعهم سيارة، أخذوني معهم وأوصلوني إليه.

بعد استشهادي، وجدت في هاتفه هذه الخاطرة، أرّنتي إياها أخته، كتبها بتاريخ 30 أبريل / نيسان 2017، أي بعد حوالي شهر من استشهاد أخيه، وقبل أقل من شهر من استشهادي. كتب فيها:

«آه...آه...هل ألقى الله بجسد لم تطأه الخيول.. برأس باقٍ في الجسد ورأس الحسين على الرماح معلق؟ بجسد أضلّعه سليمة، وجسد ابن بنت رسول الله قد طحن؟ هل أغسل ويواري جثمانني الثرى، وجسد ابن بنت رسول الله عار دون تغسيل؟ هل أزف بموكب مهيب، ولا مواكب تواري جثامين الأنصار؟ عذراً إمامي يا صاحب الزمان، فلتشهد بأني جاهدت ونصرت وبذلت روحي في سبيل الله، إني خجل وكلي خجل أن تلقى الزهراء ابنتها مضرّجاً بالدماء والجراح قد ملأت جسده، وأنا لم أواسها ولو بالقليل، أنا مؤمن بالشهادة، ومؤمن بقاء الله شهيداً، لكن أدعو الله أن يتمزّق جسدي، وأن تُرض أضلعي، وليُسوّ جسدي بالأرض، ليتفتت هذا الجسد، ليُسحق ويتناثر فداءً لرسول الله، وحتى يتطهر إلى آخر ذرة منه، إني بذلته في سبيل الله... قد بذلت نفسي لرفع راية الحق، وراية الإسلام، وليختر لي الله ما أستحقه، فإنني عبده وفي يده».

قبل استشهاد مصطفى سألتهما ذات مرة: «أنا أمكما، لو قلت لكمما إنني لا أقبل ذهابكما ولست راضية عنه، هل تذهبان؟» قالا: «لن نغضبك يا أمي، لكن هذا تكليف شرعي!» فقلت لهما: «في أمان الله، أنا راضية عنكما وعليكما». أفتخر بهما، وأحمد ربي

كلما وقفت وكلما جلست، وأسجد لربي شكرًا، لأنه قدم لي هذين الولدين، والله اختارهما ليس أي اختيار، بل شهيدين.

والله لا يخيفونا

بعد استشهاد مصطفى، اتفق محمد معي على أن يذهب إلى الدراز كل يوم، ويعود إليّ فجرًا. وكان هذا ما حدث بالفعل إلى أن حلت ذكري أربعين أخيه. قررت أن أذهب إلى سوريا لأقيم أربعينية مصطفى عند أهلي. يوم سفري، أوصلني محمد إلى المطار، فهو من يوصلني عادة إلى المطار، يضع لي الحقائب في العربة، يحتضني وقبلني ثم يقول لي: «في أمان الله، أبلغني عني السلام لبيت جدي»، ثم يرحل.

في ذلك اليوم كان الوضع مختلفًا. وصلنا إلى المطار وكان عمّار معنا، نزل وجاء بالعربة ورّتب الحقائب، ثم احتضني وقبلني وقبل يدي: «أمي تحمّلي في نفسك وسلمي على بيت جدي كثيرًا». ثم قال لي: «أمي أنا لن أتحرك، سأنتظرك في السيارة، عندما تيسر أمورك بالكامل في الداخل اتصلي بي لأرحل بعدها». قلت له: «لا عليك. وقلت في نفسي إنه قد يكون كذلك لأنه متعاطف مع كسري على أخيه. مشيت بضع خطوات فقال لي: «أمي.. لحظة». جاء إليّ واحتضني مرة ثانية وقبلني. ليس هذا طبعه. في المرة الأخيرة احتضني بشدة أمتني وقبلني، قلت له: «محمد.. آخ ظهري»، أخذ عمّار يضحك بصوت عال.

في سوريا، كان يتصل بي كل يوم عدة مرات، ويرسل مقاطع صوتية على غير عادته. في ليلة الهجوم، كلمني وقال لي: «نسألكم الدعاء»، ثم بعد ساعة إلّا ربع قال: «نسألكم الدعاء وبراءة الذمة»،

فقلت في نفسي: «هناك أمر ما». اتصلت به وكانت الساعة 12 عند منتصف الليل، لم أكن أعلم ماذا يحدث لكنني قلت له: «محمد حبيبي سمعت أن الأوضاع في البحرين ليست جيدة هل هناك شيء؟» فقال لي: «أماه.. يبدو أن هناك هجوماً سوف يحصل»، ثم قال: «تحملني بروحك ولا تقلقي».

الساعة الثانية والنصف فجرًا كلمته: «محمد حبيبي، ما هي الأخبار؟»، فقال لي: «أماه.. هم متشرون الآن، لم يقربوا ناحية الاعتصام، إذا حدث أي شيء سوف أخبرك، لا تقلقي ولا تخافي، إن الله معنا، لا يغلبنا أحد، صدقيني لا يخيفونا والله العظيم، لا تقلقي ولا تفكري، ولا تشغلي بالك، صلي ركعتين، صلي صلاة الليل وادعي وانت مرتاحة».

عند الساعة التاسعة وعشرين دقيقة صباحًا، كان التواصل الأخير بيني وبينه: «أماه دخلوا، انتبهى على نفسك، في أمان الله، انتبهى على نفسك مع السلامة».

كان اتصاله الأخير عند بيت الشيخ، قال لي: «أنا لا أبعد عن بيت الشيخ»، وفي آخر اتصال سلّم هاتفه، بعدها لم أتمكن من التواصل معه ومعرفة أخباره. كان قبلها قد أرسل مقاطع صوتية، سلّم فيها «على الجميع، وعلى كل من يسأل عني وقولي لهم أن يبرئوا ذمتي، قد أكون أخطأت معهم في شيء». ظللت أتابع الأخبار من سوريا، وحاولت أن أحصل على تذكرة للعودة، إلى أن أتاني الخبر.

استشهد محمد عند باب بيت الشيخ كما أخبرني الشباب، كان قد اغتسل غسل الشهادة وارتدى كفنًا، ووضع العصابة على رأسه.

لا أعرف حتى الآن تفاصيل استشهاده، ولا أعرف سبب إصابته بالضبط، ما إذا كانت بالرصاص الحي أم بالشوزن أم بالاختناق، بل إننا حتى الآن لم نستلم شهادة وفاته، ولم نستلم ما يذكر سبب الوفاة. كل ما أستطيع قوله أنه نال ما كان يريده.

لقد دُفِن من دون تشييع. دفن في منتصف الليل. كنت أريد أن أحضر تشييعه وأزفّه كما فعلت مع أخيه. لكنهم حرمونا حتى من هذا.

كان لدي شعور بأنه سوف يستشهد، كان يتحدث إلى أخيه في غرفة العناية: «لقد تعاهدنا عند السيدة زينب (ع) أن نحيا معاً ونموت معاً»، ثم ضرب على صدره: «أنا على خطاك، ولن تطول المدة». فقلت له: «محمد؟!» نظر إليّ وابتسم فقط. لم أتوقع أنه عندما قال إن المدة لن تطول، أن يستشهد خلال هذه الفترة فقط. لم أتوقع أن يلحق بأخيه بهذه السرعة. توقعت الأمر بعد سنوات، لا بعد شهرين.

عندما كنت في سوريا، ذهب محمد مع أخته وصديقتي، واشترى لي طاولة ومكتبة، أراد أن يفاجئني بهما. عندما عدت، تفاجأت: «يا محمد.. أتصلي هديتك وترحل أنت!!»

أخذه ورحل..

ابنتي الكبرى حلمت قبل يومين من اقتحام الدراز أنها كانت جالسة عند باب البيت، تقدّم شخص ذو هيئة نورانية، ولشدة نوره لم ترَ وجهه. عندما اقترب عرفت أنه مصطفى، سألته: «مصطفى متى استشهدت؟» أجابها: «الآن»، وكان يرتدي عباءة وعمامة كبيرة، ثم دخل وتكلم مع أخيه محمد، ثم أمسك بيده وقال: «قم

يا محمد كي نفاجئ أمي، ثم أخذه ورحل». نعم لقد فاجأني.
أخذه سريعاً ورحلاً معاً.

الشهيد محمد العكري:

أمسك الباب

فتى يافع فاتن النظرة، الشهيد محمد عبد الكريم العكري ذو الثمانية عشرة ربيعاً، في الصف الأخير من الثانوية العامة، من بلدة الديه التي قدمت أول شهداء ثورة 14 فبراير. به خجلٌ عذريّ يتوارى في تلك العينين، ملامح طفولة غادرت، وشباب بدأ للتو يقبل، ملامح العشق تجلت على وجهه كما في قلبه.

لقد عشق وطنه؛ ترابه ووجوده وأصله وشعبه وعقيدته، كان يجد في كل واحدة من هذه بآبا يدرك من خلاله معنى الوطن، ووجد نظاماً فجاً غليظاً، يقتحم كل واحد من هذه الأبواب، يحطمها بوحشية الإبادة والاستهداف.

كان يجد في الشيخ عيسى قاسم باباً. إنه رمز لوجود يمثله محمد. إنه الباب الأخير لوطن انتهكت كل أبوابه. كان يظن أنهم لن يتجرؤوا على هتك هذا الباب. لكن ها هم اليوم يهاجمونه بوحشية خليعة. لهذا راح (محمد) يمسك الباب. يجلس كل ليلة عند باب بيت الشيخ لحراسته. طوال عام كامل، كان يحرس في الليل، خوفاً من مdahمة غادرة، ويحاول الذهاب إلى مدرسته في النهار، لكنه لم يستطع المواصلة على هذا المنوال، غاب عن مدرسته أكثر مما حضر فيها، لكنه لم يغب عن باب الشيخ..

وقف مع رفاقه حينما داهمهم الوحش بمدرعاته، وجاء مختلاً

ليقتحم الباب، قاتل مع رفاقه الموت بأجساد عارية، أمسكوا الباب بأيدي عزلاء حتى خرقهم الرصاص، كل شهيد يصرخ لمن يأتي بعده: «أمسك الباب.. أمسك الباب».. ثم يسقط..

الشهيد محمد أصغر إخوته، آخر العنقود كان محباً بعمق لأمه وأبيه، مليئاً بالعرفان لهما لأنهما أحسنا تربيته كما قال في اتصاله الأخير المُسجَّل، كان يخاطب أمه وأبيه معترفاً: «لقد ريتماني أحسن تربية، وإن شاء الله أكون الآن بحجم المسؤولية التي أعطيتماها لي، نحن الآن محاصرون في بيت الشيخ وهم يطلقون النار علينا».

كلنا مشاريع أمهات شهداء

سيارتان للقوات الأمنية تقفان خارج المنزل، وفي داخل المنزل أول الدخول تسمع صوت أم الشهيد تتأوه بألم وحزن: «آه آه، أريد أن أدرس نفسي في التراب.. داخل الأرض».

تواسيها الحاضرات: «إنه موت مشرف، ميتة ترفع الرأس»، قالتها أم أحد الشهداء، مضيئة: «أولادنا موتهم عز».

تعود أم الشهيد العسكري لتروي: «أنا رأيت الجيوش المجيشة، كانوا محتشدين في مركزهم. مركز الشباب المقابل ليبي، كنت أشاهد من نافذة بيتي الأعداد الهائلة من السيارات، أكثر من 20 سيارة شرطة ومدركات كلهم كانوا جاهزين وكأنهم ينتظرون الإذن، كنت أشاهدهم من نافذة غرفتي وأخبر زوجي بأن هذه الجيوش حتماً ستوجه إلى الدراز، وسيقتلون أولادنا، لم أهدأ كنت أراقبهم عبر النافذة، عند التاسعة تحركوا».

تواصل: «كنت أعرف أن ولدي محمد لن يدخل بيتًا ليحتمي، هو لم يذهب ليحتمي في البيوت أو يختبئ، ذهب ليقدم نفسه، قلت له: يا ولدي ستموت، فكان جوابه: سأكون شهيدًا، كل الشباب هناك شهداء، كلهم قد قدموا أرواحهم».

تحكي أم الشهيد العكري بألم: «ما ودّعته، ما عانقته، لم أكن أعلم، راح محمد وأنا ما أدري، سافر عني ولدي سافر عني ولدي، آه.. آه.. كان محمد همّه فقط إرضائي، فقط كان يعمل على إرضائي، ربما كان يعرف بأنه لن يعود، كان دائم التواصل معي، يتصل بي كل يوم. طالما بكيتُ بحرقة على كل شهيد يسقط، أتأمل صورهم وأمّاتهم، نحن الأمّهات البحرينيات كلنا مشاريع أمّهات شهداء».

تقول عن ذلك اليوم: «كان يومًا عصيبًا، ظلّ جسدي متشنجًا ولم أستطع التحرك، فقط الهاتف وما يحمل من أخبار، أحاول أن أتماسك، لم أهدأ، متوترة، لا الجلوس يُهدئني ولا النوم».

تردف: «كنت متأكدة جدًا أنه إذا حدث هجوم، سيكون محمد في الصف الأول. لهذا حين بدأ الهجوم، توقعت أن يستشهد. تحدثت معه ذلك اليوم مرتين، أخبرته أنني قلقة جدًا وأني أرتجف خوفًا عليه، وأنه سيغمي عليّ من شدة الخوف، طلبت منه أن يتصل بي كل فترة لأطمئن عليه، كان يتصل بي من أرقام مختلفة من بينها رقم الشهيد أحمد جميل العصفور، عرفت الاسم من برنامج كاشف الأرقام. بعدها، اعتدتُ على الرد على الأرقام الغريبة، كنت أعرف أن ولدي محمد هو المتصل، الاتصال

الثالث كان من هاتف أحد المعتصمين، لكن لم أرد عليه لأنني كنت حينها أصلي».

واخترتُ الصلاة

قراءة الساعة الواحدة ظهرًا، وبينما كنتُ أصلي، سمعت رنين هاتفي، قلبي يخبرني أنه محمد، احترت، هل أقطع صلاتي؟ لا، لا يجوز. تكرر الاتصال مرتين، وعندما لم أجب، اتصل بوالده، وجد والده الرقم غريبًا فلم يجبه. اتصل بشقيقه حسن، وأبلغه بوصيته، حاولت الاتصال به فيما بعد، لكن الخط كان مشغولًا، سألت أخاه: «ماذا أخبرك محمد؟» أجاب: «إنه عند بيت الشيخ وصاروا يطلقون النار عليهم».

في اتصاله الأول والثاني، كان يكرر عليّ: «دعواتكم دعواتكم»، كان اتصاله الأول عند بدء الهجوم، اتصل وقال: «أماه لو حدث شيء أو أصابني شيء، الأهم أن تكوني أنت راضية عني»، قال هذه العبارة وهو مغبون، كأنه كان ينعى نفسه، أجبته: «حبيبي حافظ على نفسك، لا تتقدم، لا تقف في الصف الأمامي»، خاطبته: «محمد أنا تعبانة، أرتجف من الخوف». بعد حوالي ساعتين، اتصل بي من هاتف الشهيد أحمد جميل العصفور، أخبرني أنه في أحد البيوت وأن وضعه آمن. لاحقًا، وعندما انقطع اتصاله وأخباره، قلت لأخيه إن محمدًا قد مات، من المؤكد أنه استشهد مع الشهيد العصفور. حاول ابني أن يخفف عني وأن يقتنعني أنهم اعتقلوا الجميع. أنا أعرف محمدًا، أعرف أنه لا يتراجع، دائمًا في المقدمة، وضعنا الاحتمال الأكبر أنه معتقل، لكن حتى المعتقلين لا يُعرف مصيرهم، لا أخبار مؤكدة، لا أحد يعرف عنه شيئًا».

تضيف: «يومان مرّا لم نعرف عنه شيئاً. في اليوم الثالث كانت الصدمة.. صباحاً ذهبت إلى منزل الشهيدين حمدان لتعزيّتهم وعدت. كان أول ما قمت به هو تصفّح وسائل التواصل الاجتماعي. حان موعد صلاة الظهر، وقفت للصلاة ولم يكن معي غير زوجي. قبلها فتحت الإنستغرام، وإذا بي أرى صورة وجه ابني محمد شهيداً. خبر شهادته كان أيضاً وقت الصلاة، كما كان اتصاله قبل يومين».

حارس الباب

تكمل: «طوال عام كامل، لازم محمد الدراز. هو في العام الدراسي الأخير. لم يداوم في المدرسة إلا قليلاً. شدّدنا عليه كي لا يفعل، لكنه كان متعلّقاً بالشيخ. كان يداوم على الحراسة الليلية لباب الشيخ خوفاً من أن يقتحموه. ثم يأتي صباحاً ليداوم في المدرسة. طلب مني أن أسمح له أن يتحوّل إلى نظام الدراسة المنزلية، كان يقول إن الوضع عند بيت الشيخ خطير، وإنه لا يوجد عدد كاف لحماية الشيخ، لكنني لم أقبل وأصررت عليه أن ينتظم في دراسته». في أيامه الأخيرة، كان همه أن يرضيني. جاءني الأسبوع الماضي، لقد كان مريضاً. أخذته إلى المستشفى، لولا المرض لما ترك الدراز».

تروي لها إحدى الأمهات التي نجا ابنها من الموت في ذلك اليوم: «لقد اتخذ الشباب قرارهم أن لا يتحركوا من عند باب بيت الشيخ إلا جثّاً. بينهم محمد كاظم زين الدين، ومحمد عبد الكريم العكري. القوات العسكرية أمرتهم بالابتعاد، لكنهم لم يفعلوا. فتح الشهيد محمد كاظم زين الدين ذراعيه وبقي واقفاً، فكان جوابهم القتل».

تردف: «منذ يوم الهجوم وحتى وصول خبر استشهاد محمد عشت قلقًا كبيرًا، لم أستطع النوم. أصوم لكن لا أستطيع تناول الفطور، هجرتُ غرفة نومي، صار مكاني أمام التلفزيون، والهاتف في يدي، أرتقب أي خبر يأتي عن ابني محمد، ما عرفناه أن محمدًا أصيب وكانت إصابته خطيرة، من المؤكد أنه استشهد في أحد البيوت، لو كان استشهد عند القوات العسكرية المهاجمة لما انتشرت صورته بعد استشهاده في وسائل التواصل، من المستحيل أن تنشر هذه القوات صورة محمد وهو شهيد».

تواصل: «اتصلوا بنا من مركز شرطة البديع، كرروا الاتصال بوالده، لكنه لم يرد. اتصلوا بعدها بأخت الشهيد وأخبروها أن مركز البديع يطلبهم، لم يخبروها سبب الاستدعاء، طلبت ابنتي منهم معرفة السبب فامتنعوا، وطلبوا أن تحضر عائلة محمد، وأن تخبر والدها بالحضور إلى مركز البديع. عندما ذهب عم محمد وخاله إلى مركز البديع طلبوا منهم التوجه إلى المستشفى العسكري للتعرف على جثته. أدخلوا عمه فقط إلى المشرحة، وقبل أن يدخل صادروا هاتفه».

في غرفة محمد، تجلس والدته، تتفحص ملابسه، وتبكي، تقول: «شاهدوا، كانت معظم ملابسه في الدراز، عندما يأتي إلى البيت دائمًا أقول له: تريد الشهادة، لا تترك صلاة الليل». ينقطع كلامها ويضج المكان بالبكاء والعيول. تحتضن ملابسه كما احتضنته طوال عمره. تتمنى أن تطبع قبلتها الأخيرة على وجهه الجميل، لم يعد ذلك ممكنًا. يمتلئ المنزل بالصياح المفجع.

لقد أمسك هؤلاء الفتية الباب جيدًا، هم ورفاقهم الذين تعاهدوا

على حمايته حتى الرmq الأخير، لم يكن معهم أحد غير إيمانهم
بعدالة قضيتهم، كان قرارهم وحدهم، وخيارهم، وفداؤهم.

ملحق:

جدول أحداث ساحة الفداء

التاريخ	الحادث الرئيسي
الإثنين 2016/6/20	- إعلان إسقاط جنسية آية الله الشيخ عيسى قاسم وبدء الاعتصام المفتوح في الدراز حيث تجمّعت الجماهير حول منزل سماحته. - خروج آية الله قاسم للحظات وطلبه التفرق من المعتصمين الذين يبادرون بالهتافات المؤيدة لسماحته، ويرتدون الأكفان. - بدء حصار الدراز من قبل القوات الأمنية. - الجنرال سليمان في بيان له: «التعرض لحرمة آية الله الشيخ عيسى قاسم هو خط أحمر لدى الشعب يشعل تجاوزه النار في البحرين والمنطقة بأسرها». - حزب الله يدين في بيان سحب جنسية «العالم الجليل والقائد الشجاع آية الله الشيخ عيسى قاسم» ويصفها بالخطوة غير المسبوقة وبالغة الخطورة «لما يمثّله سماحته من مقام ديني رفيع وموقع كبير على مستوى الوطن والأمة، وضمانة حقيقية لحاضر البحرين ومستقبله».
الثلاثاء 2016/6/21	- السيد مجيد مشعل يوصل إلى المعتصمين عند الساعة الواحدة فجراً رسالة آية الله قاسم لهم بالتفرق، والمعتصمون يردون بهتافات الفداء وعدم التراجع والإصرار على الدفاع عن سماحته حتى الرّمق الأخير. - القوات الأمنية تقتحم صباحاً مكتب البيان للمراجعات الدينية في كرانة.
الأربعاء 2016/6/22	- آية الله السيد علي السيستاني في اتصال هاتفي بآية الله قاسم: «أنتم مكانكم في القلوب، وما حصل لا يضركم» رداً على إقدام السلطات البحرينية على سحب جنسية آية الله قاسم.
الخميس 2016/6/23	- آية الله السيد محمود الشاهوردي في اتصال هاتفي بآية الله قاسم: «إنما يكون فهو رمز للطائفة والإسلام والأمة وهو رجل مُعَظَّم ودوره كبير».

- إحياء ذكرى جرح الإمام علي (ع) وإحياء مركزي لليلة القدر الأولى: ليلة 19 رمضان. - السيد حسن نصر الله يصف في خطاب له إسقاط جنسية آية الله قاسم بـ «التطور الخطير جداً» ويقول إن «البلدة التي يقطنها آية الله قاسم تحولت إلى سجن كبير بسبب الحصار الذي تفرضه قوات الأمن».	الجمعة 2016/6/24
- إحياء ذكرى جرح الإمام علي (ع) ليلة 20 رمضان. - آية الله السيد الخامنئي يدين إسقاط جنسية آية الله قاسم ويدعو المجتمعات الإسلامية إلى «عدم السكوت عن هذا الظلم»، معتبراً أنّ ما حصل «خطوة خطيرة وبعيدة عن العقل في إطار خدمة نظام آل خليفة لأمريكا وأيديها، وخاصة السعودية». - آية الله السيد محمد سعيد الحكيم يعرب في اتصال هاتفي بآية الله قاسم عن «تضامنه الكبير معه وقلقه الشديد على شعب البحرين جراء التداعيات الأخيرة الخطيرة والتعدي السافر من قبل النظام على سماعته».	السبت 2016/6/25
- إحياء ذكرى وفاة الإمام علي (ع) وإحياء مركزي لليلة القدر الثانية: ليلة 21 رمضان.	الأحد 2016/6/26
- آية الله السيد كاظم الحائري في بيان له: «بلغنا الموقف المؤسف والمدان بشدة لطغاة آل خليفة في البحرين بحق العلامة الجليل سماحة الشيخ عيسى قاسم (حفظه الله) من قرار سحب حق المواطنة عنه بقرار وتهم تاريخية صدرت من طغاة قبلهم بحق المصلحين والدعاة إلى الله تعالى» مضيفاً: «يعلم القاضي والداني أنّ سماحة الشيخ (حفظه الله)، ذلك العالم المتفاني لصالح دينه وبلده وشعبه، قد وُظف عمره الشريف في الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى سلمية الحراك السياسي، ونبذ الكراهية بين أبناء الطوائف الإسلامية، وتجنب التحريض على سفك الدماء، وحفظ مصالح البلد. لكن الحاكم الخلفي يتبنى أجندة أجنبية يدعمها المال والخطرة السعودية والتأييد الأمريكي الصهيوني في المنطقة الإسلامية».	الاثنين 2016/6/27

- إحياء مركزي لليلة القدر الكبرى: ليلة 23 رمضان.	الثلاثاء 2016/6/28
- آية الله قاسم وكبار علماء البحرين يُصدرون بياناً حول فريضة الحُمس ويؤكدون فيه أن «أي محاولة لفرض وصاية رسمية أو شبه رسمية على فريضة الحُمس تشكّل مساساً صارخاً بالخصوصية المذهبية وهذا أمرٌ مرفوض رفصاً قاطعاً وفق فتاوى فقهاء المذهب كما أنّه يُمثّل استفزازاً خطيراً لكل أبناء الطائفة».	الخميس 2016/6/30
- أكثر من 190 عالم دين يعلنون تأييدهم الكامل لبيان كبار العلماء حول الحُمس.	الجمعة 2016/7/1
- بيان كبار العلماء حول استهداف آية الله قاسم: «نطلق نداءً يحتضن همّ الوطن، دينه، قيمه، حبّه، أمنه، وحدته، آماله، آلامه، حاضره، مستقبله».	السبت 2016/7/2
- عيد الفطر المبارك، الصلاة وخطبة العيد بإمامة الشيخ سعيد المادح.	الأربعاء 2016/7/6
- ختمة قرآنية تضامناً مع شهداء الكرامة في العراق.	الأحد 2016/7/10
- إقامة صلاة الجمعة بإمامة الشيخ سنقر في جامع الإمام الصادق (ع) بالدار، وكانت قد أوقفت قبل شهر بأمر من السلطات الأمنية التي أبلغت الشيخ سنقر بمنعه من الخطابة في 2016/6/15.	الجمعة 2016/7/15
- وقفة احتجاجية لعلماء البحرين تنديداً باستهداف آية الله قاسم: «آية الله قاسم يمثل رمزاً للطائفة الشيعية في البلاد وإن استهدافه يعني استهدافاً لها».	السبت 2016/7/16
- استدعاء الشيخ سنقر واعتقاله. - بيان كبار علماء البحرين: «احتجاز العلامة سنقر استهدافٌ عملي بين لشعيبة الجمعة والخطاب الديني».	الأحد 2016/7/17
- بيان كبار علماء البحرين: «مستهدفون في وجودنا ومعتقداتنا».	الاثنين 2016/7/18

- دخول القوات الأمنية في مدرعة ومجموعة أحياب ومحاصرة مأتم الحيدرية ومن بداخله، واستنفار المعتصمين وخروجهم في وجه قوات الشغب، ثم انسحاب الأخيرة بعد حوالي 15 دقيقة، وذلك بحدود الساعة الرابعة عصرًا. - (217) عالم دين يعلنون أنّ شيعة البحرين مستهدفون.	الثلاثاء 2016/7/19
- اعتقال الشيخ سعيد العصفور والرادود عبد الجبار الدرازي.	الأربعاء 2016/7/20
- الشيخ الزاكي يعلن وقف صلاحي الجمعة والجماعة لهذا الأسبوع وذلك بسبب منع قوات النظام دخول إمام الجماعة والمصلين، وقد ظلت صلاة الجمعة ممنوعة من من قبل السلطات البحرينية طيلة فترة الاعتصام.	الجمعة 2016/7/22
- علماء البحرين ينددون في وقفة احتجاجية ثانية باستهداف آية الله قاسم: «الطرف الآخر لم يتغط بغطاء ولم يجامل وإنما استهدف الطائفة في رأسها وفي رمزها الأكبر وفي أهم خصوصياتها مما يعطي لموقفنا قوة ويجعلنا في موقع قوي جداً للدفاع عن أنفسنا، لأن المستهدف هو ديننا، وهو أكبر رمز في طائفتنا بما له من قدرة على استقطاب الجماهير وبما له من حضور واسع في نفوس المؤمنين من مختلف الفئات العلمائية والجماهيرية وغيرها».	السبت 2016/7/23
- بيان كبار علماء البحرين: «الإعلان عن محاكمة سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم (حفظه الله) يمثل إعلاناً عن محاكمة المذهب وفرائضه وأحكامه ومرجعياته».	الثلاثاء 2016/7/26
- أولى جلسات محاكمة آية الله قاسم.	الأربعاء 2016/7/27
- اعتقال السيد مجيد مشعل بعد مدامة منزله.	السبت 2016/7/30
- علماء الدين يعتصمون مجدداً: «استهداف العلماء والفرائض إمعان في الاضطهاد الطائفي بالبحرين».	الاثنين 2016/8/1

- بيان كبار علماء البحرين: «حتى لا تتجه الأمور لمزيد من التأزيم». - استدعاء الملا سيد علي سيد أحمد قاسم والملا حبيب مفتاح.	الثلاثاء 2016/8/2
- سجن الشيخ علي الجفيري والشيخ علي حميدان.	الأربعاء 2016/8/3
- اختطاف الشيخ محمد جواد الشهابي من نقطة التفتيش واعتقاله، وتوقيف الملا سيد علي.	الخميس 2016/8/4
- استدعاء الشيخ فاضل الزاكي والشيخ علي ناجي الهملي واعتقالهما.	الأحد 2016/8/7
- استدعاء كل من السيد ياسين الموسوي والشيخ عزيز الخضران والشيخ منير المعتوق والشيخ عماد الشعلة واعتقالهم.	الثلاثاء 2016/8/9
- استدعاء السيد محمد الغريفي.	الأربعاء 2016/8/10
- ثاني جلسات محاكمة آية الله قاسم.	الأحد 2016/8/14
- القضاء البحريني يُصدر أول حكم على خلفية تجمهر الدراز: الحبس سنة للشيخ علي حميدان.	الخميس 2016/8/18
- بيان علماء البحرين حول اعتقالات العلماء: «الاعتقالات الواسعة جدًا لعلماء وخطباء الشيعة في البحرين تستفز الحسّ الديني العميق لدى الشعب الغيور».	الجمعة 2016/8/19
- دخول القوات الأمنية في أكثر من 10 أحياب شرطة عند شارع البريد، بحجة معاينة سيارة لأحد المخبرين يبدو أنها قد كُسرت، وتجمع المعتصمين في مواجهة القوات الأمنية بحدود الساعة الثالثة بعد الظهر.	السبت 2016/8/20
- علماء البحرين يعلنون برنامجاً تضامنياً: «نداء الدعاء لمدة أربعين ليلة ابتداءً من هذه الليلة».	الخميس 2016/8/25

- بيان آية الله قاسم والعلامة الغريفي: «تعطيلها [صلاة الجمعة] مع توفر شروط إقامتها من قبل السياسة منكر لا ينتظر من أيّ أهل مذهب عدم إنكاره، ولا من سياسة تحترم الإسلام أن تقدم على هذا التعطيل». - صدور الحكم القضائي الثاني بخصوص «تجمهر الدراز»: الحبس سنة للملا علي أحمد.	الثلاثاء 2016/8/30
- إقامة صلاة جماعة في جامع الدراز بإمامة السيد محسن الغريفي (مع استمرار منع صلاة الجمعة من قبل النظام البحريني).	الجمعة 2016/9/2
- بيان أئمة الجمعة والجماعة: «إقامة صلاة الجماعة ليست بتأناً بديلاً عن صلاة الجمعة».	السبت 2016/9/3
- قطع الكهرباء عن البيوت المحاذية لساحة الفداء وبيت آية الله قاسم من حوالي الساعة 9:30 إلى 10:45 مساءً.	الثلاثاء 2016/9/6
- ذكرى وفاة الإمام الباقر (ع): مجلس عزاء مركزي.	الخميس 2016/9/8
- عيد الأضحى المبارك، وذبح ما يزيد عن 20 أضحية قرب منزل آية الله قاسم جُمع ثمنها من تبرعات المرابطين.	الاثنين 2016/9/12
- رسالة من المرابطين إلى آية الله قاسم: «إليك وبك نجدد البيعة والعهد، ونُفدَمَكَ فينا إلى الله ورسوله إماماً وبرهاناً أننا لسنا كبني إسرائيل في التهاون بحرمة الأولياء، ولا نقول قولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾».	الأربعاء 2016/9/14
- ثالث جلسات محاكمة آية الله قاسم. - إعلان شعار عاشوراء 1438 هـ: «إني أحامي أبداً عن ديني».	الخميس 2016/6/15
- رابع جلسات محاكمة آية الله قاسم.	الاثنين 2016/9/26
- فضلاء وطلاب البحرين في حوزة قم يوجهون رسالة إلى آية الله قاسم: «السلام عليك أبا فاضلاً، وقائداً ملهماً، وفقياً واعياً».	الاثنين 2016/10/3
- الحكم على كل من الشيخ فاضل الزاكي والشيخ محمد الشهابي والملا حبيب مفتاح بالسجن سنتين.	الجمعة 2016/10/7

السبت 2016/10/22	- بيان كبار علماء البحرين: «الآخذ بأيّ قانونٍ على خلاف أحكام المذهب يعتبر متمرداً عليه».
الاثنين 2016/10/24	- خامس جلسات محاكمة آية الله قاسم.
الأحد 2016/10/30	- اعتقال الشيخ هاني البناء بعد استدعائه.
الخميس 2016/11/3	- الإفراج عن الشيخ هاني البناء.
السبت 2016/11/5	- انطلاق مسيرة (لن نترك الأمين) ليلة محاكمة الأمين العام لجمعية الوفاق الوطني الإسلامية الشيخ علي سلمان.
الاثنين 2016/11/7	- ليلة وفاة الإمام الحسن (ع) 1438هـ: مجلس عزاء مركزي.
الثلاثاء 2016/11/8	- ذكرى وفاة الإمام الحسن (ع): مجلس عزاء مركزي.
الأربعاء 2016/11/9	- الوقفة التضامنية الأولى مع المختطف سيدعلوي سيدحسين قرب منزله بالدراز بعد مرور 17 يوماً على اختطافه.
الاثنين 2016/11/14	- الوقفة التضامنية الثانية مع المختطف سيدعلوي سيدحسين قرب منزله بالدراز بعد مرور ٢٢ يوماً على اختطافه. - دخول دورية أمنية (جيب) للساحة خلف منزل القائد حوالي الساعة 11 ليلاً لملاحقة إحدى السيارات وتأهب المعتصمين لمدة لا تتجاوز 10 دقائق.
الأربعاء 2016/11/16	- ذكرى مرور 150 يوماً على الاعتصام.
الخميس 2016/11/17	- ليلة وفاة الإمام الرضا (ع) 1438هـ: مجلس عزاء مركزي.
الجمعة 2016/11/18	- ذكرى وفاة الإمام الرضا (ع): مجلس عزاء مركزي.
السبت 2016/11/19	- الزحف الكربلائي إلى ساحة الفداء، تأسيساً بمشاية كربلاء.
الأحد 2016/11/20	- ليلة أربعين الإمام الحسين (ع) 1438هـ: مجلس عزاء مركزي.

- ذكرى أربعين الإمام الحسين 1438 هـ: مجلس عزاء مركزي.	الاثنين 2016/11/21
- بدء العمل على تسقيف ساحة الفداء استعداداً لموسم الأمطار. - انطلاق مسيرة ضخمة ليلة الجلسة السادسة لمحاكمة آية الله قاسم.	الثلاثاء 2016/11/22
- سادس جلسات محاكمة آية الله قاسم للاستماع لشاهد الإثبات الثاني. - رصد طائرة بدون طيار تحلق على ارتفاع عال فوق ساحة الاعتصام لمدة تزيد عن نصف ساعة.	الأربعاء 2016/11/23
- بدء موسم تساقط الأمطار وإزالة السجاد (الزل) من ساحة الفداء.	الخميس 2016/11/24
- تساقط الأمطار بكميات أكبر، ونزع السجاد (الزل) كلياً من الساحة، ووضع الحصير للصلاة ابتداءً وقت صلاة المغرب. - وقفة تجديد العهد لآية الله قاسم في ساحة الفداء، على الرغم من تساقط الأمطار، وقد حمل المعتصمون المظلات اليدوية (الشتري).	الجمعة 2016/11/25
- قوات أمنية وميليشيات مدنية تستنفر قرب دوار الدراز وتغلقه عند السادسة صباحاً، وتغلق شارع الجنبية ودوار سار، وتواجد قوات الكمندوز، ثم دخول القوات المختلفة إلى الدراز لأحياء مختلفة، وقيام عناصرها بالحفر عند مدخل الخال، وعند المقبرة وفي عدد من النقاط، واستمرار الموكب الأمني في التحرك قرب الكومد وشارع حمزة والينبوت.	الاثنين 2016/11/28
- انطلاق مسيرة ضخمة ليلة الجلسة السابعة لمحاكمة آية الله قاسم.	السبت 2016/12/3

- سابع جلسات محاكمة آية الله قاسم: تأجيل القضية حتى 5 يناير / كانون الثاني. - تأييد حكم الإعدام في ما يُعرَف بقضية تفجير الديه بحق عباس السميع (27 عاماً) وعلي السنكيس (21 عاماً) وسامي مشيمع (42 عاماً) وسط تنديد دولي وشعبي كبير.	الأحد 2016/12/4
- انطلاق مسيرة مناهضة لحكم الإعدام من جوار منزل آية الله قاسم.	الخميس 2016/12/8
- بيان كبار علماء البحرين حول قانون الأسرة: «تشريع قانون مع تخلف ولو شيء من هذه الضوابط لو جاء من أيّ متعبد بالمذهب فضلاً عن أيّ أحدٍ من خارجه يمثل ظلماً فاحشاً لأهل ذلك المذهب».	الجمعة 2016/12/9
- الاحتفال المركزي بذكرى المولد النبوي.	الجمعة 2016/12/16
- منع إدخال سيارات المياه الصالحة للشرب للدراز.	الاثنين 2016/12/19
- الهجوم على المعتصمين في الدراز حدود الساعة العاشرة صباحاً، مع محاصرة البلدة وإغلاق جميع نقاط التفتيش، ودخول أكثر من 20 مركبة عسكرية ومدرعات ومدنيين ومروحيات. - قوات الأمن تطلق مسيلات الدموع بكثافة عند منزل آية الله قاسم ومحاصرة منزل سماحته واعتقال شابين من أحد المنازل المجاورة له، وقد أفرج عنهم لاحقاً.	الأربعاء 2016/12/21
- انطلاق مسيرات غضب في ساحة الفداء، وكذلك في أنحاء البحرين في أعقاب الهجوم الغادر على المعتصمين.	الخميس 2016/12/22
- وزارة الداخلية تعلن عن هجوم مسلح على سجن جو وهروب 10 سجناء. - القوات الأمنية تقيم نقاط تفتيش في مختلف مناطق البحرين وسط إجراءات مشددة، وتستبيح بني جمرة لأيام.	الأحد 2017/1/1
- انطلاق مسيرة كبرى وهتافات غاضبة ليلة محاكمة آية الله قاسم.	الأربعاء 2017/1/4

- ثامن جلسات محاكمة آية الله قاسم: تأجيل المرافعة الختامية إلى 30 يناير / كانون الثاني.	الخميس 2017/1/5
- الاحتفال المركزي بذكرى مولد الإمام العسكري (ع).	الجمعة 2017/1/6
- عوائل المحكومين الثلاثة بالإعدام تتلقى اتصالات للحضور بشكل فوري ولقاء أبنائها، والسلطات تلغي الزيارات في سجن جو ليوم الأحد. - نداء علماء البحرين: «إن دماءنا ليست رخيصة.. فيا شعب البحرين الأبي هبوا لإعلان الغضب العام في جميع المناطق؛ إنقاذاً لأرواح الشباب الأبرياء المحكومين بالإعدام في هذه المحاكمة الباطلة الجائرة».	السبت 2017/1/14
- تنفيذ حكم الإعدام بحق الرجال الثلاثة رمياً بالرصاص فجر الأحد، وانطلاق تظاهرة غاضبة فور الإعلان عن الخبر في ساحة الفداء ومواجهات قرب الشارع العام.	الأحد 2017/1/15
- استمرار المواجهات اليومية وإصابات بالشوزن وقوات الأمن تطلق مسيلات الدموع.	الاثنين 2017/1/16
- بيان تعزية كبار علماء البحرين لعوائل الشهداء: «عند الله نحسبهم، وكلّ العزاء لشعبنا الصّابر، وللأسر المثكولة. تغمّد الله شهداءنا بالرحمة والرضوان».	الأربعاء 2017/1/18
- هجوم غادر عند حدود الساعة 3:30 فجرًا على ساحة الفداء من قبل ملثمين بالشوزن والرصاص الحي، ولا يرتدون الزي العسكري، في عربات خاصة وغير رسمية، تحمل رشاشات ومسدسات فرد وسلاح الشوزن مع ما يزيد عن 20 مركبة متنوعة. - سقوط مصطفى حمدان بطلقة نارية أصابت رأسه عند حدود ساحة خمدن. - اعتقال 7 شبان من محيط منزل آية الله قاسم.	الأربعاء 2017/1/25
- بيان علماء البحرين: «ندعو لمسيرات الأكفان مساء الأحد (ليلة الإثنين) في جميع المناطق تحت شعار «فلندافع عن ديننا وعزتنا»».	الجمعة 2017/1/27

الأحد 2017/1/29	- انطلاق مسيرات الأكفان الجماهيرية في كل أنحاء البلاد.
الاثنين 2017/1/30	- تاسع جلسات محاكمة آية الله قاسم: تأجيل جلسة محاكمة آية الله قاسم وآخرين لتاريخ 27 فبراير / شباط.
الاثنين 2017/2/13	- اعتقال (أحمد الرئيس) من مقر عمله.
الاثنين 2017/2/27	- عاشر جلسات محاكمة آية الله قاسم: تأجيل القضية للحكم في 14 مارس / آذار وممثل النيابة: «النيابة تطالب بتوقيع أقصى عقوبة».
الثلاثاء 2017/3/14	- الجلسة الحادية عشر: مد أجل الحكم في قضية آية الله قاسم إلى 7 مايو / أيار.
الجمعة 2017/3/24	- استشهد مصطفى حمدان متأثراً بإصابته برصاصة في رأسه في الهجوم على اعتصام الدراز في 26 يناير / كانون الثاني.
الأربعاء 2016/4/19	- بيان آية الله قاسم وكبار علماء البحرين: «لا زال الموقف العلمائي مُصرّاً على المطالبة بالضمانات الدستورية التي تحصّن قانون الأسرة».
الأحد 2017/5/7	- الجلسة الثانية عشر لمحاكمة آية الله قاسم: تأجيل الحكم بقضية الشيخ عيسى قاسم إلى 21 مايو / أيار.
الأحد 2017/5/21	- الجلسة الثالثة عشر لمحاكمة آية الله قاسم: قضت المحكمة الكبرى الجنائية الرابعة بالحبس لمدة سنة بحق آية الله قاسم، ومدير مكتب البيان للمراجعات الدينية الشيخ حسين يوسف القصاب (المحروس)، والعضو في مكتب البيان ميرزا الدرازي، وقررت المحكمة وقف تنفيذ عقوبة الحبس لمدة 3 سنوات بعد صيرورة الحكم النهائي، وبُردت ذلك بأن «قاسم طاعن في السن وبلغ من الكبر عتياً، وخلت صحيفة المتهمين من ثمة سوابق، فالمحكمة تأخذ المتهمين بقدر من الرأفة».

- اقتحام القوات الأمنية للدراز وفض الاعتصام بالقوة وإخلاء الساحة واعتقال قرابة 300 بحريني، وسقوط 5 شهداء هم: الشهيد محمد كاظم محسن زين الدين، والشهيد محمد علي إبراهيم الساري، والشهيد أحمد جميل العصفور، والشهيد محمد عبد الكريم العكري، والشهيد محمد أحمد حمدان (شقيق الشهيد مصطفى حمدان).	الثلاثاء 2017/5/23
---	---

شهادات من ساحه الفداء بالدراز

لا أظن أن أحدًا من الشباب أغمض عينيه في تلك الليلة، فقط مجموعة صغيرة من أهل الاطمئنان مثل الشهيد «محمد كاظم زين الدين»، الرجل الهادئ والريز والموثر اجتماعيًا من دون بروز أو ظهور، والشهيد «أحمد جميل العصفور» الذي كان ضمن ثلة المرابطين حول منزل الشيخ قبل الاعتصام، ولديه تاريخ في ارتباطه بالعلماء والتصاقه بهم، ومعروف عنه حمايته للشيخ علي سلمان والسيد عبدالله الغريفي وسماحة الشيخ عيسى قاسم، نام في المنزل المجاور لبيت الشيخ. في ذلك المنزل، كانت هناك صيانة للسور الجانبي، وبجانبه، هناك أحجار «كنكري» الخاصة بالبناء، الشهيد العصفور نام على هذه الأحجار متأهبًا مترقبًا. يا الله، كيف تغفوا عين هؤلاء؟ أي طمأنينة يعيشونها؟ كان الشهيد العصفور يقول لأحد الشباب: «لن أسمح لهم باعتقالي وأخذ الشيخ، ليقتلوني قبلها»، وقد فعلها.

ISBN 978-9953-0-5265-6



9 789953 052656 >



مركز أوال للدراسات والتوثيق

AWAL CENTRE FOR STUDIES AND DOCUMENTATION